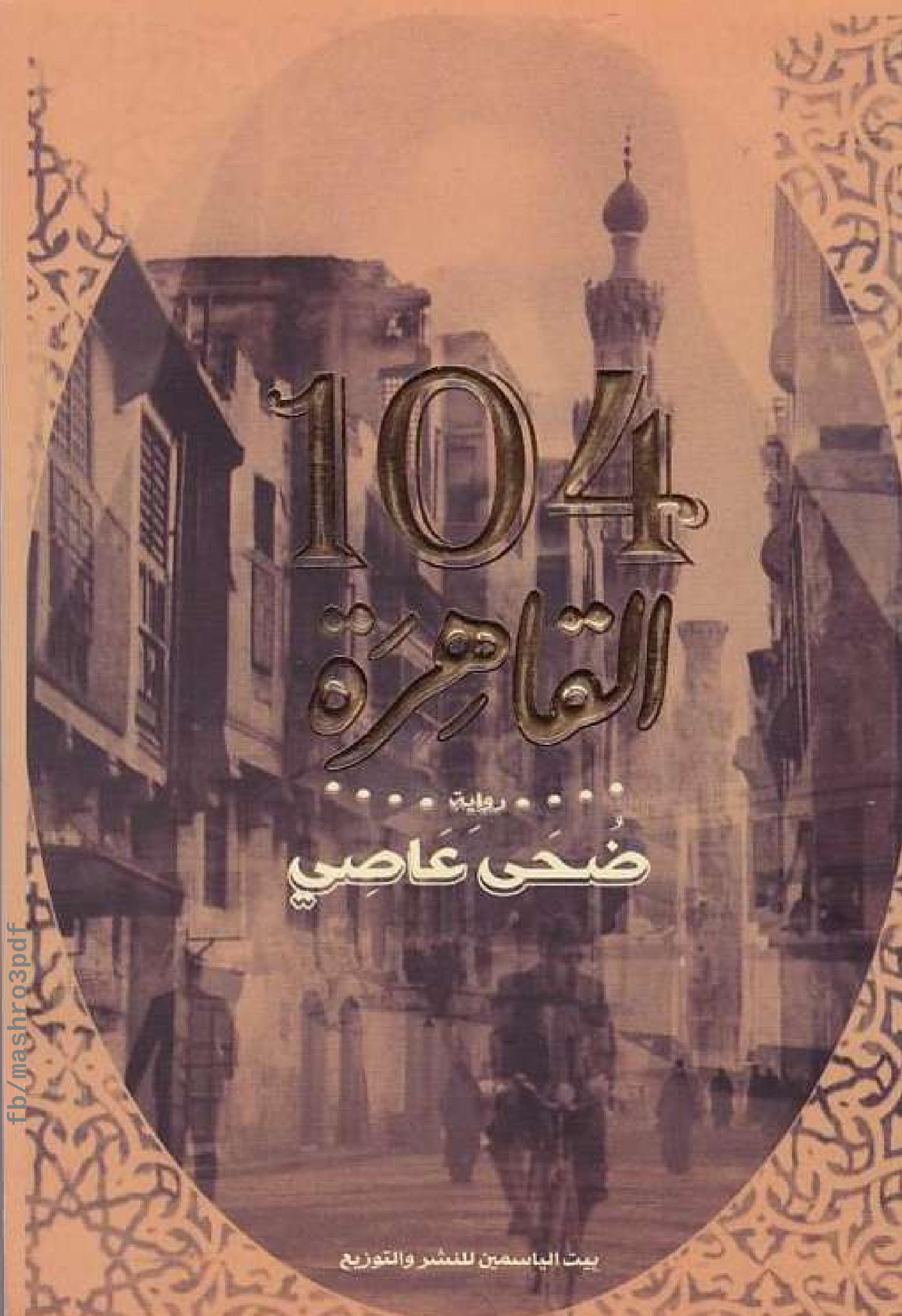

104
القاهرة
رواية
ضحى عاصي
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
fb/mashro3pdf

ضحى عاصي

104 القاهرة

رواية





اسم الكتاب:
104 القاهرة
المؤلف: ضحى عاصي
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2016/16374
الترقيم الدولي:
978-977-817-000-9

الطبعة الأولى 2016.
الغلاف لـ عبد الرحمن الصواف
تصحيح: محمد حمدي أبو السعود

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثاني شقة 3
53 ش خيرت - ميدان لاظوغلي عابدين
جمهورية مصر العربية

البريد الالكتروني:
ziadibrahim_2008@yahoo.com
ziadibrahim1979@gmail.com
Baitelyasmin@yahoo.com
Baitelyasmin@gmail.com

تليفون:
(+202) 27949885
(+2) 011100 94 62 5
(+2) 010166 85 58 3

إلى روح الشيخ المستنير مصطفى عاصي

إلى ملك... روحي

عندما تفقد كل شيء في لحظة خاطفة، تذكر أنك عندما ولدت لم تملك أي شيء غير قوة الحياة بداخلك

ضحى عاصي

104 القاهرة

- 1 -

كلُّ ما يَحدث الليلةَ غريبٌ تمامًا عليه، غرابةَ وجودِه في هذا المكان، جَلس الأسطى حَسَن في هذا العزاء المقام في جامع عُمَر مكرم وقد أصابته حالة من الذهول التام، عيناه لا تفارقانِ أضواء الكهارب وفخامة الأقمشة وكِمية النجَف المضاءة، وهو الذي كان يعاني شهريًا مِن دفْع فاتورة الكهرباء التي لا تتجاوز العشرين جنيهًا، كَمْ مَن المَبالغ سيتم دفعها مقابل هذه الكَمِّية الهائلة مِن الكهرباء! حتى الشيخ المُقرئ يتقاضى آلافَ الآلافِ مِن الجنيهات ليقرأ رُبعَ قرآن! كل هذه المَبالغ التي تُصرَّف في ليلةٍ واحدة عاش عمرَه كله يحلم أن يمتلك رُبعها أو عُشرَها أو حتى يراها فقط رؤية العين. لم يكن حَسن يتصور أنه يومًا ما سيدخل هذا المكان أو يمُر حتى قريبًا منه، فعندما يكون هناك مأتَم فإن الحرَس والسيارات الفارهة التي يَخرج منها بشر ليس لهم علاقة بعالَمِه يمنعون مرور البسطاء، أو ربما كان البسطاء أنفسُهم يخافون المرورَ بجوارهم.

لم يملك حَسن يومًا سِوى قائمةٍ من الديون، أمّا أصدقاؤه فكانوا على شاكلتِه ما بين تَبّاع ميكروباص أو صَنايعي أرزقي. حَسن عمرُه الآن خمسون عامًا قضاها في محل منجِّد، تَدرّج مِن صَبي حتى أصبح أسطى.. نَعَم الجميع ينادونه الأسطى حَسن، لكنه هو وحدَه كان يعرف جيدًا أنه أسطى «كُلشينكّان»، حياتُه كانت سلسلة من

الملاحقات مِن أصحاب الأطقم التي تسلَّمَ عربونَها وأنفقَه على مقهى زهير في القلعة، حيث قضى معظم عمرِه يدخن الشيشة ويحكي عن أصاله نَسبِه وأن أخوالَه لأُمِّه ينتمون إلى الشيخ حَسن طوبار، شيخ بلدة المنزله وزعيم المقاوَمة الشعبية أيام الحَمْلة الفرنسية، لذا أسمته أُمُّه حَسن، تيمُّنًا بجَدِّها الأكبر حَسن طوبار والذي اعتبَره الفرنسيون خصمًا عنيدًا لا يُستَهان به، فقدْ كان يجوب البلادَ بنفسه يحرِّض الأهالي على الثورة، ويرسِل أتباعَه إلى بعض البلاد الأخرى لتنظيم المقاوَمة ضد الفرنسيين، كما حرَّضَ سكانَ بعض القُرَى الواقعة على النيل على إطلاق النار على السفن التي أقلَّت الجنودَ الفرنسيين، ولذا كان الفرنسيون يحسبون له ألفَ حسابٍ ويسعون بمختلف الوسائل أن يُخضِعوه أو يجتذبوه لصفوفهم، فأرسَل نابليون بعضَ الهدايا إلى الجنرال فيال ليقدِّمها باسمِه إلى حَسن طوبار، ولكنه رفضَ الذهاب لاستلام هدايا نابليون، وكان رده أنْ جهَّزَ مجموعة مِن الفلاحين والعرب للهجوم على الجنود الفرنسيين، لم يفلح الفرنسيون في استمالته ولكنهم أيضًا أدرَكوا أنه مِن الصعب إلقاءُ القبض عليه، لأن ذلك سيكون شرارةً لثورةٍ عارمة في البلاد.

كانت هذه القصص التي يحكيها حَسن عن الجنرال فيال وداماس وكيف كان جَدّه بطلا وطنيًا عفيفًا دائمًا مقدِّمةً للاعتذار عن عدم مقدرته على سداد ديونه، وللتاكيد على أنه ابن أصول ولن يأكل حق أحد، وكان دليله الوحيد على هذا أن اسمَه حَسن وأن أصول أسرته تعود إلى قرية المَطَرية التابعة لمركز المنزلة. كثيرًا ما كان

الدائنـون يُنصِتـون لـه ويتابعـون باهتـمام قصـص حَسـن طوبـار الكبـير زعيـمِ المقاوَمـة الـذي مـات فجـأة بالسـكتة القلبيـة، والـذي تَصـدَّر خـبرُ وفاتـه إحـدى الجرائـد الفرنسـية وقتَهـا، ولكـن إذا أراد أحدهـم أن يسـتفز حَسـن يقـول لـه «مقاومـة إيـه يـا حسـن؟ أمَـال عينيـك الخضرا وشَـعرك الأصفـر والبيـاض ده منـين؟ انـت جـاي مِـن نَطـة فرنسـاوي» كانـت هـذه الجملـة بمثابـة ضربـة قاتلـة لحَسـن، تجعـل وجهَـه الأبيـض ينفـر احمـرارًا كحبَـة طماطـم ولكنـه يتمالـك نفسـه ويجيـب «أصلكـم جهلـة متعرفـوش أن الحملـة الفرنسـية أيـام نابليـون ماكانـوش عسـاكر بـس، كان معاهـم نسـوانهم وبناتهـم، ولمـا كانـوا بيتهزمـوا في معركـة كانـوا المصريـين بياخدوهـم سـبايا ويعاشروهـم ويخلّفـوا منهـم».

يتزايـد ذهـول حَسـن كلـما دخـل القاعـةَ رجـالٌ تبـدو عليهـم ملامـح الحـزن والتأثـر أحيانـا لدرجـة البـكاء، لم يفهـم حَسـن شـيئًا هُيِئ له أن بعـض الوجـوه معروفـة لـه، ربمـا رآهـا مِـن قَبـل في التلفزيـون أو عـلى صفحـات الجرائـد، ولكـن تعبيراتِهـم هُنَـا مختلفـة، اختفـت علامـات الغطرسـة والكِـبر والعَنجهيـة، كانـت هنـاك حالـةٌ مـن الحـزن العميـق تسـود المـكانَ كلـه جعلـت الصـوانَ صامتًـا لا يقطـع صـوت الحـزن فيـه إلا صـوت المُقـرئ.

هُيئ لـه أنـه يـرى أصدقـاءَه وعِـشْرةَ عمـرِه في مقهـى زهـير يجلسـون بجـواره في المأتـم، عـلى يمينـه محمـد رزه سـائق الميكروبـاص والـذي دائمًـا مـا زَج بـه في معـاركَ بسـبب نِصـف جنيـه، تبـدأ المعـارك بسـب الديـن وتنتهـي غالبًـا بجـروح متفرقـة في الوجـه والجسـد، وعـلى يسـارِه

الشيخ رجب كوبرا يجلس في مواجهة أحد وجهَاء المجتمع وربما مِن هيئته والحراسة التي حولَه يبدو كأنه أحد رجال الشرطة المهمّين، رجب النصاب والذي في الأصل يعمل منجِّدًا إفرنجيا، استطاع إقناعَ الجميع أنه اتبع الطريقة الرفاعية وتعلَّمَ حواية الثعابين على أيدي الشيخ علي نور الدين المشادوي، أشهرِ مَن لهم القدرة على اصطياد الثعابين واستخراجها من البيوت بقراءة تعويذة الكفكفية، تَذكّر حَسن كيف قضى ليلة مع الشيخ رجب في اصطياد حَيةٍ بعد استغاثة أحد الجيران بوجود كوبرا في منزِله، وقتَها هرعَ جميع الجالسين على مقهى زهير مع الشيخ رجب إلى هذا المنزل، وقام رجب باصطياد الحَية التي كادت أن تلدغه لولا ستر الله، بعدَها سهِرَ الجميع سهرة رائعة تناوَلوا فيها جميع أنواع المخدَرات احتفالا بسلامة الشيخ، وتحت تأثير السطَل اعترفَ كوبرا لحَسن أنه لا يملك من الروحانيات ما يجعله قادرًا على السيطرة على الثعابين، وأنه ليس رفاعيًا أصيلا، ولكنه عندما حضرَ مع الشيخ المشادوي عدة حلقات ذِكرٍ قررَ مِن وقتِها أن تكون هذه هي مهنته الجديدة، واعترفَ أيضًا لحَسن أنه هو مَن قام بوضع الثعبان على وسطِه، ثم قام برميه داخل المنزل، وأنه عادةً ما يفعل ذلك وينتظر قريبًا من المنزل حتى يسمع الاستغاثةَ وأحيانا اختصارا للوقت يقوم بإخبار صاحِب المنزل مباشرةً، بعد أن يُلقي الثعبانَ ويتفق على إخراجه مقابِل مبلغٍ من المال، وقتَها يُخرِج رجب عصاه التي وضَع عليها بعضًا مِن دِهن الثعبان،

فيحضر الثعبانُ متبعًا حاسةَ الشم القوية عنده.

نعم هي تهيؤات.. كيف يمكن لرجب النصاب أن يجلس في مواجهة مدير أمن العاصمة دون أن يرتجف؟!

كان حَسن يراقِب الحضور بعينين زائغتين متشككًا متسائلا، وجملة واحدة تتردد في رأسه: وجود عزاء في عمر مكرم بهذه الفخامة والثراء أمرٌ منطقي، ووجود هؤلاء الباشوات والهوانم في هذا المكان أيضًا أمر منطقي، أمّا وجودي هنا...!

... ورْطَة!

ورطةٌ حقيقية لا يعرف كيف يفسرها، نجاته الوحيدة مِن هذه الورطة أن يصدق أنه مسطول وأنه دخَّن سيجارتَي حشيش، أو بلبعَ برشامتَي صراصير، أو ضربَ قرصَيْ تهيؤات جعلته يتصور أنه هُنا في جامع عمر مكرم في مأتم انشراح زوجته!

انشراح «بنت الكلب» كما كان يحلو له أن يناديها، انشراح التي عاشرَها حوالَي ثلاثين عامًا لم يرَ فيها غير كتلةٍ من اللحم متكورةٍ تقترب من الأرض وترتدي السوادَ وتلف الطرحةَ حول وجهها بصورة تثير الشفقة.

من المؤكد أن هناك سوء تفاهم، لابُد أنها انشراح أخرى، انشراح تستحق أن تنخلع لفراقها قلوبُ هؤلاء البكوَات والهوانم، انشراح جديرة أن يقام لها عزاء في عمر مكرم، أمّا زوجته انشراح فمستحيل.. هناك التباسٌ ما!

****

- 2 -

اسمي انشراح عويضة

هذا المأتم في عمر مكرم هو مأتمي، حَسن زوجي في حالة ذهول أو صدمة، لا يفهم شيئًا، عِشتُ معه حوالَي ثلاثين عامًا حتى توفاني الله، وهو لا يفهم شيئًا ولا يريد أن يفهم شيئًا، إنه حتى لم يفكر يومًا ما أنه يحتاج أن يفهم أي شيء، باختصار حَسن حُمَار!

«عندما تموت وتترك جسدَك تكون أكثر تحررًا وسعادة، ولا تؤلمك الأشياء الصغيرة التي تَجرحك وأنت محبوس داخل هذا الجسد. عندما تموت تتحرر من أزمة الإنسان الكبرى، **الخوف**».

كنتُ صغيرة في الخامسة عَشْرة، أذهلتني كلماتُ صديقي الزائر الليلي عندما جاءني لأول مرةٍ، وقتَها كانت جَدتي على فراش الموت ورفض سيد أخي الأكبر أن أكمِل تعليمي، وصوت صفارات الإنذار المدوي في كل مكان، كنتُ خائفة جدًا، أطراف مجمّدة، شفتاي لونهما أزرق، جسدي كله يرتعش شعرت أنني لا أستطيع التنفس، وزادت ضربات قلبي لدرجةٍ تصورتُ معها أن جدران المنزل تهتز معها.

استطردَ قائلا:

«جَدتك الآن سوف تنتقِل إلى العالَم الحقيقي، عالم أكثر تحررًا وسعادة، سوف تتحرر مِن أهم نواقص البشر، الخوف، يجب أن

تكوني سعيدةً مِن أجلها».

كان صوته مطمئنًا دافئًا، أخذَ يضحك معي قائلا:

«لا تخافي، يتملك الناسَ الخوفُ عندما يشعرون بالضعف والاحتياج، وأنتِ قوية، تأكدي لن يحدث لكِ أي شيء سيئ ومهما حدثت لكِ أشياء قاسية ستتغلبين عليها وتحوّلينها لصالحك، أنا أحبك يا انشراح لأنكِ مِثلي تمتلكين فيريل، ولذا ستكونين أهلا لسيادة جسدك والناس والعالَم جمعًا، فيريل.. تذكّري هذه الكلمة جيدًا، ردِّديها دائمًا إنها مَصدر قوتِكِ في الحياة».

حيَّرَني هذا الصوت الذي يزورني، صوت مجهول ليس له هوية، الغريب أنه لم يخِفني، بعد فترة ألِفتُه بل اعتبرتُه صديقي.

شغلتني كلمات صديقي الليلي وظللت أبحث عن تفسير فيريل سنواتٍ طويلة، ولكنني لم أتحرر من الخوف إلا في المرات التي مِتُّ فيها، نَعَم فهذه ليست المَرةَ الأولى التي أموت فيها، لقد سبق ومت على ما أتذكّر حواليَ أربع أو خمس مراتٍ، حتى أصبحتُ مشهورة في المنطقة التي أسكنها بـ«انشراح أُم خَمس أرواح».

ولكني أشعر هذه المَرة أن موتي نهائي، موت لا رجعة منه.

ولكن ربما هذا أفضل، فمِن مَكاني هُنَا أستطيع أن أرى كلَّ شيء بوضوح وصدق أكثر، حتى الأشياء أفهم لغتَها، لقد سمعتُ عروستي أم أحمد، وطاسة الزيت ومقصي، كانوا يبكونَني بعد موتي.

سمعت القصص والحكايات التي نسجها الناس عني، وعلمتُ أن

هناك مَن يقوم بعمل رسالة دكتوراه عن حياتي، وأن هناك أيضًا مَن يحاول أن يكتبَني روايةً. سأتركهم يكتبون ما يريدون، ولكن ربما أضطر أحيانًا أن أتدخل وأحكي عن نفسي مِن وجهة نظري أو أن أضيف لهم كنوعٍ مِن المساعدة أشياء لا يعلمُها عني غيري. وهي أيضًا فرصة لي أن أحكي عن أشياء لم يكن ممكِنًا أن أقولها وأنا محبوسةٌ داخل جسد انشراح وعلى ذِمة حَسن!



- 3 -

«أم أحمد شايلة أحمد.. ساحبَة أحمد بإزازة»

عشقتْ انشراح أمّ أحمد صديقتَها الأولى، والتي ظلت معها عمرها كله وأنقذتها بأعجوبةٍ، عندما سكبَ حَسن الجاز على دولابها في إحدى خناقاتهما الكبيرة، فقدْ كانت متعتها الوحيدة في الطفولة وهمّها الوحيد كل أيام الأسبوع هو جمْع هذه الزجاجات الفارغة، حتى تفوز بأم أحمد ونيستِها الوحيدة في هذا المنزل الخاوي مِن البشر والذي بالرغم مِن ضيقِه وصغرِ مساحته يبدو كالقصر، لا أحد فيه يرى أحدًا، الأب رجُل شابّ سلوكُه كثيرٌ مِن الشبهات، كان تاجِر «شَمَاسي» معروفًا وقيل إنه كان يعمل في تسويق العاهرات، وإنه كان يملك الكثير من العلاقات غير الواضحة مع الجنود الإنجليز والذين تَعرّف عليهم في شارع عماد الدين، حيث سهراته الليلية المعتادة وحيث تعرّف على فاطمة راقصة عماد الدين التي افتتنت به وتزوجته وأنجبت منه بيسة، وقيل إنه كان الفتوةَ، وقيل إنه كان يتاجر في المخدرات، لم يكن أي شيء واضحًا بالنسبة لانشراح، كانت قاهرةُ أواخرِ الخمسينات وأوائل الستينات تختلف كثيرًا عما قبل، لم يكن هناك جنود إنجليز، ولم يعُد هناك مَلِك، ولم تعُد هناك طرابيش، كان ناصِر في كل مكان وكانت الثورة، انشراح التي دخلَ أبوها السجن وعمرها أربعون يومًا تزامنت مع

قيام ثورة يوليو، لم تَعرِف لها أبًا سِوى ناصِر.

كانت اللعبة المفضَلة لها في الحارة هي «الإمه»، تجري انشراح بكل قوتها تسابِق كل الأطفال ولا تلتفت وراءها وهي تجري، تعلَم جيدًا أن الثواني التي تلتفِت فيها قد تعطِّلها، تجتهد حتى تلمس الحائط قبل الآخرين، هي الفائزة.. هي الأولى.. هي مَن تستحق أن تكون ابنةَ ناصِر، وهناك عندما تلمس الحائطَ تصرخ بأعلى صوتها مِن الفرحة «عبد الناصر أبويا، عبد الناصر أبويا» ظلت سنواتِ طفولتها المبكرة تتباهَى بأن عبد الناصر أبوها حتى التحقت بالمَدرَسة، وكانت تكتب اسمَها على الكرّاسات المَدرسية انشراح عبد الناصر، وقتها اكتشفتْ أن اسمَها انشراح عويضة، وحتى بعد أن وبَّخها المُدرِّسون أصرت على أن تكتب على الكرّاسات انشراح عبد الناصر عويضة.

****

حياة المناديلي الشهيرة بأم سيد، كما وصفتها انشراح في مذاكراتها:

«أمي كانت سِت جبارة مبتتكلمش خالص تحس أنك قدام مغارة كلها خبايا، أنا كنت بتكلم مع ستي نرجس كتير أوي اكتر من امي بكتير لدرجة إني مش فاكرة صوتها، وكان ضيوفها كتير وهي دايما ساكتة تسمع وبس وتشرب سيجارتها وتبتسم، وعمرها ما كانت تشتكي، كانت بتقول إن الشكوى قلة صبر وقلة **حيلة، وكمان كانت ذكية، واحنا صغيرين** كانت **بتقول لنا إن**

العيش المعفن بيطول العمر علشان نرضى ناكله، لما كبرنا فهمنا إن ده كان فقر وإن ماكانش معاها حتى حق عجنة».

عشقتْ حياة عويضة بالرغم مِن أنه أذاقها الكثير من المرارات في حياتهما معًا، كانت تحبه بجنون، وغفرتْ له غلطته عندما تزوج فاطمة التي سرعان ما طلَّقها بعد عدة أشهر، حتى عندما قُبِض عليه كانت تدافع عنه وتؤكد أن ما حدث له كان مجرد ظلم وافتراء، وأنه تم الزج به بعد أن خُدِع مِن أحد أصدقائه. رفضت الطلاقَ وصممتْ أن تنتظره، قضت عمرَها وهي تسعى من أجل الإنفاق على خمسةٍ مِن العيال وأمِّها نرجس، التي قررت ألا تترك ابنتَها حياة وانتقلت معها إلى درب شغلان، بعد أن رفضَ إخوة حياة أن تظل في بيت العيلة في تحت الربع، لأنها تمسكت بزوجها البلطجي ورفضت أن تطلب الطلاقَ كما أرادوا.

بيسة -بسبوسة- الجزء الآخَر مِن العالَم على بُعد عشرين دقيقة بالسيارة، تأتي السيارة كل يوم خميس يقودها الشيفور المتأنق، ينتظر أسفلَ المنزل المتآكل في درب شغلان، وكل أطفال الحارة يلتفون حول السيارة يلمسونها كأنهم يأخذون منها البَرَكة.

الشيفور يقف متأففًا ينظر إلى سيارته التي علاها التراب في لحظة، يحاول جاهدًا أن يبعِد جمهرة الأطفال عن سيارته ولكن دون جدوى، ينظر إلى السيارة وقد لطَّختها مِن كل جانب أيادي أطفال درب شغلان الملوثة، يَكره هذا الخميسَ الدائم والذي يضطره للتعامل مع هؤلاء الرعاع.

نَعَم هذا الخميس الذي ينقل انشراح إلى عالَم آخر، منزل يشبه القصورَ حفرت كل تفاصيله في ذاكرتها البكر، بدءًا مِن قاعة الاستقبال المكوّنة مِن عدة صالونات وكونسول مذهّب ومزخرف مغلف بورق الذهب، إلى جانبيهِ مقعدانِ من القماش باللونيْن الأزرق والزهري، وفوق كلّ مقعد علّقت لوحة من العمل اليدوي بإطار مزخرف شكله بيضاوي، طغَى عليهما اللون الزهري، مرورًا بغرفة الطعام والتي التفّتْ حول طاولتها مقاعدُ مِن الخشب المشغول مكسوة بالجِلد البُني، وعلى أحد جدران غرفة الطعام كانت آلة البيانو التي علُّق فوقَها لوحة مِن قماش الكانافا وضِعت في إطارٍ مذهّب. أمّا في الطابق العلوي كان جناح غرف النوم المؤلّف مِن ثلاثِ غرف نوم وحمّامات، كانت الغرفة الرئيسية لفاطمة وزوجِها، وغرفة لبيسة، أمّا الثالثة فغرفة الضيوف حيث كانت تقيم انشراح عند زيارتها كان إطار سريرها مِن القماش الأحمر والخزانة والمقاعد فمِن الخشب المشغول. حتى الحمّامات قد اتسمت بكِبَر مساحتِها، حتى الحوائط والأرضيات والسقف مكسوة بالبلاط الموازييك الأزرق والأبيض، أما الإنارة فكانت موزعة بطول السقف.

ربما لا تفهم انشراح في هذه السن الصغيرة الفرقَ بيْن الغِنَى والفقر، ربما لا تعرف كيف تعيش هي في هذا المنزل الفقير في حارة سَد، وتعيش بسبوسة في هذا القصر الكبير في منشية البَكري، كانت صغيرةً بشكل كافٍ حتى لا تهتم بهذا، كان سؤالها الوحيد

كيف تكون بسبوسة أختها وكل منهما تعيش بعيدةً عن الأخرى!

تتذكر انشراح دائما قصة أمها، كيف أصرت أن تذهب لزيارة عويضة صباح زفافه على زوجته الجديدة فاطمة راقصة عماد الدين، محملة بالفطير الذي صنعته بنفسها بالسمن البلدي، تحكي كيف نظرت لزوجها قائله «ولادك بيصبحوا عليك».

لم يستمر هذا الزواج إلا شهرين، خرجت منه فاطمة بطفلة لم يرها عويضة، لكن أمها أصرت أن تحتفظ ابنتها بعلاقتها بأخواتها، وخاصة انشراح التي تقاربها في العمر، وكثيرا ما كانت ترسل المساعدات لحياة وأبنائها، بعد دخول عويضة السجن، لدرجة أن حياة اعترفت يوما بأن فاطمة استطاعت بمعاملتها الطيبة أن تمحو من قلبها مشاعر الكره تجاهها، وتبدلت الجملة التي اعتادت عليها حياة إذا ما ذكرت فاطمة، فبدلا من أن تقول «رقاصة عماد الدين» أصبحت تقول «فاطمة دي محترمة، دي رقاصة بس برتبة فنانة».

اختفت بسبوسة مِن عالَم انشراح، كانت تسأل لماذا لم تعُد السيارة تأتي لتأخذني كل يوم خميس؟ كانت الإجابة «بيسة سافرت».

كانت بيسة أول المسافرين، ولم تكن آخرَهم، فقدْ سافرت أيضًا عائلة بريان الأرملي.

أول صورةٍ في حياة انشراح، التقطتها عدسة بريان الأرملي في شقةٍ صغيرة في شارع شامبليون، حيث كان استوديو التصوير

الخـاص بـه، كانـت انـشراح في السادسـة أو الخامسـة مِـن عمرهـا، وربمـا كانـت أصغـرَ حـين اصطحبتهـا أمُّهَـا إلى العَـم بيريـان، لم تـدرِك انـشراح طبيعـةَ العلاقـةِ بـين أمِّهـا وذلـك الشـاب الوسـيم جـدًا، فقـدْ كان مظهـره مختلفًـا عـن الرجـال في درب شـغلان، هـو يتحـدث بلغـةٍ عربيـة تتخللهـا كثـيرًا مِـن الكلـمات الغريبـة ومعظمهـا مِـن الفرنسـية، طويـلٌ ذو جسـمٍ فـارعٍ، ذو شَـعرٍ أسـودَ كثيـفٍ شـديد النعومـة، الـشيء الوحيـد الـذي كان يزعـج الطفلـةَ هـو أنفـه الطويـل المعقـوف، ولأنهـا لم تَجـرؤ أبـدًا أن تتكلـم في أي شيء، ولا عـن أي شيء، إذا مـا اصطحبتهـا أمهـا يومًـا معهـا في أي مـكان، كانـت دائمًـا تقـول في سِرِّهـا «سـيكون أجمـلَ كثـيرًا بـدون هـذا الأنـف».

ذكريـاتٌ كثـيرة ظلـت في وجـدان انـشراح، الصـورة الأولى في حياتهـا والتـي ظلـت محتفظـة بهـا حتـى أكلتهـا نـيران خناقـة الجـاز الشـهيرة بينهـا وبـين حسـن، لم تكـن الصـورة هـي آخـر الأشـياء التـي تعرفـت عليهـا انـشراح مـع العـم بيبريـان، فهـي لم تنـسَ مـذاق الآيـس كِريـم السـويسري في مقهـى جـروبي، قالـت لهـا أمهـا وقتَهـا إن الملـك فـاروق كان يجلـس هُنَـا في هـذا المـكان، وإنهـا لـولا نـاصر لَمَّا اسـتطاعت أبـدًا الجلـوسَ في جـروبي حتـى ولـو كانـت بصحبـة بيريـان الأرمنـي، وقتَهـا كانـت طفلـة لا تعنـي لهـا هـذه الجملـة أي شيء بقـدْر حـلاوة هـذا الآيـس كِريـم السـويسري والـذي يختلـف طعمـه كثـيرًا عـن ذلـك الـذي تشـتريه مِـن أم قـويء في الحـارة...

الغُصَـة الوحيـدة التـي كانـت في قلـب انـشراح تجـاه عبـد النـاصر، أنه

حرَمَها مِن أسرتها الثانية التي كانت تقضي معها وقتًا طويلا عندما تذهب أمها إلى عملها كتُمَرجية في مستشفى غَمرَة، حيث تعرفت على بيريان عندما كان والده هاجوب مريضًا هناك.

عشقتْ انشراح الجلوسَ بجانب هاجوب الضرير الذي اعتبرته جَدّها، تُحييه بأغنيتها المفضلة لها كلما رأته «وصلي صلي صلي، ع النبي صلي، صلّي، واللي ما يصلي صلّي، أُمه يهودية، صلّي، وأبوه أرملي، صلّي، وادحرج واجري يا رُمّان».

يرد عليها هاجوب فاردًا ذراعيه مشيرًا لها بيديه الاثنتيْن أن تأتي:

«وتعالى على حِجري يا رُمّان»

تقفز انشراح وتجلس في حِجر هاجوب، تتابعه بدهشة وهو يعيد تركيب وربط مسامير مَكَنة الخياطة التي فكّها البغبغان آرسي، فقدْ كانت هذه لعبة آرسي المفضلة، يفُك مسامير مَكَنة الخِياطة ويعيد هاجوب الضرير ربطها كل يوم، تتساءل كيف لأعمى أن يفعل ذلك؟ أمّا الهواية الأخرى لهاجوب فكانت عملَ النبيذ الأحمر بنفسه في المنزل، وهو النبيذ الذي شربت منه انشراح بالخطأ متصورةً أنه كركديه وكانت ليلة!

أثّرَ النبيذ على الطفلة بنموذج «الفكرة المثبتة الواحدة»، فللخمر تأثيرات متنوعة ومختلفة على البشر.

سيطرت فكرةٌ واحدة على عقل انشراح، فكرة البحث عن ليمونة مفقودة، وجملة واحدة فقط على لسانها:

فين الليمونة؟ كانت هنا الليمونة، فين الليمونة؟ قالتها أكثرَ مِن

سـتين مَـرة، وبالطبـع اكتشـف هاجـوب وزوجتـه آرام أنـوش أن انـشراح سـكرَى!

ومـع كل مـرةٍ كانـت تسـأل انـشراح عـن الليمونـة، ينفجـر هاجـوب وآرام أنـوش في ضحـكٍ حـاد يتزايـد مـع تكـرار سـؤال فـين الليمونـة؟

أول كأس نبيذ في حياتها وربما كانت الأخيرة.

لم تكـن انـشراح تجيـد نُطـق أسـماء عائلـة ببريـان، ولكـن آرام أنـوش شرحـت لهـا أن آرام أنـوش يَعنـي بالأرمينيـة المـربّي الحلـوة، وأن أغافنـي تعنـي العصفـورة، ظلـت انـشراح تحِـب الذهـاب إلى المـربّي الحلـوة، تتبعهـا وهـي تعمـل مشـايات بالكورشـيه مـن الجـوارب الفيليـه المسـتعمَلة، ولوحـات الكنافـا، تعرّفـت معهـا عـلى البانتيـور، أهدتهـا آرام أنـوش فسـتانًا مِـن الكورشـيه صنعتـه لهـا خصيصًـا، ظلـت محتفِظـة بـه حتـى أهدتـه فيـما بعـد لابنتِهـا شـيماء. كانـت آرام أنـوش تحـكي لهـا أيضًـا الحكايـاتِ عـن سـندريلا وذاتِ الـرداء الأحمـر والرجُـل ذي اللحيـة الزرقـاء، تعـوَّدت انـشراح عـلى مـذاق أكلاتهـم الغريبـة مثـل المهلبيـة بالفـراخ، ومَحـشي ورق العنـب بـدون أرز، باللحمـة فقط والبارشـيج، كـما تعـودت أن تصحبهـا أغافنـي العصفـورة معهـا إلى كل مـكان، أحيانًـا إلى روضـة الأطفـال في مَدرسـة كالـو سـدين فارجـان حيـث كانـت تعمـل مُدرّسـة، أو إلى السـينما، أو إلى الأمريكـين عندمـا تقابِـل صديقَهـا.

قـرروا الهِجـرةَ إلى أمريـكا، سـمِعتْ منهـم أن عبـد النـاصر لا يريـد أجانـبَ في مـصر، هاجَـروا جميعًـا، آرام أنـوش وأغافنـي وببريـان، أمّـا

هاجوب فقد مات حزنًا لم يتحمل فكرةَ الرحيل.

لم يعُد هناك سببٌ للذهاب إلى شارع شامبليون، ولم تعُد هناك مهلبية بالفراخ، ولم يعُد هناك الأيس كِريم السويسري، ولم تعُد تستمتع بشوارع القاهرة النظيفة الأكثر اتساعًا ورُقيًا وتَشجيرًا.

انتقلت انشراح مِن أيدي أغافني إلى أيدي نرجس، فأصبحت تصحبها معها في كل مكان، ليالي الحُسين والسيدة، شيء لله يا ست يا طاهرة، نقيد الشمع ونبل الفول ونوفي النذْر لأهل البيت، يحضرانِ معًا سرادق فاطمة سرحان السنوي في مولد الحسين التي كانت نرجس تنتظره مِن العام للعام، وتبادِر بحجز مكانها قبل المولد بأيام، تنقل فيها إقامتها هي وانشراح لمحيط المسجد في مكان منتقى بالقربِ مِن السرادق.

تجلس انشراح على رِجلَي جَدّتها التي تضعها بينهما قابضةً عليها خوفًا مِن أن تضيع منها الطفلة في الزحام، وعندما يبدأ المديح يغنيان معًا.

«أول كلامي بالصلاة على الحبيب كنز الأرامل واليتيم والغريب، ويا رب يجعل لينا في زيارته نصيب، ونشاهد اللي كملوا ربنا ونشاهد الحجرة وأرض البقيع، ونطوف بالعمرة وكل الجميع، ونشاهد اللي كلموا الجمل مستطيع قالوا الشفاعة يا حبيب ربنا».

هل كانت مساجد آل البيت عِوضًا لنرجس عن بيت المناديلي؟

هذا البيت الذي عُرِف في المغربلين بالقَصر، لفخامة معماره

وتميـز مشربياتـه الأرابيسـك المصنوعـة مِـن الـزان، نُسـجت عنـه وعـن أصحابـه القصـص، قيـل إن سـبب ثرائهـم هـو صناديـق الذهـب والآثـار التـي وجدهـا المناديـلي الكبـير في هـذا المنـزل، الـذي اسـتولى عليـه بعـد مقتـل صاحبـه أحـدُ قـادةِ الجيـش المملـوكي، وقيـل إن الدولـةَ لا تسـتطيع وضـع يدِهـا عـلى المنـزل ولا ضمّـه، للآثـار بسـبب مـا فيـه مـن أسرار خفيـة وأرواحٍ تدافِـع عـن أصحـاب المنـزل بشراسـة، وتُعـرِّض لـلأذى كل مَـن يحـاول أن يسـتبيح خصوصيتهـم.

الخـروجُ مِـن عالَـم المناديـلي والانتقـال إلى تحـت الربـع هـو قـرار الجَـدّة. كيـف تعيـش في منـزلٍ واحـد مـع رجُـلٍ اشـتهاها وأرادهـا زوجـةً لـه؟

خرجـت تحمِـل عـلى كتفيهـا كومـةً مِـن الأطفـال، وقليـلا مـن الأثـاث الفاخـر وبعـضَ السـجاجيد العجَمـي التـي باعتهـا واحـدةً تِلـوَ الأخـرى، وكثـيراً مِـن الصـور القديمـة والتـي علقتهـا عـلى جـدارن كل البيـوت التــي سـكنتها في الخوشـيبة وحـارة الكاشـف وتحـت الربـع ودرب شـغلان.

كانـت نرجـس تجيـد الخياطـةَ اليدويـة، اعتـادت أن تاخـذ أولادهـا ثـم أحفادهـا مِـن بعدهـم إلى مسـاجد آل البيـت، الصغـار يلعبـون في محيـط المسـجد بينـما هــي تقـوم بخياطـة الملابـس وسرْد حكاياتهـا الدائمــة عــن أصولهـا الراقيـة، عــن زواجهـا وعــن حياتهـا في أسرة المناديـلي الشـهيرة، عـن منزلهـا وعـن الخـدم والحشَـم، عـن الخـروج مِـن بيـت المناديـلي، كانـت تحـكي دائمًـا عنهـم، تعيـد وتكـرر قصصهـا،

قِصتها عندما تركت البيتَ وكيف كانت تبيع السجاجيدَ العجَمي لتستطيع أن تنفِق على أولادها. أمّا القِصة الثانية وهي قِصة العهد والوفاء فتفخر دائمًا بأنها صانت العهدَ ولم تتزوج بعد وفاة زوجها، الذي عقدَ عليها وهي في التاسعة مِن عمرها، وكيف كانت تنام في غرفة والدته فترةً غير قليلة حتى انتقلت إلى فِراش الزوجية عندما بلغت سِن النضج، أمّا هو فقدْ كان يكبرها بثلاثين عامًا.

لم تعرف غيرَه رجُلا ولا زوجًا ولا أبًا، كانت سنواتهما معًا غيرَ قليلةٍ، قال لها عاهِديني.. ولم يكمِل جملتَه ثم مات، لم يكن هناك مكانٌ لها في منزل أُسرة المناديلي عندما رفضت الزواجَ مِن أخيه، عاندته وقالت له بتحدٍ لقد عاهدتُه قبل موته وسأنفذ له طلبَه.

تسأل انشراح:

- وما كان طلبُه؟

- هو لم يكمِل كلامَه، ولكن مِن المؤكد أنه كان لا يريدني أن أتزوج ولا أن أكون لرجُلٍ آخر، حتى لو كان أخوه.. نَعَم عاهدتُه ورفضت أن أتزوج أخاه المحامِي وكان ردي على عرضِه بالزواج، لو هاموت من الجوع مش هاخون العهد.

كانت نرجس تُبدي دائمًا حسرتَها مِن الزمن، الذي جعلها تنتقل مِن حياة العِز في بيت المناديلي إلى شقةٍ ضيقة فوق سطح بيت في درب شغلان، تصبِّر نفسَها قائلة:

«مدد.. يا ستنا فاطمة يا نبوية

شي لله يا حفيدة أطهر خلق الله

حطينا البال والحال...

في حماكي مجاورين

نبل الريق.. من بَركة أهل البيت

أهو مطرح.. مش مجرح

ضيق وخنيق

أهو مطرح وسلام

لا نور ولا نسمة طرية

إنما حامدينه وشاكرين فضله

وأهو شاء الرحمن

دَفينا حيطانه

وداوينا رطوبة الروح»

لم تكن نجوى البديل لانشراح عن بسبوسة أختها، ولم تعوضها عن بسبوسة، جمَّعهما سكَّن واحد وطريق واحد إلى المَدرسة والعودة، كانت أُم نجوى على قدرٍ بسيط مِن التعليم، تزوجت مِن تاجِر ميسور الحال ولم تنجِب إلا نجوى، لذا كانت نجوى أولويّتها الوحيدة، أقنعت أُم نجوى حياة بأن تدخِل انشراح المَدرسة حتى تجد وَنيسًا لنجوى في الذهاب إلى المَدرسة والعودة منها، لم تكن حياة تهتم بالتعليم، فلم يتعلم أحد مِن أبنائها ، تزوجت الابنةُ الكبرى، أمَّا الصبيان فكان الكبير منهم يعمل في ورشة منجّد، والصغار يلعبون في الحارة، ولم تكن حياة لتوافق

على تعليم انشراح إلا بعد أن وعدتها أم نجوى أنها ستتكفل بكل مصاريف المَدرسة ومستلزماتها، إضافة إلى سكوتها عن الإيجار.

انشراح كانت تبدو كأنها لا تنتمي لهذا العالَم، طفلة هادئة شديدة الصمت شديدة الرقة، كان مِن الصعب التكهن بأنها ابنة تاجِر مخدرات وبلطجي معروف في حي المغربلين، وأن أمها مجرد مُرجية في أحد المستشفيات الحكومية.

التليفزيون متعة جديدة، تحسنت أحوال سيد قليلا ولكنه لم يبخل على أسرته، فأصبحت مِن أوائل الأُسَر التي امتلكت تليفزيونًا في درب شغلان، أخيرًا هناك شيء آخر لانشراح غير الجلوس بجوار جَدّتها تسمع حكايتها عن بيت المناديلي والسجاجيد العجَمي، وتحضير القهوة المفضّلة لنرجس ولكل ضيوفها والتي مِن خلالها ترسم لهم خططَ حياتهم، وتجيب عن كل أسئلتهم وتطمئنهم «أن العمر طويل والرزق كثير» .

لا تستطيع انشراح أن تنكِر أنها كانت تستمتع كثيرًا بجَدّتها وهي تقرأ الفنجان، ولكنها كانت دائمًا تتساءل كيف تكوّن هذه الشخابيط مصيرَ البشر؟ وكيف تَعرف جَدتها مِن هذه الخطوط المتشابكة أن العانِس ستتزوج أو أن هناك رزقًا قادمًا أو أن هناك عدوًا ما؟

كانت تأخذ الفنجان إلى المطبخ لتغسله، ولكنها تعودت أن تنظر فيه جيدًا حتى ترى مصائر الجيران والأصدقاء والعالَم كله، في هذا الفنجان الضيق وفي هذه الشخابيط التي تمحوها قطراتُ ماء

مِـن الحنَفيـة ويكـون مصيرهـا المجـاري!

لأول مـرةٍ تِعـرف انـشراح الخـوفَ، تخلـت أم نجـوى عـن وعدهـا بتحمـل مصاريـف المَدرسـة، فقـدْ كـبِرت نجـوى ولم تعُـد أمهـا تخـاف عليهـا مـن الذهـاب إلى المَدرسـة بمفردهـا، لم تكـن حيـاة تهتـم بفكـرة التعليـم، كانـت مشـغولة بهمومهـا وقـد خبـا الحُـب وطـال بعـاد عويضـة، حتـى زيارتـه الشـهرية أصبحـت عِبئًـا ماديًـا عليهـا، كـما لم تعُـد قـادرةً عـلى أن تخـدم كل هـؤلاء، بمـن فيهـم أمهـا نرجـس التـي بـدأ الكِـبَر يُقعِدهـا.

انـشراح في الصـف السـادس الابتـدائي... أبلـة مفيـدة تقـول لهـا «انتـي شـاطرة وذكيـة يـا انـشراح انتـي هتبقـي وزيـرة».

انـشراح متفوقـة، يصادقهـا جميـع التلاميـذ ويتقربـون لهـا لتفوقهـا، حتـى في الأيـام -وهـي كثـيرة - التـي لا تعطيهـا فيهـا أُمهـا مصروفًـا، كانـت تجـد دائمًـا مِـن التلاميـذ مَـن يعزمهـا عـلى طاجـن مكرونـة أو طبـق كُـشَري.

«انـشراح هتقعـد مـن المدرسـة تخـدم اخواتهـا وتشـيل البيـت، أنـا ماعدتـش قـادره لا عـلى مصاريـف المدرسـة ولا خدمـة الصبيـان».

لأول مرةٍ تبكي انشراح بحرقة، ولأول مرةٍ تطلب مِن أُمها شيئًا

«أنا عايزة اروح المدرسة، عايزة أكمل تعليمي»

نظرت إليها حياة باستنكار وزهَق قائلة:

- يعنـي هتطلعـي إيـه يعنـي؟ محاميـة علشـان تدافعـي عـن ابـوكي تاجـر المخـدرات؟ ولا دكتـورة علشـان تتمريـسي عليـا في المستشـفى؟

- لا... هابقي وزيرة.. أبله مفيدة بتقول كده

لم تذهب انشراح إلى المَدرسة يومًا بعد يوم. أرسلت المَدرسة خطابًا، وطلبت أبلة مفيدة مقابلة ولِي الأمر. سيد أخوها الأكبر الذي تحسَّنت أحواله المادية قليلا يقرر أنه سيدفع مصاريف المَدرسة قائلا ضاحِكًا:

- الناظرة بتقول إنك شاطرة أوى وإنك هتكوني وزيرة.

سيد عويضة، مِينا هو سيد أكيد، هو سيد.. طوله، قامته، عضلاته المفتولة، تفاحة آدم الواضحة التي كانت تصور لانشراح الطفلةِ، أن كل مَن يملكها هو مكتمل الرجولة.

عيناه لامعتانِ تنُمّانِ عن ذكاء حاد، حاجِباه المعقودان، ابتسامة لا تفارق شفتيه، ولمعة متألقة متوهجة طوال الوقت جعلتها تتأكد عندما درست في التاريخ أن هناك رجُلا منذ آلاف السنين كان عنده من القدرة والذكاء أن يوحِّد مِصرِ أن هذا الرجُل لا بُد يشبِه سيد.

كان فرق العمر بين انشراح وسيد كبيرًا نِسبيًا، هو أكبر أولاد حياة، وهي أصغرهم، لكنه كان رجُلَ البيت حتى وهو طفل، هل كانت هذه هالةً صنعتها له حياة؟ أَم مَقدرة مِن هذا السيد الصغير وموهبة أعطاها له الخالق من الذكاء والحضور نجحَ في توظيفهما؟

كل هذا لا يهم، نشأت علاقة غريبة بين سيد وانشراح، كانت تتلعثم عندما تكلمه وتسعد إذا خَصها بابتسامة حتى لو كانت عابرة أو غير مقصودة، فأصبحت عودة سيد ليتناول طعام الغذاء

ظُهرًا أو ليلا بعد أن ينتهي مِن عمله بالنسبة لانشراح كلقاءٍ عاطفي تنتظره بشغف، وبالرغم من أن حياة قد خَصصت غرفة لسيد غير مسموح لأي مِن أبنائها الدخول فيها، إلا أن انشراح كانت الوحيدةَ التي سمح لها بالدخول في هذه الغرفة، كانت متأكدة أن السبب الذي أعلنه سيد وهو أن انشراح مسموح لها بالدخول لأنها مَن ستقوم بترتيب الغرفة هو مجرد حُجة أمام نفسه والآخرين، وكان أحيانًا يسمح لها بالنوم على سريره، وأحيانًا أخرى إلى جواره وهي الطفلة التي تتدحرج بين الأقدام لا ينتبِه أحد لوجودها، جلست أم خرجت أم انزوت لا يشعر بها أحد، بينما هي تعيش حياتهم وتسمع حوارتِهم وتفكر في مشكلاتهم وربما تجد لها حلولا.

ولكن لن يسمعها أحد، لن تسمعها غير السماء. سافَر الجميع بيسة ثم بيبريان وآرام أنوش وأغافني، وأصبح القمر والنجوم أصدقاءَ انشراح، نَعَم قررت أن هؤلاء سيكونون أصدقاءها الدائمين ولن يتركوها أبدًا ولن يرحلوا مثلما رحل الجميع.

كانت تطيل النظر لهم والتحديق فيهم، خاصةً عندما يكون القمر بدرًا، تصرخ فيها أمها «كفاية بحلقة في القمر هتتجنني»، أمّا أختها الكبيرة فكانت تواجهها بسيلٍ مِن الأسئلة «إنتي بتحبي؟ قوليلي هو مين؟ قابلتيه؟ جابلك هدايا؟ جابلك إيه؟ ذوقه حلو؟ بس على فكره يا انشراح انتي لسه صغيره على الحب، انتبهي لدروسك أحسن لو سيد أخوكي عرف حاجة هيقعدك من المدرسة وانتي ما صدقتي». أمّا هي فكانت تتذكر كلام جَدتها أن القمر

أحسن صديق بإمكانك أن تحكي له وتطلبي منه أي شيء سيستجيب لكِ، وإذا افتقدتِ شخصًا ما أرسلي رسالتكِ مع القمر له وستصله الرسالة. تذكرتْ جَدّتَها ذاتَ مرةٍ وهي تذبح أرنبًا وتضع جعرانًا في دمِه، ثم أخذت هذا الجعران الغارق في دماء الأرنب، ووضعته في طبق على السور تحت ضوء القمر قائلة:

«خلي بالك يا انشراح من الطبق ده اوعي حد يقلبه، الجعران لازم يفضل تحت نور القمر لما القمر يكون بدر تلات ليالي، وبعدها اطلبي منه أي حاجة هينفذها ليكي».

اعتادت أن ترى سور السطح مليئًا بالأطباق المتراصة في منتصف الشهر العربي وكل طبق بطلب والقمر يلبّي!

السماء كانت أيضًا المنقِذ الوحيد لها مِن هذا العالَم الذي يذكُّرها بأبيها، دائمًا الاختيارات محدودة ما بين النظر إلى أعلى حيث القمر والنجوم، وإلى أسفل حيث تعيش أُم زغلول الباشا.

لكن الفضول أحيانًا يجذب نظرها إلى أسفل إلى الدور الأول إلى عالم أُم زغلول الباشا هذا العالَم المَليء بالبوظة. لم تنسَ تلك الليلة التي أتت سيارات الشرطة في حملةٍ على المنطقه بينما أُمها تصيح قائلة:

- يخرب بيت أم زغلول، كل يوم والتاني جايبه لنا الحكومة هنا، خلصنا من قروانات البوظة المضروبة بالجير والعربجية اللي نُصهم اتعمى بسببها، غيرت على تجارة الحشيش.

انشراح لا تنسَى أبدًا منظر العربجية العميان الذين يأتون

على عكازات ليسكروا حتى الهذيان، مِنهم مَن ينام على الأرض، ومِنهم مَن يرقص بشكلٍ هيستيري، ويقومون بأفعال غريبة أحيانًا مضحكة جدًا، وأحيانًا مُقززة جدًا، حتى إن أحدهم ذات ليلةٍ أراد أن يتبول فأعطى وجهَه للمارين في الشارع بدلا مِن الحائط.

صوت العساكر كان يتزايد ويقترب، تصرخ حياة قائلة: «احنا مالناش دعوة خلي الحكومة تريحنا منهم ومن قرفهم خلي الحتة تنضف» تسمع حياة صوت شيء يرتطم في المنوَر، تَسكت قليلا ثم تقول لانشراح «انتي جسمك صغير يا بِت انزلي المنور شوفي إيه اللي اترمى وهاتيه، بس اوعي حد يشوفك».

أدت الصغيرة المهمةَ بنجاح، وأعطت لأُمها لفَّتيْن!

عاشت انشراح أيامَ رعبٍ وهي تسمع أُم زغلول الباشا تتوعد وتهدد «يا ولاد الكلب مين اللي أخد اللي كان في المنور»، أو تسمع أنها ضربت فلانة وأولادها لأنها شكَّت أنهم هُم مَن أخذوا اللفتيْن مِن المنور، ظلت انشراح لمدة أسابيعَ تراقِب أُم زغلول الباشا وهي تبحث بشراسةٍ عن طربتي الحشيش، تَخلل هذه الفترةَ علقات ساخنة لكل مَن شكَّت أنه أخذهما، هدأت أُم زغلول الباشا ولم يعُد أحد يسمع إلا صراخها الليلي المعتاد قبل كل معاشرةٍ، عندما يضربها زوجها بالكرباج... أو خناقتها اليومية عندما يغالطها أحد في الحساب، أمّا أُمها فباعت الحشيش وأعطت لانشراح مكافاة صغيرة لصمتِها...

****

زادَ عـدد زوّار جـدّتي، فلـم يكـن هنـاك بيـت في الحـارة إلا ومِنـه شـاب عـلى الجبهـة، إلا منزلنـا، والـكُل يريـد أن يعـرف هـل سـيعود مَـن لـه أم سـيموت في الحـرب؟ كيـف تسـتطيع أن تبلّـغ أحـدًا أن ابنَـه أو أخـاه سـيموت؟ كيـف تقـول لعـروسٍ إنهـا لـن ترتـدي فسـتان الفـرح؟ أو لزوجـةٍ إن سريرهـا سـيكون خاليًا؟ كَـم كانـت نرجـس ذكية! وإجابتهـا الوحيـدة أن هنـاك زغـرودة في الفنجـان. وهـل يمكـن لأي عـروسٍ أن تتخيـل أن هـذه الزغاريـد ليسـت زغاريـد سـلامة العـودة؟ ولكنهـا زغاريـد لحبيبهـا الشـهيد!

كان صـوت صفـارات الإنـذار يرعِـب القاهـرة، ممنـوع إضـاءة أي أنـوار عـلى الشـارع بعـد الثامنـة مسـاءً، أمـام كل منـزل كانـت هنـاك سـواتر مِـن الطـوب كـما تـم دهـن الزجـاج باللـون الأزرق الغامق، كنـتُ صغيرة ولكنـي تسـاءلت لمـاذا لا يتـم عـرض تلـك الطائـرات التـي نُسـقِطها عـلى شاشـة التلفزيـون؟ لمـاذا يعلنـون فقـط بالراديـو؟ لم يُجبنـي أحـد، الصراخ والعويـل يمـلآن شـوارع القاهـرة... عرفـتُ الإجابـة. «انهزمنـا!»

لم يعُـد ابـن عمتـي، ولكـن زوجتـه العـروس أنجبـت ولـدًا يشـبهه طبـق الأصـل وأسـمته الاسـمَ نفسـه، عـاد كثـيرون ولم يعُـد كثـيرون

لم يتوقف الصراخ، أعلن عبد الناصر التنحي.

لم يتوقـف البـكاء ولكـن هـذه المـرة كان في بيتنـا، ماتـت نرجـس، ماتت

جـدتي التـي لم أعـرف لي أمًّـا سِـواها، كانـت ليلـة قاسـية، نرجـس عـلى فراشـها لا تتكلـم ولا تـرد عـلى أحـد، وصـوت صفـارات الإنـذار يتزايـد كنـتُ خائفـة جـدًا، أطـرافي متجمـدة، شـفتايَ لونهـما أزرق، جسـدي كلـه يرتعـش، شـعرتُ أنـني لا أسـتطيع التنفـس وزادت ضربـات قلبـي لدرجـة تصـورتُ معهـا أن جـدران المنـزل تهتـز معهـا، غفـوتُ مِـن كـثرة البـكاء، جـاءني صوتـه مطمئنًـا دافئًـا جَدتـك سـوف تنتقـل الآن إلى العالَم الحقيقـي، عالَـم أكـثر تحـررًا وسـعادة، سـوف تتحـرر مِـن أهـم نواقـص البـشر الخـوف يجـب أن تكـوني سـعيدة مِـن أجلهـا، لا تخـافي «يتملـك النـاسَ الخـوفُ عندمـا يشـعرون بالضعـف والاحتيـاج، أنـتِ قويـة، تأكـدي لـن يحـدث لـكِ أي شيء سيئ، ومهـما حدثـت لـكِ أشـياء قاسـية سـتتغلبين عليهـا وتحوّلينهـا لصالحـك، أنـا أُحِبـك يـا انـشراح لأنـك مِثـلي تمتلكـين فيريـل، ولـذا سـتكونين أهـلا لسـيادة جسـدكِ والنـاس والعـالم جمعًـا، فيريـل تذكّـري هـذه الكلمـة جيدًا، ردديهـا دائمًـا، إنهـا مصـدر قوتـك في الحيـاة» سـكتَ الصـوت ورأيـتُ كأنـني وجـدّتي يربـط بيننـا خيـط فـضي، كأنهـا تطـير حـولي تُقبّلنـي وتحضُننـي مبتسِـمة وقائلـة: أنـا معـكِ دائمًـا. صدَّقتُهـا ولكـن في الصبـاح كانَ فراشـها خاليًـا!

****

انضـمَّ إبراهيـم إلى معسـكرات المقاوَمـة الشـعبية مـع مجموعـة مِـن شـباب الحَـي، كانـت تأتي أتوبيسـات كبـيرة في السادسـة صباحًـا وتعود في الثامنـة مسـاءً، تأخذهـم لتلقّـي تدريبات عسـكرية لمدة أسـبوع بالكلية

الحربية أو مَدرسة المُشَاة، يتدربون فيها على استعمال السلاح، وكان التدريب يتم على استعمال البندقية الآلي أو الرشاش الخفيف أو مدفع الآر بي جي. ظَل إبراهيم يذهب إلى هذه المعسكرات عده أشهر بعد النكسة كان يصيبني هلعٌ عندما أتذكر منظر جندي عائد مِن الحرب حافيًا متورِّمَ القدميْن ممزقَ الثياب مهزومًا في المعركة كما حدث في النكسة، وأتخيل أن إبراهيم ربما يتطوع علي الجبهة، وأن هذا الشخص مِن الممكن أن يكون إبراهيم.

إبراهيم هو الخيط الوحيد المتبقي مِن تلك الكرة الصوف التي كرّت وتلعبكت بين مخالب الزمن.

إبراهيم هو عالَمي الذي أُحِبه فمعه عرفت لوركا وجلال الدين الرومي وابن عربي وسارتر والحكيم، تركت عالم ليلى وأم زغلول الباشا، معه أدركت أن بإمكاننا أن نجعل دنيانا أرحب من ضيق حواري درب شغلان، وبالرغم مِن كل تخاريف ليلى عن عفاريت جدّتي وكل جهل جدتي التي أُحِبها، بالرغم مِن علمي أنها معجونة بالخرافات، كما أعلم أيضًا أنه ليس ذنْبها، ولكني أشتاق إلى سعادة حقيقية، سعادة لا تخرج مِن خطوط الفناجين الملتوية، سعادة أعيشها وأستمتع بها، في الواقع قهرتني ليلى وخذلني سيد وخرجت من المَدرسة لم أكمل تعليمي، كانت سنة النكسة بحق، حاولتُ كثيرًا أن أتجاهل هذا الإحساس بالانكسار الذي ملأ روحي والوطن.

تمسكتُ بإبراهيم الذي أصبح أملي وعالمي، كان يتعجب مني عندما نحدد ميعاد اللقاء، وأصر على أن يكون لقاؤنا في الجامعة بدلا مِن

كازينـو عـلى النيـل كـما تحـب كل الفتيـات، في البدايـة كان يتصـور أننـي أغـار مِـن زميلاتـه في الجامعــة، وأن رغبتي المُلحـة وإصراري عـلى أن أذهـب معـه هنـاك طيلـة الأربـع سـنوات التـي قضاهـا حتـى تَخـرَّجَ في الجامعـة، كانـت فقـط لـكي أُعلِـن لزميلاتـه أو مَـن تُسَـوِّل لهـا نفسُـها، أنـه مرتبـط، كان يوافـق حتـى يؤكـد لي أنـه لا توجـد فتـاة أخـرى في حياتـه وكـما كان يقـول دائمـا أُحِبـكِ وأفخـر بـكِ وأريـد أن يـراكِ العالَـم كلـه معـي، لم يفهـم أني أُحِـب الجامعـة وشـكْل المدرجـات ومَنظـر مجموعـات الطـلاب الذيـن تتعـالى أصواتهـم مِـن الضحـك وهُـم يحملـون كُتُبَهـم الجامعيـة، لم يـدرك أننـي كـما أحبـه أحـب حُلمـي الـذي حرمتنـي منـه ليـلى زوجـة سـيد، لم يـدرك أننـي أحِـب أن أرى بيسـة وهـي في كامـل أناقتها وصفـوف المعجبين وراءهـا، بالرغـم مـن أنهـا عـادت مِـن السـفر ولم تعـد إلى سـابق عهدهـا ولم تعُـد ترسِـل السـيارة لتأخـذني، أربـع سـنوات قضيتُهـا معه هنـاك كانـت آخـر أيامـي السـعيدة، قبـل أن يسـافر إلي بعثـه في فرنسـا ويأخـذ معـه كل مـا أحببـت، ولم يبـقَ لي إلا عفاريـت ليـلى.

في انتظـار عـودة إبراهيـم، في انتظـار الحلـم، لم يعُـد لهـا أصدقـاء إلا السـت فاطمـة النبويـة والكتـب التـي تركهـا لهـا إبراهيـم، أمهـا لم تكـن أبـدًا صديقتهـا، وماتـت نرجـس التـي كانـت تلازمهـا دائمـا، حتـى أطلقـوا عليهـا نرجـس الصغـيرة.

مَلّـت انـشراح مِـن سرقـة السـجائر، أسـوأ عـادات نرجـس التـي ورثتها أيضـا انـشراح، لـن يعطيهـا أحـد ثمـن علبـة سـجائر في اليـوم، كانـت عـلى اسـتعداد أن تضحـي بنصيبهـا في العَفشـة مقابـل سـيجارة، ولكـن

حتى هذا كان مستحيلا، فتاة تدخن في سِنها! إذا عَرَف إخوتها ماذا ستكون النتيجة؟

لم تعُد صغيرة، تعرف نقطةَ ضعفِ الجميع، الكل يريد مالاً، فلا يوجد حوار بينهم إلا عن المال!

يتجمعون يوم الخميس، يجلس الجميع على طبليةٍ واحدة، الأُم وسيد وزوجته ليلى وطفلاهما طارق وهدى وأخواها سعيد ومرزوق.

تقف انشراح بجوار الطبلية لتناوِل الجميع العيش والماء والكِمَالة.

- أُمي، أنا عايزة اشتغل

تنفعل ليلى:

-يعنى إيه تشتغلي؟ ومين اللي هيعمل شغل البيت؟

ترمي الخبز مِن يدها صارخة:

- لو انشراح اشتغلت أنا مش قاعدة في البيت، أنا مش هاخدم نُص دسته لوحدي!

- اهدي يا ليلى، مفيش حاجة مِن دي هتحصل، ومين اللي هيسمع كلامها؟ ده حتى الناس تاكل وِشّنا.

نظرتْ انشراح إلى سيد، تذكرت كيف تخلّى عن وعده لها بأن تكمل تعليمها، بعدما قالت له ذات يوم زوجته ليلى بالحدة نفسها:

«أنا مش متجوزاك علشان اخدم نُص دسته، الأبلة تقعد مِن

المدرسة تساعدني وإلا هاروح لأمي».

ينظر سيد لانشراح مؤكدًا لكلام ليلى:

-شغل إيه؟ وكلام فارغ إيه؟ ناقصك إيه؟

في هذا المنزل الصغير ماتت أحلام كبيرة

حتى زيارة الست فاطمة النبوية ملاذها الوحيد لم يعُد بإمكان انشراح الذهاب إليها بحُرية بعد أن أصدرت ليلى أوامراها بعدم خروج انشراح، هَربَ الصبيَّانِ أحدهما للعراق والآخر إلى لبنان، بينما ظلت انشراح حبيسة ليلى بانهياراتها وإغماءاتها وحالات الجنون التي تنتابها، صارخةً في الجميع أنها تراهم رؤى العين عفاريت نرجس، وهُم يقفون أمامها بأشكالهم المرعِبة يسخَرون منها ويهددونها إذا لم تترك هذا المنزل فإنها ستحترق، متهمةً جَدتها المتوفاة بأنها لا تحبها، وأنها سبب شقائها في الحياة، حتى استجاب سيد ونفَّذ لها ما أرادت.

لم تعرف انشراح لماذا حزنت أُمها بشدة عندما انتقل سيد وزوجته إلى بيتهم الجديد بالمعادي، إنها متأكدة أن أُمها لا تحب ليلى، ولكن كل هذا لا يهم، المهم أنها الآن حُرة تستطيع أن تذهب لزيارة الست فاطمة النبوية بدلا مِن أن تنتظر أن تأتيها في المنام، الآن تستطيع أن تمارس الصنعةَ التي اكتسبتها، جريًا وراء ثمن علبه سجائر بكثير من الحُرية، لن تضطر أن تكذب وتقول إن خالتي أم أحمد مريضة وسأذهب لزيارتها، حتى تجد فرصة لتُحَفِّف لها حاجبيْهَا كما كانت تعمل هذا سابقًا في السر وبدون عِلم سيد وليلى.

كانت انشراح خدومة، وغالبًا ما كانت تقوم بهذا مجانًا، وخاصة مع جاراتها المُسِنَات أو مَن تَعلم أن ظروفهن المادية قاسية، مثل كاترين، هذه الصديقة اليونانية التي تعرفت عليها أمها مِن خلال أسرة بريان، كانت كاترين تعمل خيّاطة بعد أن تركها زوجها وترك لها إيريني رضيعة في عُمر الأربعة أشهر، إيريني تكبر انشراح في العمر قليلا ولكنها كانت دلوعة تذكّرها بأختها بيسة، تحكي لها عن الإسكندر وعن كليوباترا وفينوس، وعن فورتونا ربة الحياة المتحكمة بالمصائر والأقدار، والقادرة على إيقاف عجَلة القَدر وتحويل البهجة إلى حزن وعلى العكس المراره إلى أمل.

وكما شاركت انشراح إيريني مشاعر الحب على صوت ألفيس برسلي والبيتلز، رقصت معها رقصة زوربا على صوت داليدا، كانت تستمتع بوجودها مع كاترين، تحكي لها كل شيء بدون خوف، حكت لها عن إبراهيم وعن أول إحساس بالحُب، عن طعم شفتيه، عن وجهه المفعم بإحساس لم تفهمه وهو يقبّلها ويتحسس جسدَها، ولكنه أعطاها الإحساس بالحياة، أجابتها أنه إحساس النشوة. سألتها عن الجنس.. أجابتها إنه الطبيعة. سألتها عن العيب... أجابتها العيب أن نعطي جسدنا لمن لا نرغب تحت أي مسمى، حتى لو كان الزواج. سألتها عن غِشاء البَكّاره... ضحكت كاترين «**عارفة يا انشراح زمان جدا قبل الفراعنة والإسكندر، قبل الحضارات كان الرجل يرفض أن يفض بكارة حبيبته بنفسه حتى لا يكون هو الرجل الذي أذاها وآلمها، كانت هذه وظيفة لرجل معين، وظيفة يقوم بها، أما**

الحبيب فيبدأ علاقته معها بالحب دون أي أذى».

بدأت السيدات والفتيات يترددن على بيت انشراح فتاة الحادية والعشرين، التي تملك من العقل والرزانة والقبول ما جعل الجميع يثق بها، تعلمت انشراح كيف تكسب بعض المال الذي يكفي لشراء علبتي سجائر، فضلا عن مساعدة أمها في المصاريف، وذهابها إلى سور الأزبكية كما اعتادت مع إبراهيم، تشتري مجلة طبيبك السورية التي كانت تربطها بسعيد، الذي هَج إلى لبنان مِن سطوة سيد، أو بالأحرى ليلى، تشتري أيضا كتب موبسان وفولتير وبريفير، تستعد لعالمها الجديد مع إبراهيم عندما يعود ويأخذها إلى باريس، ولكنها لم تستطع أن تتخيل جسدها في تلك البَدلة الرجالي التي حاكتها لها كاترين، وفقًا لآخر صيحات الموضة في باريس، انشراح قصيرة القامة، بيضاء البشرة، تحملها ساقانِ مصبوبتان، يحلو لها ارتداء الميني جيب لتبرز جمالهما، جسدها يشبِه الكمثري أو كما كان يُطلِق عليها شباب الحارة القُلة، لم تتخيل نفسها في قَصة الشَّعر الرجالي ورابطة العُنق الفرنسية، وقفت أمام المِرآة مِرارًا وتكرارًا ترتدي تلك البَدلة وتتمرن على رابطة العُنق.

فرنسا.. الاسم السحري الذي سيحوّل حياتها...

عويضة مات، وحياة مشغولة بسيد ابنها الأكبر، أما هي فقلبها وعقلها وأحلامها هناك في مدينة العِلم والبغاء.

كيف تجعله ينسى عويضة؟

وضع القهوة في كوب
وضع اللبن في كوب القهوة
وضع السكر في القهوة باللبن
بالملعقة الصغيرة قلّب
شرب القهوة باللبن
ووضع الكوب
دون أن يكلمني
أشعل سيجارة
صنع دوائر بالدخان
وضع الرماد
في المطفأة
دون أن يكلمني
دون أن ينظر إليّ قام
وضع قبعته على رأسه
وضع معطفه للمطر
لأن الجو كان ممطِرًا
وذهب تحت المطر دون كلمة
دون أن ينظر إليّ
وأنا وضعت رأسي في يدي
وبكيت!
«هل كان بمقدورك يا جَدتي أن تقرأي فنجان قهوته؟ وهل يُقرَأ

فنجان القهوة الباريسي؟ هل سيكشِف لكِ عن نواياه؟».

كيف أجعله ينسى عويضة؟ كيف أجعله ينسى حياة؟

ماذا أفعل في هذه الكمثرى حتى أملك قوامًا فرنسيا؟ كرهتُ البَدلة الفرنسية التي لا تناسبني، أبدو فيها مضحِكةً، كيف أتخلص مِن هذه الكمثرى؟

«حقا لا تناسبني، لم أخلَق لها، ولم تُخلَق لي».

****

بالرغم من كُره انشراح الشديد لليلى، فإن زيارتها للمعادي عندما تعرفت على أسرة الدكتور مصطفي الرزيقي، أستاذ القانون الدولي في جامعة القاهرة، والذي حصل على الدكتوراه مِن فرنسا، وابنته ناهد جيران ليلى وسيد، أصبحت تمثل لها متعة، فطالما تخيلت هذه الفيلا التي يعيش فيها الدكتور العائد مِن فرنسا في هذا الحي الهادئ، الذي سكنه الأرستقراط المصريون والأجانب، نعم الفيلا بكل تفاصيلها وفخامة أثاثها فرنسي التصميم، الصالونات المكسوه بالحرير الأحمر طاولات الخشب المطعمة بالرخام الأبيض والموزّعة في الزوايا والوسط، الستائر المنسدله مِن الحرير الأبيض، التليفزيون ذو الحجم الكبير، وليس بعيدًا عن المدفأة التي احتلّت وسط الحائط بلونها الأبيض، توسّطت جدارها مِرآةٌ مزينة بقِطع مِن الأكسسوار المذهَب، الفيترين من الخشب البُني الذي ضم مجموعة من القِطع المتميزة، السيوف ذات اللونين الأحمر والبرونزي المعلقة على العامود الفاصل بين الصالونات، وقد شرحت

لها ناهد أن هذه السيوف فرنسية الصنع وأن لها قيمةً أثرية عمرها يزيد عن مئتَي عام، الثريات الكريستال والتي لا تشبِه إحداها الأخرى والمُدلاة مِن السقف المذهَب برسوم وزخرفات.

تخيلت أنها ستملك يوما ما مثل هذا المنزل، عندما يعود إبراهيم مِن فرنسا من المؤكد سيكون له شأن مثل الدكتور مصطفى الرزيقي، ستعيش هنا مثل سميرة هانم زوجته والتي ترجع أصولها إلى أثرياء الدلتا، ستنجِب بنتًا جميلة مثل ناهد، ستشاركها قراءة «المغامرون الخمسة».

تسمع لها بكل حب وبدون ضجر تلك المقدمة التي كانت تكتب في بداية كل قصة وتصر ناهد أن تعيد قراءتها كل مرة.

«مَن هُم المغامرون الخمسة؟ إنهم أصدقاؤك الذين يتدخلون لحل الألغاز والإيقاع باللصوص وإنقاذ المظلومين، عاطف وتختخ ونوسة ومُحِب ولوزة، تحكي لها عن المفتش سامي والشاويش علي».

تضفُر لها شَعرها، تستمتع بقصصها عن المدرسة السيورات والراهبات، تغني معها انشراح أغنية FRERE JACQUES فرير جاكو، التي حفَّظتها لها أغافني، تطلب انشراح من ناهد أن تعلمها بعض الكلمات والجمل باللغة الفرنسية لتستخدمها عندما تسافر إلى فرنسا مع إبراهيم.

فاجأت ناهد انشراح ذات يوم، بأن فاتن حمامة شاركت أصدقاءها في إحدى المغامرات، وطلبت منها أن تقص لها شَعرها

قَصة فاتن حمامة، ولكن انشراح رفضت بالطبع قائلة:

- انتي كده أحلى مِن ألف فاتن حمامة

أمَّا الكلب زنجر فقدْ كان صديق ناهد الأول، ولكن والدتها رفضت أن يدخل المنزل وأصرت أن مكانه الوحيد هو حديقة الفيلا لأنها تكره الكلاب.

تحكي ناهد أيضًا لانشراح عن نادي المعادي، الذي كان والدها أحد أعضاء مجلس إدارته، ما سهَّل عليها اصطحابها معها إلى هناك، حيث سمعت انشراح لأول مرة عن أشياء مثل الجولف والكروكيت والهوكي، ورأت لأول مرة مسابقات الفروسية، تأخذ رأيها في الصبية المعجبون بها كانت تستشيرها «هذا يريد أن يصادقني، وهذا يحبني، ولكن هذا يعجبني أكثر».

لم تَطُل إقامة ليلى وسيد في هذه المدينة الصغيرة الهادئة، كانت ليلى تشعر بغربةٍ وعدم تآلف في هذه المنطقة الجديدة، بالرغم من محاولاتها أن تقيم علاقاتِ جيرة وود، فعندما انتقلت إلى فيلتها الجديدة التي استأجرها سيد مِن أحد ورثة عائلة التمان اليهودية، قررت إرسال هدايا للجيران مِن باب كسب الود والتعارف، كانت الهدايا عِبارة عن خروف لكل فيلا مجاورة، قوبِلت الهدايا بردود أفعال متباينة ما بين رفضٍ أو قبول على مضضٍ، كانت أسرة الدكتور الرزيقي هي الوحيدة التي تجاوبت مع ليلى، فقد امتلكت سميرة هانم زوجته مِن الخبرة التي اكتسبتها من أصولها الريفية وعلاقاتها مع الفلاحين المستأجرين لأرضها، ما جعلها تجد طريقة تعاملها بها، أمّا ابنتها الوحيدة ناهد

ذات الأحد عَشر عامًا، فوجدت في انشراح مشاعر مشاركة سخية كثيرا ما ضنت عليها بها أمها، فقدْ كانت سميرة هانم مِن أسرةٍ شديدة محافِظة على التقاليد، ولم تكن لتقبَل بأي أحاديثً مِن هذا النوع، فأصبحت انشراح شريكة ناهد في طفولتها المتأخرة ومراهقتها.

لم يمُر أكثر من عاميْن تحملتهما ليلى في المَعادي، هذه المنطقة المهجورة الصامتة، وبدأت الشكوى والبكاء، وأن أشباح نرجس تطاردها في هذه الفيلا المهجورة. قررت أنها تريد أن تترك الفيلا ولكنها اضطرت أن تتحمل عاميْن آخرين على مضض، حتى ينتهي سيد مِن بناء العِمارة، بعد أن أجبرته أن يشتري أرضًا في منطقة دار السلام، حيث الونَس واللمَة.

بعد أربع سنوات مللٍ في المعادي، انتقلت ليلى إلى عمارتها في شارع أحمد زكي ، قامت بتأجير معظم شققها، رفضت رفضًا باتًا بيعَ أي شقة، تؤجرها فقط، نَعَم ستظل المَالِكة، المَالِكة لكل شيء.

****

مِن أين أتى بكُل هذا الجفاء؟

بدأت انشراح تكره عالَمها، طال غياب إبراهيم في فرنسا، سافر ولم يلتفت وراءه إلى ابنة التُمَرجية وتاجِر المخدرات، لم يعُد ولا حتى إجازات، لم يلتفت وراءه إلى انشراح التي طالما وقف بجوار منزلها سنواتٍ كثيرة ينتظرها وهي تَخرج مِن المدرسة، يسير بجوارها في الشارع، يُسمِعها كل كلمات الحب، سبقها إلى بيته لم تتلكأ في

خطواتها لم تتردد، تبعته... اعتبرت هذا عهدًا... نسي الحب نسي العهد نسي كل شيء.

لماذا ابتسمتْ لي نرجس في هذه الليلة؟

ليله سافر إبراهيم...

طمأنتني ابتسامة نرجس -جدّتي- تعرف كل شيء، ليس من داعٍ للقلق.

كانت صورة جدّتي المعلقة على الحائط دوما هي العلامة التي أسترشِد بها، رأيت وجهها الصارم يبتسِم ولكن... لقد ضللتني الجَدة، لم يعد إبراهيم

هل كانت ابتسامتها سخريةً مِني ومِن سذاجتي؟ هل كانت تعرف بخبرتها الكبيرة أنه سيذهب بلا عودة؟

ماذا ينقصني؟ بيضاء البَشرة، حمراء الخدود، خجولة، مؤدبة، مطيعة، هادئة، سِت بيت شاطرة وجميلة، أخدم عائلة بأكملها مِن عمر العشر سنوات.. ما المطلوب أكثر مِن هذا؟ لماذا ذهبَ إبراهيم؟ ولماذا لم يَعُد؟ لن أسألها مرة أخرى، لن أستشيرها، فقط سؤال لماذا ابتسمت لي؟

لن يجيب عن هذا السؤال إلا هي، الست فاطمة النبوية.

«مِن أجلِ فاطمةٍ قَدْ شُرِّفَ النَّسَبُ

لِكُلِّ مَن كانَ للزهراءِ يَنْتَسِبُ»

مَدد يا أُم الحنان واليتامى.. يا مجمِّعَة الأحباب

هناك بجوار المقام لم تسأل انشراح لماذا ابتسمت الجَدة؟ نسيت

هـذا السـؤال تمامًـا، بكـت بحرقـة، تمسـكت بأعمـدة المقـام، قبّلتهـا بنهـمٍ وسـألت لمـاذا لم أكمـل تعليمـي؟ ولمـاذا مـات أبي تاجِـر المخدرات دون أن يظهـر براءتـه ويبرئنـا مِـن كل هـذا العـار؟ لمـاذا تعاملنـي ليـلى بـكل هـذه القسـوة؟ ولمـاذا تركنـي إبراهيـم بـلا رجعـة؟

كانـت النبويـة ملاذهـا في سـنوات الانتظـار الطويلـه ولكنهـا لم تفلـح في أن تُهـدئ شـوقها، سـئمت انـشراح منظـر بكائهـا وسـئمت قِلـة الحيلـة في التعلـق بهـذه الأعمـدة وهـذا الرفـات ولا شيء يتغـير، لم تَبُـح بسرهـا لأحـد ولكنهـم لاحظـوا الهَـمّ المتراكـم.

أعلنـت ليـلى أن انـشراح تعـاني مـن سِـحر بوقـف الحـال، ويـأتي الشـيخ عبـد اللـه يقـرأ بحِـدة وعنـف آيـاتِ القـرآن في أذُنيهـا حتـى يخـرج خـادم السـحر، لكنـه لا يسـتجيب ولا يخـرج، لا محالـة لا بُـد مِـن ضربـة.. ترفـض انـشراح أن يمـد يديـه عليهـا.

تبـادِر ليـلى قائلـة «عنـك يـا شـيخ عبـد اللـه، انـشراح دي عنيـدة». تنظـر ليـلى لانـشراح بِغِـل قائلـة «اقصـد الـلي عليهـا عنيـد» تضربهـا ليلى بعنـفٍ وبقـوة، تحـاول انـشراح الهـروب منهـا، يكتِّفهـا الشـيخ عبـد اللـه وأمهـا بينـما تنهـال عليهـا ليـلى بالحـزام تـارة وبالشبشـب تـارة، حتـى تتـورم انـشراح وتقـع مغشـيًا عليهـا، ينظر الشـيخ عبد اللـه إلى الأُم قائلا:

- مـبروك الجـن خـرج، بَـس ممكـن يرجـع تـاني، لازم القـرآن يفضـل شـغال في البيـت ليـل نهـار.

لا شيء يتغـير، لم تتحسـن حالـة انـشراح، بـل سـاءت، ولم تعُـد ترغـب حتـى في أي شيء، انـزوت عـلى نفسـها وأصبحـت أكـثرَ انطـواءً، بـل

أصبحت تكره سماع صوت القرآن الذي كان يذكّرها دائمًا أنها عليلة وقليلة الحظ وأن إبراهيم لم يعُد، كما يذكّرها بليلى وكيف تملكت منها في تلك الليلة القاسية على نفسها، ما جعل حياة تقرر أن الشيخ عبد الله قد أخطأ التشخيص، وأن خادم السحر على غير الملة ولذا لم يُجدِ معه القرآن.

****

الرحلة تبدو طويلة، بين المقابر ليلى تمد بخطواتها تتبعها انشراح وأمها.

- شفتي يا ست انشراح انتي مبهدلاني معاكي أد إيه؟ آخرتها أمشي في الترب دي؟ أمري لله ما هو اللي عليكي ملوش مِلة ماجوسي ما يطلعوش غير شيخ بيشتغل بالنجاسة.

الغرفة معتِمة قميئة، كيف يعيش هذا الرجُل في كل هذا العفن؟ غرفة تملأها كُتبٌ قديمة متهالكة وأحجار وشموع وحِلل وطواسي، رائحة زيوت عجيبة تملأ المكان.

ينظر الرجُل إلى السيدات متفحصًا إياهن بنظرة شرِهة ملتهِمة، يضع يديه على انشراح، تُسارِع الأُم قائلة: انشراح لسه بنت، ودي مرات ابني، مايصحش.

شعرت انشراح أن أُمها في حالة شبق شديد عندما قالت لهما متلجلجة:

- اخرجي يا انشراح انتي وليلى

بينما الشيخ كانت عيناه مثبتتيْن على انشراح

ردّ بلهجةٍ آمِرة:

«لأ.. انشراح لازم تكون موجودة علشان اللي بنعمله يجوز»

تمددت الأم على الكنبة مغمِضةً عينيها مستسلِمة لهذه المتعة، بينما كانت إحدى يداه تتحسس جسد انشراح مستجديًا الإثارة، كتمت انشراح أنفاسها خشيةَ أن تشعر أمها بما يفعله هذا الرجُل، تذكرت لقاءها هي وإبراهيم، تذكرت كلام كاترين. كيف يكون ما يحدث الآن هو الطبيعة؟ كيف استحلهما هذا الرجُل؟ وبأي حق؟

لم تتمالك نفسها عندما أخرج عضوّه الذكري ووصل إلى حالة النشوة، أفرغت ما في معدتها وأصابها القَيء الشديد.

نظر الشيخ إلى أمها قائلا:

- مبروك، أهو الخادم خرج من معدتها ورجعت السحر اللي كانت شارباه، ما أصل أنا كنت بقرا الطلاسم وأنا بشتغل.

في طريق العودة كانت الأُم التي تجاوز عمرها منتصفَ الخمسينات في حالة من الحيوية والسعادة والنشوة، قالت:

- الحمد لله يا انشراح يا بنتي ربنا نجّاكي.

****

خلعت انشراح البَدلة الباريسية التي لم ترتدِها، وعادت إلى الدرب الأحمر الذي لم تغادره، هجرت سورَ الأزبكية وقراءة الكُتب وسماع الأغنيات الفرنسية التي عرَّفَتها بها إيريني وحفظتها عن

ظهـر قلـب دون أن تتعلـم الفرنسـية، لم تفلـح كل الوصفـات، ضاقـت بهـا الأمكنـة، أصبحـت الكوابيـس جـزءًا لا يتجـزأ مِـن لياليهـا، والأوهـام جـزءًا لا يتجـزأ مِـن حياتهـا، فقـدْ طـال غياب إبراهيـم ولم يعُـد، بعضهم قـال إنـه تـزوج باريسـية، وبعضهـم قـال إنـه انتقـل إلى أمريـكا، لا شيء واضحـا، لكـن المؤكـد أنـه تركهـا وحيـدة في هـذا الـدرب الأحمـر.

كاد الجميـع يتهمهـا بأنهـا مجذوبـة، فهـي شـديدة الصمـت لا تحـكي شـيئًا مطلقًـا، لا تعطـي إجابـاتٍ أو تفسـيرات، تَخـرج في الصبـاح الباكـر ولا تعـود إلا بعـد المغـرب، تجـوب الـدرب الأحمـر بحثًـا عنـه، تشـعر بقبضـة جَدّتهـا عـلى يديهـا حتـى لا تتـوه، وقتَهـا كانـت تتـألم بشـدة، لا تسـتجيب الجَـدة لتأوهاتهـا ولا تفـك قبضتهـا عـن يدهـا إلا داخـل المسـجد، تجلـس الجَـدة ومعهـا هـذه الشـنطة المليئـة بالقمـاش المقصوص الجاهـز للخياطة وخيـط الكسـتبان، وكانـت معهـا شـنطة أخـرى نـادرًا مـا تفتحهـا، يملأهـا وَدَع، ماتـت الجَـدة وسـافر إبراهيـم، أمّـا أمهـا فقدْ سـاءت حالتها النفسـية بعـد انشـغال سـيد ولم تعـد تشـعر بقيمتهـا في حياتـه، لم تنطقهـا بلسـانها ولكـنّ عينيهـا دائمًـا تقـولان «الفلـوس غيرتـه»

أمّـا مقـام سـيدي يحيـى فهـو مسـتقرها في آخـر الرحلـة، تصـلي هناك صـلاة المغـرب، سـيدي يحيـى أبـو المظاليـم، ولكـن لم يُطِعْهَـا قلبهـا أن تفعـل مثـل أُخريـاتٍ وتكنـس المقـام عـلى إبراهيـم.

تعلَّمـت فـن الهـروب، الهـروب إلى هنـاك، هنـاك القريـب، كـما كانـت جَدتهـا تهـرب في الذكريـات، وكـما هربـت كاتريـن في ماكينـة الخِيَاطـة، هربـت هـي أيضًـا أحيانًـا في نوبـاتٍ مِـن الإغـماءات، وأحيانًـا أخـرى في

حضرة الأولياء، وكما كانت تجوب الدرب الأحمر ليلا ونهارًا كانت أحيانًا تجلس في غرفتها بالأيام لا تكلم أحدًا، لم يفهمها المُحيطون.. اعتبروا غيابها اختفاءً!

ملكت أدوات صناعة الحيرة، فقدْ كانت لها طقوسها الخاصة التي أجبرت الجميع على تقبُلِها، وجعلتهم يتأكدون أنها مثل القمر لها مدها وجزرها، تتوارى وراء تلك الهلالات القمرية ثلاثَ ليالٍ في منتصف الشهر العربي عندما يكون القمر بدرًا، تستجِم انشراح وتتعطر وتمتنع عن العمل ولا تكلم أحدًا أبدًا، تصوم عن الأكل ما عدا المياه وقليلا مِن الخبز مع قليلٍ مِن المِلح، تظل طول الليل محدّقةً في السماه تحدث القمرَ ترسل رسائلها لإبراهيم، اعتاد الجميع على هذا الاعتكاف، والذي غالبًا ما كانت تتخلله نوبات مِن الإغماء والتي تقع فيها ميتةً كما كان يتصور الجميع ،ثم ما تلبث أن تُفيق حتى أطلَقوا عليها انشراح أُم خمَس أرواح.

هذه الحالة التي جعلت الجميع يقتنع أن هناك مَن يأخذها معه في موت مؤقت إلى عوالِمَ أخرى غير معروفةٍ لهم، وبدون إدراك كامل لحالة الانجذاب التي تأتيها، لكن الأكيد أنها تعود مِن هناك أكثرَ حيويةً وقدرة على التكيف.

هل حقًا كان هناك مَن يأخذها معه لعوالِمَ أخرى؟

إنها لحظة خاطفة لا تتجاوز ثوانيَ معدوداتٍ، تشعر فجأة بظلامٍ دامس مرعب وهدوء ثقيل وكما وجد في مذكراتها:

«أشعر بجسدي يتشنج وعضلاتي تتوتر وكُلي يتجمد، كأنني أقع

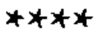
في هـوة عميقـة جـدًا وكأنني مِـتُّ، ثـم تتكشـف لي الرؤيـة تدريجيًـا فـأراني كأنني أطير فـوق جسـدي أسـمع مَـن يقـول لي:

«لقد تحررتِ مِن جسدكِ، أنتِ الآن في شكل كُتلة أثيرية»

ورأيـتُ أيضًـا خيطًـا فِضيًـا يَخـرج مِـن جسـدي يشـبِه ذلـك الخيـطَ الـذي رأيتـه يربـط بينـي وبـين جَـدتي لحظـةَ وفاتِهـا، كان جسـدي مُلقـىً دون حركـة ومـن حـولي أشـكال لبـشر ولكنهـم مختلفـون عنـا، بعضهـم لهـم زوائـد جِلديـة تشـبِه الزعانـفَ بـين أصابـع اليديـن والقدمين، وبعضهـم عمالقـة مختبئـون في كهـوفٍ عميقـة داخـل أغلفة ذهبيـة، تعرفـت عـلى نسـاءٍ يسـمونَهن السـعديات، أشـكالهن مختلفـة وأعمارهـن مختلفـة، معظمهـن لسـنَ بارعـاتِ الجَـمال يعشْـنَ عيشـة هادئـة بـدون بـذخ، بعضهـن يُشـبهن جَـدتي وأُمـي وجاراتِنـا، وبعضهـن لهـن بقعـة صغـيرة أعـلى العينـين مـكانَ مـا تضـع الهنديـات الخـرزةَ، يسـتطعن مـن خلالهـا أن يقـرأن أفـكار بعضهـن.

سـمعت أصـواتَ أمـواجٍ، رأيـت السـماءَ لونهـا أحمـر، والشـجرَ لونـه أحمـر رأيـت الكثـيرَ والكثـير...

لم أتـوانَ عـن اسـترجاع وتسـجيل مـا كنـت أراه في هـذه العـوالم، بـكل تفاصيلهـا المعقولـة وغـير المعقولـة، ربمـا تسـاعدني التفاصيـل لأجِـد إجابـة لسـؤالي: مِـن أيـن أتـت هـذه العـوالم؟ وهـل هنـاك حقًـا مَـن يأخـذني معـه في مـوت مؤقـت؟



- 5 -

إنهـا المَـرة الثانيـة التـي يأتيهـا الزائـر الليـلي، كان كلامـه مختلفًـا، وطريقتـه مختلفـة كانـت أكـثر جِـدةً وصرامـة:

- انـشراح، كفـاكِ إهـدارًا للعمـر، مـاذا تفعلـين بعمـرك؟ بشـبابك وبجمالـك وبأنوثتـك؟ كَـم مِـن الوقـت مـضى وأنـتِ تبكـين مَـن رحـل وتنتظريـن أن يعـود؟ تعيشـين بطريقـة مثيرة للشـفقة، تَسـكنين الماضي والمسـتقبل، تعيشـين عـلي الذكريـات والتوقعـات، تسـكنين الأزمنـة الخطـأ!

المـاضي قـد ذهـبَ ولا نسـتطيع أن نغـير مـا حـدث فيـه، والمسـتقبل لم يـأتِ بعـدُ ولا نعلـم عنـه شـيئًا، وربمـا لا تكونـين موجـودة فيـه.

عيـشي لحظتـك الحـاضرة، إنهـا أقـوى لحظـة في الزمـن، عيـشي «الآن» لأنهـا الحقيقـة المؤكـدة، الحيـاة هـي الآن، فـلا شيء يحـدث في المـاضي ولا شيء يحـدث في المستقبل، الفعـل يكـون الآن وحتـى عندمـا تتذكريـن المـاضي فأنـتِ تتذكرينـه الآن، وعندمـا تتخيلـين المسـتقبل فأنـتِ أيضًـا تتخيلنـه الآن.

لا تكـوني مثـل الكثيريـن الذيـن يزيـدون مسـاحاتِ الألم بداخلهـم عندمـا يتذكـرون أوجاعهـم الماضيـة، لأنهـم يعطونهـا وقتًـا أكـبر مِـن حياتهـم، لا تكـوني مثـل آخريـن يعيشـون لحظـة الحـاضر كأنهـا عَقَبـة يحاولـون التغلـب عليهـا ليصِلـون إلى مرحلـةٍ أجمـلَ في المسـتقبل

والتـي قـد لا تحـدث أبـدًا، إن مـا يفعلـه النـاس هـو عـدم رغبـة في احـترام الحـاضر، بالرغـم مِـن أنـه الزمـن الوحيـد الـذي نملكـه، الزمـن الوحيـد الـذي يكـون الإنسـان فيـه صاحـب قـرار، القهـر ينشـا لأن المـاضي يمنحنـا هويـة والمسـتقبل يحمـل وعـدَ الخـلاص.. كلاهـما وهْـم..

القهر أن نعيش على الذكريات والتوقعات

اسـتيقظتْ مِـن نومهـا، وجملـة نرجـس الشـهيرة «تتفكـروا تتعكـروا» تسـابِق جُمَـل الزائـر الليـلي، الـذي لا تعـرف لمـاذا أتاهـا مـرةً ثانيـة بعـد أكـثر مِـن خمسـةَ عـشر عامًـا منـذ أيـام وفـاة جَدّتهـا. تسـاءلت هـل هـذا لـه علاقـة بعـرض حَسـن للـزواج بهـا؟

لقـد تجـاوزت الثلاثـين مِـن عمرهـا، إبراهيـم لا يعـود، حَسـن لا يناسـبها، ولكـن كلـمات الزائـر الليـلي تـرن في أُذُنيهـا:

القهـر أن نعيـش عـلى الذكريـات والتوقعـات، المـاضي وهْـم والمسـتقبل وهْـم

نَعَـم لقـد ضـاع مِـن عمرهـا أكـثر مِـن عـشرة أعـوام، وهـي تعيـش عـلى ذكرياتهـا مـع إبراهيـم وحُلمِهـا أن يعـود.

الحياة هي الآن... الحياةُ هي الحاضر وحَسن هو الحاضر

عـادةً مـا يحـدث هـذا، فتـاة التاسـعة عـشرة تفيـق لتجـد نفسـها عـلى مشـارف الثلاثـين،

تـدرك هـذا فقـط عندمـا تـرى قريناتهـا يَسِرن في الشـارع وفي أيديهـن أطفـال قاربـوا سـن البلـوغ.

تتأكـد أنهـا عاشـت عمرهـا كمَـنْ تجلـس في عربـة سـاكنة، ويمـر

بجوارها قطار مسرع يجعلها تتصور أنها هي التي تتحرك.

لا تعلم كيف أمضت حوالَي عشرة أعوام من عمرها، كثير مِن الزلات تجعلها أحيانًا تتمني أن تخلع جِلدها الذي شهد عليها وتُلقِي به في أقرب بالوعة.

استغربتْ بشدة أن حَسن طلب يدها للزواج، فقد كان على عِلم بكثير من تفاصيلها، وكان شاهِدًا على علاقتها بإبراهيم، وربما رآها أكثر من مرة مع زغلول الباشا في بئر السلم، وعدة مرات مع أشخاص آخرين.

لا تملك المال حتى تتهمه بالطمع، ولا تملك الشباب أو الثروة حتى تجد له مبررًا في رغبته الشديدة في الزواج بها، وهو الذي يصغرها بعدة أعوام.

ربما كان السبب الوحيد أن انشراح كانت فتاة أحلامه عندما كان صغيرًا وكان يرافق خاله إبراهيم إليها لتحديد لقاء، وأحيانًا أخرى تستنجِد به انشراح للخروج من المنزل، وبالرغم من أنه طفل في الحاديةَ عشرةَ فإن خروجها معه كان كافيًا لتطمئن الأُم أن انشراح تحت رقابة، ولكنها ظلت في عينيه بنضارتها نفسها وببرائتها التي اعتادها مع إبراهيم، وكان يرى أن زلاتِها صغيرة وأن خاله إبراهيم كان جبانًا بما يكفي.

هو صغيرٌ جدًا، ولكنه تصوَّر نفسه الفارسَ النبيل الذي سيمسح دموعها وسيعوضها عن مرارات الهجر والغدر، برغم علمه أن إبراهيم كان أول رجُل في حياتها ولم يعنِه هل جاء بعدَه آخرون أم لا.

استمعت انشراح إلى نصيحة الزائر الليلي ووافقت على الزواج بحَسن، فقدْ ملت الانتظار ويئست مِن التمني، ولكن هل أتى لها الحاضر بجديد؟

الساعة الواحدة صباحًا جلس حَسن على الطبلية، كعادته يأكل بنهَمٍ ما وضعته انشراح في الأطباق الألومنيوم، بينما هي تتحرك في هذا الحيز الضيق حوله، وكالعادة لا يطلب منها أن تجلس بجواره لتأكل معه، وكالعادة تشعر هي بثقل هذه الدقائق المعدودة التي ترى فيها حَسن، فقدْ تعوّد أن يخرج صباحًا مبكرًا دون أن يراها، حتى لا يضطر أن يترك مصروف البيت، ويعود متأخرًا في الليل يطلب منها أن تحضر له العشاء، ويفتعل خناقة بهذا التعليق اليومي الذي سمعته منذ أول أيام زواجهما «هو الأكل ناقص ملح ليه؟».

تعودت انشراح على هذا التعليق، فرغم أنها كانت تضع كمية هائلة من الملح، هذا التعليق لم يتغير، كما تعودت أن يأكل حَسن سريعًا ويدخل إلى غرفته -بالرغم من أنه لم يَمضِ على زواجهما أكثر من عام- ويغلق بابه بالترباس وغير مسموح لها أو لأي أحد بدخول هذه الغرفة حتى الصباح.

فهو الكاهن المقدس الذي يتعبد طوال الليل، لا تملك انشراح إلا أن تدخل كل صباح حتى تجمع قِطع القماش المبللة بِمَنِيّه، والتي نظرت إليها كثيرًا بحسرة وتساؤل، تَجمعها مع الغسيل كل ليلة تعيدها للمكان نفسه، كانت تخشى أن تقع في يد أحد،

وكذا شرائط الفيديو التي يقضي زوجها معها لياليه. إلا في القليل النادر يترك باب غرفته موارَبًا ثم ينادي انشراح أن تحضر له كوبًا من الشاي في الغرفة، تعلمت انشراح طريقته، إشاراته التي كانت تجعلها تحتقر نفسها، فقط في ليالٍ بعينها على فترات متباعدة، تصل أحيانًا إلى شهور، يسود الصمتُ الغرفةَ، يُطفئ التليفزيون ويضيء اللمبة السهراية، يترك باب الغرفة موارَبًا ثم يطلب بعنجهية ورِقة مصطَنعة «كوباية شاي يا انشراح». أدركت مكانتها فهي مجرد زوجة تحت الطلب، كانت تلوّن أيامها بحُلم أن يتغير حَسن، ولكن ماذا تفعل الأحلام مع هذا الواقع المُر؟ سلواها الوحيدة في أوراق جَدتها المبللة بدموع سنوات طويلة عاشتها الجَدة في منازل مغلقة، لا تشعر بالحرية فيها إلا في الحمّام، في الحمّام تشعر الأنثى أنها حُرة.

لا أحد يقتحِمها، ولا أحد يأمرها ماذا تفعل، ولا أحد يقطع أفكارها.

كانت جَدتها تملك نوعيْن مِن الحَجَر، حَجَر جاف للكعبين، وحَجَر طري للجسد، تطلب مِن انشراح أن تبقى بجوارها في الحمّام وتدعك لها ظهْرها، تستمتع ساعاتٍ وهي تجلس تدعك جسدها بالحَجَر، تزداد سعادتها وهي ترى هذا «الفرك الأسود» يَخرج مِن جسمها، تصل إلى النشوة وهي ترى جِلد جسدها باللون الأحمر الوردي. الآن فهمتْ واستوعبت ما كانت تفعله الجَدة، نَعَم محاولة للتخلص مِن القديم السيئ الموجِع، محاولة

دائمـة لـولادةٍ جديـدة، إعـادة لهـذه الثقـة التـي أهدرتهـا الظـروف. تَخـرج مِـن هـذا الحمّام بإحسـاس أنهـا مـا تـزال هـي تلـك المَرأة النضِرة الورديـة، هنـاك تتخلـص مِـن كل الآلام في شـكل الفـرك الأسـود، تسـتمتع بالنظـر إليـه وهـي تدفعـه إلى المَجاري بعيـدًا حتـى يختفـي.

أمّـا هـي فقـدْ وجـدت سـلواها في صعـود الأدوار الخمسـة يوميًـا عـدة مـرات، لتمـلأ الميـاه مِـن الحنفيـة العموميـة، فالمنـزل حتـى الآن لم تدخلـه الميـاه. يسـعدها تعليـق الجـارات بـأن صحتهـا جيـدة وأنهـا شـاطرة، ولكـن مـا الفائـدة إذَن؟ تسـتمتع بهـذا العمـل لدرجـة أنهـا تقـوم بتعبئـة الميـاه للجـارات كنـوعٍ مـن المسـاعدة، لم يتوقـع أحـد أنهـا تجـد في هـذا المَلء والسـكْب نشـوة، ولكـن هـل سـتقضي عمرهـا تسـتمتع بمنظـر الميـاه التـي صعـدت بهـا عـلى رأسـها خمسـة أدوار وهـي تسـكبها في الطشـت؟ هـل سـتظل تسـتمتع بصـوت تدفقهـا وفيضانهـا كـما عاشـت جَدتهـا تسـتمتع بمنظـر خـروج الفـرك الأسـود مـن جِلدهـا وهـو يذهـب إلى المجـاري؟

****

ماذا تفعل إذا واكبتك روح لعينة وتَبِعتك أينما ذهبتَ؟

ربما هي السبب في جفاء حَسن وهجرِه لي؟

وهـل توجـد حقًـا روح لعينـة معـي أم هـي إشـاعات أطلقتهـا ليـلى حتـى تخيـف النـاس منـي؟ ولكـن مَـن يكـون إذَن هـذا الزائـر الليـلي إذا كانـت هـذه إشـاعات ليـلى؟

ولماذا قررتْ ليلى أنها لعينة؟ ولماذا لا تكون روحًا طيبة؟ ولماذا صدقتها؟

أطلقوا عليها كل الأسماء، هناك مَن قال إنها قريني، وهناك مَن اعتبرها خادم جَدتي الذي اختار أن يرافقني أنا بعد وفاتها لأنها كانت تحبني، وهناك مَن اعتقد أنها روكش الجنية الطفلة.. وأسماء أخرى كثيرة.

أمّا أنا الوحيدة التي لا تصدق في كل هذا، مهما ادَّعى مَن حولي أنني أحيانًا أقْصَر ويصبح طول قامتي مئة سنتيمتر، أو أنني أحيانا أتكلم بصوت رجالي غير مفهوم، أو كما ادّعي آخرون أنني كتبتُ لهم وصفاتٍ علاجية كطبيبة متخصصة وتعافوا بوصفاتي، وآخرون قالوا إنه عندما تأتيني نوبات أتوه فيها عن العالَم، أتكلم لغاتٍ غيرَ مفهومة. أكّد أحدهم أنني أتكلم السنسكريتية التي يجيدها هوَ وترجَم ما قلتُه للحضور!

أنا الوحيدة التي لا تؤمِن بكل ما يقولونه، لا توجد روح أقوى مِن روحي حتى تمتلك إرادتي وجسدي، كل هذا كذب.. كل هذا تخاريف.

دَق جرس باب الشقة، قطعَ تساؤلاتها، عرَفت انشراح أن هناك زائرًا غير تقليدي، فالكُل كالعادة يخبط على الباب ولكلٍ خبطته المميزة، والغرباء فقط هُم مَن يستخدمون الجرس. فتحَتِ الباب. لم تتعرف على هوية هذه الزائرة المنتقِبة.

- انشراح، أنا بيسة أختك

لم تفهـم انـشراح شـيئًا، ارتبكـت وظلـت لوهلـةٍ متشـككة في هـذه السـيدة حتـى رفعـت نقابهـا عـن وجههـا لثانيـة، أصـاب انشراح بـرودٌ شـديد وحَيْرة ثـم تمالكـت نفسـها:

- بيســة حمدالله عـلى السـلامة، حمدالله عـلى السـلامة اتفضـلي اتفضـلي

أسـئلة كثـيرة تـدور في ذهـن انـشراح، مـا الـذي حـدث لبيسـة حتـى تخفـي وجههـا خلـف قطعـة مـن القـماش الأسـود؟ لمـاذا تذكرتهـا وأتـت لزيارتهـا الآن؟ ولكنهـا كالعـادة تجيـد الصمـت.

تحـكي بيســة وتتكلـم عـن أشـياء كثـيرة، تسـألها عـن سـيد وليـلى ومـرزوق وعواطـف وسـعيد إخوتها، عـن حياتهم وأحوالهـم وأخبارهـم، تسـألها عـن زوجهـا الـذي لم تـره، تتحـدث بحميميـة شـديدة واهتـمام أشـد، كأنهـا لم تمتنـع عـن إرسـال السـيارة لتأخـذ انشراح!

تَحـكي لهـا أيضًـا عـن أشـياء أخـرى، لا تسـمعها انـشراح.. فقـدْ كانـت شاردة.

يمُـر مِـن أمامهـا شريـط ذكريـات بعيـد، بيسـة الطفلـة في قصرهـا في منشـية البكـري، بيسـة في الجامعـة تقـود سـيارتها الكاديـلاك وهـي ترتـدي المينـي جِيـب، ووراءهـا طابـور لا حـصر لـه مِـن المعجبـين، بيسـة وهـي تناقـش رسـالة الدكتـوراه في إنجلـترا كـما تخيلتهـا... مَـن هـذه المـرأة؟

تحدثـت بيسـة عـن أولادهـا السـتة أمـيرة، وأحمـد، ثـم رُقيـة، وأبـو بكـر، وأم المؤمنـين، وعبـد الرحمـن، عرَفـت منهـا انـشراح أنهـا تبرعـت

بـكل مـا تملـك وكل مـا ورثتـه عـن أُمهـا، حتـى قـصر منشـية البكـري وكل مجوهراتهـا، لإحـدى الجمعيـات الإسـلامية في لنـدن، وأنهـا تركـت العمـل كأسـتاذة في الجامعـة حتـى ترعـى أبناءهـا، وأنـه لا مـكان للمـرأة خـارج المنـزل، وأنـه لا صـلاح في هـذا المجتمـع إلا إذا عـادت كل النسـاء للبيـوت. كانـت انـشراح تنظـر إلى بيسـة وهـي تتحـدث عـن الزهـد والإيمـان وزوال الدنيـا، ومـا يجـب أن تكـون عليـه المَـرأة المسـلِمة، وهـي لا تـرى إلا صـورة بيسـة الدلوعـة التـي تعـودت أن تحصـل عـلى كل مـا تريـد وقتـما تريـد، حتـى انـشراح كانـت بالنسـبة لبيسـة مجـرد لعبـة «أريـد أن يكـون لي أخـت» يتحـرك السـائق مـن منشـية البكـري إلى درب شـغلان فيحـضر الأخـت اللعبـة لتجلـس معهـا بسبوسـة، ولتلعـب معهـا حتـى تشـبَع بيسـة مـن اللعبـة الأخـت، فتعيـد السـيارةُ انـشراح إلى درب شـغلان ولا تـأتي مـرة أخـرى إلا عندمـا تشـتاق بيسـة للعبـة الأخـت، بيسـة هـي الفتـاة المدللـة التـي لا يُرفـض لهـا طلـب، أكْل، لعـب، ملابس، سـيارات، كوافـيرات، تعليـم متميـز، معجبـون مِـن عائـلات وأُسَر راقيـة، زواج موفَـق بشـاب سـليل أسرة راقيـة.

لم تشـعر انـشراح وبيسـة تتحـدث عـما آلـت إليـه مِـن إيمـانٍ وهداية وأن نمـط الحيـاة الـذي تعيشـه انـشراح وإخوتهـا كُفْـر لم تشـعر أنهـا خاطئـة أو عاصيـة، ولا أنهـا يجـب أن تنتصـح وتقـوم لتسـتغفر ربّهـا، بقـدْر مـا كانـت تشـعر أن بيسـة تمـارس لعبتهـا المفضلـة في الحيـاة «الاسـتحواذ والتملـك» وأنهـا أرادت أن تحصـل عـلى الجنـة بعـد أن أخـذت كل شيء مـن الدنيـا، نَعَـم فالجنـة هـي لعبتهـا الجديـدة التـي

ستبذل كلَّ شيء من أجل الحصول عليها.

زيارة كانت غير متوقَّعة، لم تكن أيضًا مبهِجة بالنسبة لانشراح، فلم تعُد هناك بيسة أختها، هناك الآن سيدة أخرى غير التي أحبتها انشراح واشتاقت لها، اسمُها أم عبد الرحمن.

****

عادت بيسة. هل سيعود الغائبون؟ وهل حقًّا عادت بيسة؟ هل تغير إبراهيم مثلما تغيرت بسبوسة؟ وهل أصبح الأخ إبراهيم أم مسيو إبراهيم؟

كانت ليلة الحنين لكل مَن رحلوا، ذكريات حُب إبراهيم تستيقظ بداخلها بقوة جارفة تجعلها تبكي كأن الفراق كان أمس، كانت تُنهنِه كالأطفال، اشتاقت له ولمحبته ولدفئه، اشتاقت لهذا الصوت المتفرد الذي لم تسمع في حياتها أعذبَ منه وهو يتلو في محبتها قصائد الغرام، لهذه الأصابع النحيفة والتي طالما مسحت دموعها التي أسالتها ليلى، لهذه الشفاه التي طَبَعت على جسدها ختْم الأنوثة، لهذا الجسد النحيل فلم يمتلك إبراهيم يومًا عضلاتٍ مفتولة يتخايل بها مثل الشباب الآخرين، كان شديد النحافة متوسط الطول، بشرته سمراء تميل لزرقة تشبِه زرقة لون الهنود جعلت الجميع يتصور أنه مريض مرضًا يجعله يبدو هزيلا، أمّا هي فكانت ترى حتى في هذا الضعف علاماتِ دِقة تكوين حبَاه الخالق بها تجعله أشبَه بالزاهدين، لا تنكِر أن هناك آخرين ظهروا في حياتها بعد إبراهيم

قبل أنَ تتزوج حسن، ولكنها كانت تشعر أن كل الرجال الذين دخلوا حياتها كانوا مجرد قُطّاع طريق، حتى مشاعر الحُب واللوعة التي كانت تعيشها بكل ما فيها من طاقة، لدرجة أنها فقدت عشرة كيلو جرامات مِن وزنها في إحدى تلك العلاقات، اعتبرتها حالاتٍ نفسية وردود أفعال لعلاقتها بإبراهيم. إبراهيم هو كان الزلازل الحقيقي في حياتها، أمّا ما دون ذلك فإنه توابع. استطاعت بجدارة أن تلخص حياتها العاطفية في ثلاث جُمَل إبراهيم هو الحُب، حَسن هو الأسرة والاستقرار، أمّا كل الرجال الآخرين فكانوا مجرد قاطِعي طريق.

سامحت نفسَها، اعتبرتهم حالةً نفسية، كانت سافِرة جدًا وساخرة أيضًا مِن كل مشاعرها، أدركت أنها في كل علاقة كانت تحب إبراهيم وتبحث عنه.

سألته بحرقة: ماذا تريد مِني بعد كل هذه السنين؟ لماذا تبحث عن لحظات سعادة تركتَها وتخليتَ عنها بإرادتك؟

أجابها: أحببتُكِ كما لم يحِب رجُل امرأة ولكنه التكافؤ، ضحكت بسخرية، تزوجتَ المهندسة، كنتَ تريد أن تكمل نجاحاتِك وهيئتَك الاجتماعية، تزوجتَ المهندسة وأنجبتَ أبناء ذوي حسَبٍ وجاهٍ، والآن تريد أن تملك الحُب في شقة مهجورة تفتحها عندما تحتاج إلى لحظة دِفء.

لم أعُد تلك الفتاةَ الصغيرة التي تصدق كلماتك، وبالرغم من أنني أحيانًا أحتاج للمشاعر نفسها، فإنك للأسف الرجُل الوحيد الذي لا يملك أن يعطيني إياها، لأنك الإنسان الوحيد الذي أعلم

أنـه لا يملكهـا. ربمـا أقبَلهـا مِـن مَـارٍ في الشـارع أو أصـدَق كذبَـةَ أي رجُـل، كل رجـال العـالم يملكـون فرصـةً معـي إلا أنـت.

عاشـت انشراح سـنواتٍ طويلـة تتخيـل هـذا الحـوار، تـرى إبراهيـم واقفًـا ببابهـا مسـتعطِفًا إياهـا أن تسـامِحه وأن يقضيـا معًـا ليلـة دفء واحـدة. تخيلـتْ وتخيلـت، كَـم مِـن المـرات ردت اعتبارَهـا، كَـم انتقمـت لعواطفهـا الموجَعـة مِـن هـذا الـذي سـلبَها كل مشـاعر الحـب وتركهـا روحًـا يملأهـا الخـواء، وآلـةً متحركـة لا تهـدأ ولا ترتـاح، يصاحِبهـا أرق مَـرَضي لا يفارقهـا لسـنين، ولا تعـرف كيـف تداويـه!

****

الأرق هـذه الليلـة كان غريبًـا، بيسـة تلِـح عليهـا بالرغـم مـن أنهـا كانـت في زيارتهـا مـن أيـام، تغفـو قليـلا فتراهـا كأنهـا مكبَلـة مقيـدة، وكأن هنـاك مَـن يُطلِقـون عليهـا الرصـاص، وقنابـل المولوتـوف تحـرق منزلهـا والنـيران تلتهـم كل مَـن بداخلـه. نَعَـم بيسـة تغـيرت وأصبحـت بيسـة أخـرى، ولكنهـا تظـل أختهـا التـي أحبتهـا واشـتاقت لهـا سـنواتٍ وسـنوات. ومـا المشـكلة إذا كانـت أختهـا أم عبـد الرحمـن أو بسبوسـة الدلوعـة؟ ومـاذا يفـرق هـذا في المشـاعر؟ الحُـب هـو الحُـب.

اسـتبدّ بهـا القلـق عـلى أختهـا، اسـتيقظت مبكـرة إذا جـاز التعبـير، فهـي فعليـا لم تنَـم ليلتَهـا، قـررت أن تأخـذ الورقـة التـي تركـت بيسـة العنـوانّ فيهـا وتذهـب إلى زيارتهـا، لم تَقُـل لأحـد إلى أيـن هـي ذاهبـة، كعادتهـا لا أحـد يعـرف عـن تحركاتهـا شـيئًا، كِيـس مَـلِيء بالخضـار

يكفـي للـرد عـلى تسـاؤلات الجـيران، «كانـت في السـوق».

الطرق كانت شِبه مغلَقة.. العَرض العسكري بمناسبة احتفالات أكتوبر

لم تكُـن تتخيـل هــذه الصعوبـة المروريـة، تمـلأ شـوارع العاصمـة كردونـات أمنيـة، وبينـما هـي في محاولاتها لإيجـاد أي طريـق تسـلكه لتصـل إلى بيسـة، تنطلـق الصرخـات والصيحـات في كل مـكان..

ضربوا نار على الريس

كل مـا رأتـه في الحُلـم تحقَّـق، وابِـل الرصـاص والنـيران، ولكـن هـل يكـون مـا حـدث هـو تفسـير مـا رأتـه ليلـةَ أمـس؟ أم أن هنـاك شـيئا يخـص بيسـة فعـلا؟

لم تسـتطِع أن تكمـل طريقهـا إلى ذلـك العنـوان الـذي لم تذهـب لـه مـن قبـل في هـذا الارتبـاك، أمضـت وقتًـا طويـلا حتـى تجـد وسـيلة مواصـلاتٍ تعـود بهـا إلى منزلهـا في الكلحـة.. قتلـوا السـادات!

لم تفـارق بيسـة خيالَهـا، ولكنهـا لم تسـتطِع الاطمئنـان عليهـا، القاهـرة مضطرِبـة والحركـة فيهـا ليسـت سـهلة، وَظَـل السـؤال: هـل مـا حـدث هـو تفسـير الحُلـم؟ أم أن هنـاك شـيئًا آخـرَ لـه علاقـة ببيسـة؟

مضـت عـدة أشـهر، قُرَابـة العـام يئسـت فيهـا أن تعـرف عـن بيسـة شـيئًا، بالرغـم مـن أنهـا قامـت بالكثـير مـن المحـاولات المُضنيـة، لقـد ذهبـت إلى العنـوان الـذي تركتـه لهـا، وعَرَفـت مِـن الجـيران أنهـم اسـتيقظوا فلـم يجدوهـا لا هـي ولا أيـا مِـن أفـراد أسرتهـا، كانـت ردود الجـيران مقتضَبـة، بعضهـم أصـلا رفضـوا الـرد عليهـا وتركوهـا ومضـوا، بعضهـم ردوا باقتضـاب وحـال لسـانهم يقـول في داهيـة، وهنـاك مَن تَبرع

وقال في عجالة: «جوزها واحد من اللي خططوا لقتل السادات».

كان مِن الممكن جدًا أن تنسى بيسة، مِن المؤكد أن عواطف وسيد لن يهتما ولكن ذكريات الطفولة المشتَرَكة، هذه الفرحة التي كانت تستقبلها بها بيسة، لعبهما معًا في حديقة منشية البكري، العروس أم أحمد التي شاركتهما أيامهما ما تزال هنا تذكرها، كل هذا يستحق أن تحاول مرة أخرى ولكن لم يعُد أمامها إلا اختيار أخير، اختيار صعب وهو د. مصطفي الرزيقي الذي أصبح أحدَ رجال الدولة المهمَين، صوره تتصدر الجرائدَ وشاشات التلفزيون، ولكن ماذا تقول له؟ هل يُعقَل أن تقول له إنها تشك أن زوج أختها في السجن، لأنه ربما يكون أحد المُخططين لقتل السادات؟!

ناهد. نَعَم ناهد تستطيع أن تطلب منها، وبالرغم مِن أن ليلى تركت المعادي منذ أعوام كثيرة وانقطعت الصلة، فإن ناهد تُكِن حبًا لانشراح وعِشرة.. أكيد لن تبخل عليها، وربما تَبخَل!

قررت زيارتَها.. ستحاول.

لم يتغير شيء، الفيلا كما هي وأشجار المانجو وسرو الليمون برائحته النفاذة تستقبل انشراح كعادتها، كان رائعًا بالنسبة لانشراح أن سميرة هانم لم تكُن بالفيلا، فقدْ سافرت إلى بلدتها لتُحصّل فلوس الإيجارات السنوية، في الواقع انشراح لم تكُن في حالة نفسية قادرة على تحمُّل مجاملة سميرة هانم، وأيضًا ربما لم تكُن لتتوفر لها الفرصة للحديث مع ناهد بحميمية.

كل شيء كما كان إلا ناهد، كانت على عكس ما توقعتْ انشراح،

كانت تتصور أنها ستجد فتاة تملأها بهجة ونضارة التسعةَ عشرَ عامًا، كانت ذابلةً شاحبة منطفِئة، شحوب لا يليق بالفتاة، لم تجد انشراح طريقة وهي تتحدث مع ناهد لتطلب منها وساطةَ والدِها، فقدْ كانت شاردةً لدرجه شعرت معها انشراح بالحرج وهمّت بالاستئذان، لولا أن فاجأتها ناهد بسؤالها:

-أخبار أخوكي اللي في لبنان إيه؟

لم تستوعب انشراح، وهل يعقل أن ناهد لا تزال تتذكر أن انشراح لها أخ في لبنان؟ أجابتها باستغراب:

-مفيش أخبار عنه من زمان

تنهدت قائلة بحسرةٍ مكمِلة حوارَها:

-كل اللي بيسافر بينسى

تذكرت إبراهيم في لمحة ثم عادت إلى ناهد:

-غريبة انك لسه فاكرة ان ليا أخ في لبنان، ده أنا كنت خايفة تكوني نسيتيني أنا أصلا.

انفجرت ناهد في الكلام، كانت تتحدث بدون توقف وبانفعال شديد:

- إنتي عارفه ان الجيش الإسرائيلي موّت الفلسطنيين في صبرا وشاتيلا في لبنان، مجزرة عملوها بدم بارد، حاصروا المخيم وهُم عُزّل، قتلوهم، دبحوا الأطفال، فتحوا بطون الستات واغتصبوهم، قادرة تستوعبي الغدر والخيانة؟

كانت يداها مرتعشتين وجسدها كله ينتفض من شدة التوتر ثم انفجرت في البكاء.

لم تفهم انشراح شيئًا، وما علاقة ناهد بالسياسة والحرب وفلسطين ولبنان؟ ولماذا كل هذا الانفعال والبكاء لفتاة التاسعة عشرة، أجمل فتيات نادي المعادي، ابنة أستاذ القانون المرموق ورجُل الدولة وسميرة هانم سليلة الباشوات؟

لم تفهم انشراح شيئًا، لكنها لم تملك إلا أن تأخذها في حضنها بشدة، أخذت تربت على شَعرها وجسدِها لتهدئتها من نوبة البكاء الهيستيرية التي انتابتها، حتى فوجئت بها نائمةً في حضنها بعمق كأنها لم تنَم منذ أعوام.

لم تستطع انشراح أن تنام هادئة، في اليوم التالي قامت بالاتصال بناهد للاطمئنان عليها، صوتها كان مقلِقًا، أبدت انشراح رغبتَها في أن تزور ناهد، ولكن ناهد طلبت من انشراح أن تكون المقابَلة هذه المرة في منزل انشراح.

حاولت انشراح أن توضّح لها أن منطقة الكلحة التي تسكن بها ليست منطقةً شعبية، وإنما هي منطقة عشوائية لا توجد لها وسائل مواصلات ولا حتى طُرق ممهدة للسيارات، والوصول سيكون شاقًا. ردت عليها ناهد بوهَن:

-أنا هاعرف اوصل

هناك على الكَنَبة الكائنة ما بين غرفة حَسن وغرفة أمها، استرخت ناهد وقالت: «انتي ربنا بعتك ليا، أنا ماكنتش عارفه اتصرف ازاي أنا في ورطة.. أنا حامل»

انتاب الذهولُ انشراح لثوانٍ، لم تكن مذهولة لأن ناهد حامل،

فهذا يتكرر دائمًا، كثيرًا ما رأت جَدتها تقوم بعمل وصفات لإجبار هذا الشاب على الزواج، ودائمًا ما كانت تفلح الوصفات وتأتي العروس أو خالتها لجَدتها نرجس بالحلاوة، وكثيرًا ما عرَفت أن أهل الفتاة قاموا بتكتيف الشاب وإجباره على الزواج، لكنها كانت مذهولة لأن ناهد هذه الرقيقة الجادة تقع في هذه الورطة!

أجابتها سريعًا:

-ماتخافيش وماتضايقيش نفسك، أنا عندي وصفة كانت نرجس بتعملها، هتخليه ييجي على بوزه ويكتب عليكي غصب عن أهله، بس هاتي لي صورته

كان رد ناهد مربِكًا جدا:

- انشراح أرجوكي أنا مش باقتنع بالحاجات دي، وماتزعليش مني، أنا شايفة ان دي خرافات وجهل، وكمان انا مش عايزاه ييجي على بوزه ولا عايزة وصفات، أنا مش عايزه اتجوزه، أنا عايزة اتخلص من الجنين.

انشراح المذهولة بحق تنظر لها باستغراب مكمِلة حديثَها:

- يعني إيه مش عايزة تتجوزيه؟ اللي غلط لازم يتحمل المسئولية

قاطعتها ناهد:

- إنتي بتقولي اللي غلط... هو ماغلطش وماوعدنيش بحاجة، وأصلا ماكانش فيه بينا أي علاقة ولا قصة حب، أنا مش بالومه على حاجة.

انفعلت انشراح وقالت:

- يعني لا قصة حب ولا علاقة؟ يعني باختصار ضحك عليكي وجرجرك وبيقول لك ماليش دعوه انتي اللي غلطانة.

-انشراح الموضوع مش كده خالص، هو لا ضحك عليا ولا جرجرني، ده شاب فلسطيني اسمه عدنان، من أسرة فلسطينية فقيرة قوي، أخد منحة لدراسة الحقوق في مصر، هو كان بالنسبة لأهله الأمل، هيخلص دراسته ويبقى محامي ويشتغل ويبعت يجيبهم من مخيم اللاجئين اللي كانوا عايشين فيه في لبنان، مخيم شاتيلا، أهله كلهم ماتوا في المذبحة، لقوا جثة أمه متقطعة جاتله حالة هيسترية لما عرفنا الخبر، واحد من زمايلانا أخده عنده في البيت، واحنا قررنا نروح نزوره، دخلت عنده الأوضة كان في حالة هذيان، بيضرب دماغه في الحيط وبيبكي ويصرخ وبيقول أمي أمي، ويشتم في الكون والعرب والإسرائيليين، حاولت أهدّيه، أخدته في حضني وقعدت أبوس في دماغه ووشه ورقبته، أنا كمان كنت بابكي وماحسيتش بأي حاجة ولا حتى بألم، لدرجة أني ما انتبهتش أن فيه حاجة حصلت بينا إلا لما الدورة الشهرية اتأخرت، بدأت أستعيد الذاكرة وافتكرت حاجات بسيطة زي اني قلعت الجيب أو حاجة زي كده، افتكرت حاجات تانية مش بوضوح كأنها كانت حلم.

- ماحسيتيش بحاجة؟ مش فاكرة حاجة؟ طيب انتي متأكدة من إنك ماعدتيش بنت؟

- أنا مش متأكدة من حاجة كل اللي عارفاه ان الدورة الشهرية بقالها شهرين متأخرة، بس حاسة اني فقدت عذريتي وحامل.

-وهو عرف؟

- أيوه طبعا قلت له، بس بصراحة ماكنتش عارفة اقول له ازاي، أنا نفسي كنت محرجة، إذا كنت أنا شخصيا ماحسيتش بحاجة، أمّال هو اللي كان في صدمة وهيستريا بسبب اللي حصل لاهله؟

- وكان رد فعله إيه؟

- عدنان مش معانا في الدنيا دي، عدنان لسه في حاله توهان، قلت له أنا حاسة اني فقدت عذريتى يوم ما كنت عندك، مش عارفة ازاي. ردَ بصوتٍ كسير: فيه ناس كتير طول الوقت بتفقد حاجات غالية عليها، وبرضه ماتعرفش ازاي.

قلت له احتمال اكون حامل، قال لي بيأس» أب بلا وطن، ابن بلا وطن، تخلصي من هادا العذاب يا ناهد، لو ضل هذا الحمل جوّاكي هتضلي تحملي مشكلة الشعب الفلسطيني كله طول عمرك. كان نفسي يكون عندي حاجة اقدمها لك أو لابن لي، حتى الهوية لا أملك».

-وبعدين؟

- مش عارفة، مش متأكدة، ساعديني يا انشراح أرجوكي

- ماتخافيش، ارمي حمولك على الله، هتتحل، كله هيتحل بإذن الله.

لم يكن الوقت مناسبًا لأن تفاتِح انشراح ناهد في موضوع بيسة، قررت أن تؤجل الحديث إلى وقتٍ آخر.

****

- 6 -

تأكدَ الجميع من أن هناك شيئًا خارقًا أملكه بعد حادثة ابن أختي عواطف، كان وقتَها طفلا لم يتجاوز سِن المراهَقة، وأصيب بمرض السرطان في المُخ ولم يفلح معه علاج، ووصل إلى مراحل المرض الأخيرة، فقدَ الجميع الأملَ في شفائه وباتت أيامه في الأرض معدودة، كنت أُحِبه بشدة وأبكي بشدة أمامَه، وذات ليلة بينما أنا نائمة بجواره -فقد كنت أنا وعواطف نتناوب على رعايته في أيامه الأخيرة- في الليل حلمتُ أنني استيقظت فجأة وأخذت أقلِّب رأس الولد وأحرّكه. وإذا بي كأني أُخرِج معداتٍ جراحيةً وأقوم بعمل عملية جِراحية في رأس الولد، وبعد الانتهاء أخذته في حضني وقبّلتُ رأسه.

وفي الصباح استيقظتُ وكُلّي يقين أن ابن أختي قد شُفِي تمامًا، لم أحكِ فعليًا عن تفاصيل الحُلم لأحد، كل ما قلته لعواطف أنني رأيتُ رؤيا أن ابنك سيُشفَى، وفعلا قام الولد الذي كان يحتضر معافى بلا أي ألم أو مرض، وأثبتت التحاليل والفحوصات والمَسح الذري أن هذا الابن شُفِي تمامًا، وغير مصاب بأي أورام سرطانية في أي جزء مِن جسده!

انتشرت قصة الرؤيا في كل مكان، ولكن لم يعرف أحد أي شيء عن هذه العملية الجراحية، التي اعتبرتُها أنا وقتها مجرد جزء

مـن الحُلـم، وأنـه لم يكـن هنـاك أي عمليات فعليـة، إنهـا مجـرد رمـز لشـفائه، ومـا رأيتـه كان حقًّـا رؤيـا، حتـى أتـاني صديقـي الزائـر الليـلي بعدَهـا، كان مختلفًـا أيضًـا هـذه المـرة ولكنـه سـألني بلهجـة أكـثر اختلافًـا، موجِّهًـا حديثَـه لي مُناديًـا إيـاي:

- دكتورة انشراح، العملية كانت أكثر مِن رائعة.

لقـد وفَّقـكِ اللـه في عـلاج ابـن أختـك، إنهـا المـرة الأولى لـكِ وقـد نجحـتِ بجـدارة، ولكـن لـن تكـون المـرة الأخـيرة، سـوف تسـتطعين عـلاج المَـرضَى وسـتقومين بعـلاج كل مَـن يحتـاج إليـكِ، ولكـن هـذا لـن يتـم إلا إذا توافـرتْ لديـكِ الإرادة لمسـاعدتهم، لا أحـد يجـبركِ عـلى أن تفعـلي هـذا، لـن يتـم شـفاؤهم إلا إذا وجـدتِ داخلـكِ الرغبـةَ الحقيقيـة في هـذا، إنـه اختيـاركِ، فَكِّـري جيـدًا وإذا شـعرتِ أنـكِ فعـلا مسـتعدة لهـذا، فقـط عاهِـدي اللـهَ عـلى هـذا والتزمـي بالعهـد.

اختفـى صديقـي دون أن ينتظـر إجابتـي، بينـما كنـت أتسـاءل: مَـن مِنـا لا يحِـب أن يكـون سـببًا في إسـعاد النـاس؟ مَـن مِنـا لا يتمنّـى أن يملـك القـدرة عـلى مسـاعدة المَـرضَى وتخليصِهـم مِـن آلامهـم؟ ولكنـي لسـتُ طبيبـة، ولا أملـك العِلـم الـذي سـوف يسـاعدني عـلى هـذا، فكيـف لي وأنـا سـيدةٌ جاهلـة لم أكمِـل حتـى تعليمـي الإعـدادي؟

في الصبـاح نسـيتُ الزائـر الليـلي، أو بالأحـرى تناسـيتُه، لم أجـرؤ حتـى بينـي وبـين نفـسي أن أجيـب عـلى سـؤالِه أو أعـترِف أننـي أريـد أن أُعالِـج النـاس، أسْـخَر مِـن تخاريفـي الليليـةَ، عمليـات جراحيـه، طبيبـة خرّيجـة سريـر في غرفـة ضيقـة في الكلحـة، حاصلـة عـلى بكالوريـوس

طِب ودكتوراه في الجراحة مِن زائرٍ ليلي مجهول!

تذكرتُ كلمتَه «العهد». هل مِن المعقول أن يكون هذا هو العهد الذي أعطتني إياه نرجس؟!

لم يكن عمري وقتها قد تجاوز العاشرةَ لا أعرف لماذا أصرت جَدتي أن تعطيني العهد وتعلّمني الذبح، ولم أفهم مطلقًا إصرارها على أن تأخذ دَم الفرخة التي جعلتني أذبحها بيدي، وتضعه على رأسي وعلى أجزاء جسدي الداخلية، وقتها طلبتْ مِني ألا أستحِم لمدة ثلاثَ ليالٍ!

إنها ذكريات شديدة البعد نسيتُها لسنواتٍ طويلة، ربما تعاملتُ معها على أنها جهل مِن جَدتي، أتذكرها الآن بوضوح، ولكن أي عهد قطعته على نفسي؟ ومع مَن؟ ولماذا شطرتْ جَدتي الدجاجةَ إلى نِصفيْن وجعلتني أمُر مِن بينِهما؟

نَعَم كان هناك أيضًا ما أسمته بالقَسَم، وطلبتْ مِني أن أُرَدده وراءها ثلاثَ مرات، لا أتذكره جيدًا، ولكني أتذكر أنها قالت لي إن أي مهنةٍ لها قَسَم مثل قَسَم الأطباء وقَسَم القُضَاة. ولكن ما هي المِهنَة؟ ماتت جَدتي ولم أفهم منها أشياءَ كثيرة،»بالرغم مِن حبي الشديد لجَدتي، لم أكن أصدق الكثير مما تقوله، بالطبع لم أجرؤ على أن أصارحها يومًا أو أصارح أي شخص آخر برأيي في ما يحدث، كنت أعتقد أن ما فيه جدتي يتراوح ما بين الهلوسة والنصب واستغلال الآخرين».

لا أنسى مطلقًا عندما ادَّعت جَدتي أن صوتًا ما قام بوشوشتِها في

أذُنِهـا، قائـلا لا تذهبـي إلى الطبيـب، أنـتِ طبيبـة ماهـرة، وإذا قُمـتِ بزيـارة الطيـب فإنـكِ سـوف تفقديـن قدراتـك عـلى عـلاج الآخريـن وعـلاج نفسـك أيضًـا، كـما حكت أنهـا لم تُعِـر لهذا الصـوت اهتمامًـا، وإذا بهـا تنزلـق مـن عـلى السـلَم وتُكسَر رِجلُهـا، وبالرغـم مـن أنني سـمعت صراخَ جَـدتي مِـن كسْر رِجلِهـا ورأيتهـا بعينـي وهـي تتـألم بشـدة، فـإن هـذا بالنسـبة لي لا يعني مطلقًـا أنـه حقًـا كان هنـاك صـوتٌ مـا، وأن جَـدتي التـي لم تتمكـن يومًـا مـا مـن القـراءة كانـت طبيبـة ماهـرة.

كنـت أسـمعها كثـيرًا وهـي تعطـي وصفـاتٍ علاجيـة للجـيران، وصفـات مثـيرة للضحـك حتـى أمْ زغلـول الباشـا بـكل جبروتهـا تقـف ذليلـة أمـام جَـدتي، عندمـا تَعـثَّر زغلـول ابنهـا الأكـبر في ليلـة الدخلـة، والغريـب أنهـم كانـوا يُشـفَون كـما يدّعـون ويأتـون لزيـارة جَـدتي وشـكرِها محمَلين بأكيـاس اللحـم والأرز وعلـب السـجائر، كـما جـاءت أُم زغلـول محمَلـة بـكل مـا يتخيلـه عقـل مِـن هدايـا. أمّـا أنـا فقـدْ ترسَّبت بداخلي قناعـة أن زغلـول ليـس مكتمِـل الرجولـة، مـا جعلنـي أسـمح لـه فيـما بعـد أن يعبـث بجسـدي تحـت بـئر السـلم مقابـل قليـلٍ مـن القـروش أشـتري بهـا سجائر، فـلا خـوف مِـن أنـه سـيذهب إلى أبعـد مـن ذلـك».

هـل حقـا كانـت نرجـس قـادرة عـلى عـلاج المـرضي؟ وهـل أنـا مـن ورثـت نرجـس في كل شيء؟.

****

- 7 -

لم تكُـن حالـة الضيـق التـي اعـترت مصطفـى الرزيقـي غيرَ مـبررة، مـا حـدثَ بالنسـبة لـه كارثـة بـكُل المقاييـس، كارثـة لم يكُـن يتوقعهـا ولم تكُـن أبـدًا في حُسـبانِه.

الأمـور تسـير عـلى مـا يـرام، النجاحـات تتـوالى يترقـى في مناصبـه، حقـق أحلامـه في أن يصبـح رجـل دولـه مهـمًّا. في بدايـة حياتِـه الزوجيـة كان يؤرقـه قليـلا افتقـاد مَـا تَصـوَّرَه عـن فكـرة الزوجـة، فقـدْ كانـت سـميرة هانـم صارمـة شـديدة الطبـع، تعاملـت مـع الـزواج عـلى أنـه امتـداد لمـشروع عائـلي كبـير، وهـي طبعًـا المديـر التنفيـذي وعضـو مجلـس الإدارة، المسـؤول عـن المحافَظـة عـلى نجاحـات العائلـة السـابقة وتطويرهـا وتوريثهـا، وعـلى اسـم العائلـة، ومركـز العائلـة، ووضـع العائلـة، والمنصِـب الـذي يجـب عـلى زوجهـا الوصـول إليـه، كيـف يتـم توريـث كل ذلـك لأبنائهـا؟ هـذه هـي المَحـاوِر الرئيسـية في حيـاة سـميرة هانـم، وأي شيء يخـدم هـذه المحـاور مقبـول، وأي شيء يعرقـل أو يعطـل أو يمنـع طبعًـا مرفـوض بشـدة، حتـى لـو كان شـيئًا بسـيطًا ويمكـن تجـاوزه. اسـتعدت لـكل شيء، مَثَـلا لم تسـمح سـميرة هانـم لأيٍ مِـن سـيدات القريـة الـلاتي كُـن يأتـين إلى القاهـرة لقضـاء بعـض الاحتياجـات -وبالرغـم مـن قيـام ثـورة يوليـو- أن يَدخُلـن إلى الفيـلا ويجلسـن في الصالونـات الفرنسـية، فقامـت ببنـاء حجـرة

كبيرة في الحديقة أشبَه بالمَندَرة، لا يوجد بها كرَاسي، وهي مفروشة بالحُصر، وبحذاء الحائط توجد المصطبة، وفي المركز نجد مصطبة عالية تشبِه مصطبة المُقرئ مفروشة بسجادة حرير حمراءَ تكفي لفردٍ بالكاد، صممت لها، بجوار هذه المصطبة الرئيسية نجِد على اليمين واليسار مصطبتيْن أقل ارتفاعًا مِن المصطبة الرئيسية، وأعلى قليلا مِن المصاطب الأخرى، فإذا جاءت سيدات مِن القرية لم تسمح لهن بأن يجلسْن بجوارها، تشير إليهن بمكان جلوسهن حسب تقديرها لمكانتهن الاجتماعية، فهناك مَن تجلس على الحُصر وأخريات على المصاطب العادية، أمّا مَن تُكن لهن بعض التقدير سواءٌ كُنَّ زوجاتٍ أو بناتٍ، هؤلاء الرجال الذين استطاعوا بعد الثورة أن يمتلكوا بعض النفوذ مِن خلال الاتحاد الاشتراكي، أو ممن حصلوا على مراكزَ علميةٍ مرموقة، فكانت تشير لهن بالجلوس على المصطبتيْن المجاورتين لها، د. مصطفى شَعر قليلا بالاستياء في بداية زواجه مِن هذه الصرامة، لكن سميرة أقنعته بأن بنات الأصول يفهمْن الزواج بطريقة تناسب بنات الأصول، أمّا تصوراته هو فهي ليست إلا سلوكيات الناس «الهومَّل» هذا اللفظ الذي ورثته عن جَدتها ذات الأصول الصعيدية، لكنه ما لبث أنِ اعتاد هذه الرؤية، وكانت نجاحاته الدائمة وترقياته في مناصبَ كثيرة، تؤكد له دائمًا صواب زوجته التي كانت دائمًا الدافع والمخطط له، وأصبح مع الوقت تُرضيهِ زوجة بنات الأصول. ما فعلته ناهد كان بالنسبة لهما شيئًا خارج حدود استيعابهما للأشياء، كان شيئًا

خارج التوقعات والحسابات، كل شيء ممكن لأبٍ أو أم أن يتوقعاه مِن ابنهما أو ابنتهما، كل شيء كان في الحسبان، إلا أن يكتشِف د. مصطفى وسميرة هانم أن ناهد قررت السفرَ إلى لبنان، لمساندة الشعب الفلسطيني ودعمِه ضد العدو الصهيوني.

بعد أن تخلصت ناهد مِن الجنين بمساعدة انشراح، التي استدعت لها الداية في منزلها، قضت ناهد يومًا كاملا مستلقية على كَنَبة انشراح، في الصالة الواقعة بين غرفة حَسن وغرفة الأولاد، وتسيطر عليها فكرة واحدة: كيف تقاوم تلك الدولةَ التي اغتصبتها وقتلتْ جنينها؟ سؤال واحد سيطر عليها، لو كان لعدنان أسرة ووطن وهوية، ألَمْ يكُن ليقدر ساعتَها على أن يتزوجها؟ وقتَها لن توجد مشكلة في أن يتقدم لخِطبتها، ووقتَها لن تمانع أُمها. كرهت ناهد إسرائيلَ وتمسكت بفكرة الدفاع عن القضية الفلسطينية، بالرغم من أنها كانت سعيدة جدًّا بالسلام منذ سنوات قليلة، مثل أبيها وأُمها وكل أسرتها، ومع الوقت تماسكت ناهد واستطاعت أن تعود إلى حالةٍ نفسيه شِبه طبيعية، كان طريقها لهذا التعافي انضمامها إلى مجموعات للدفاع عن الشعب الفلسطيني، لكن مصطفى الرزيقي وسميرة هانم لم يعودا إلى حالتهما الطبيعية، فابنتهما الوحيدة خلعت جِلدهما وتفكر وتقرر وتتصرف كأنها لا تنتمي إليهما، ما حدث كارثة تشبِه بالنسبة لهما شروقَ الشمس مِن الغرب، ومِن أين أتى هذا الخلل حتى تنحرف بأفكارها؟ ربما لو كانا علِمَا بأمر علاقتها وجنينها لكان هذا أخفً وطأةً لهما، إنها كأي فتاة مُعرَّضة

لأن يغويها شاب، ستكون أيضا كارثة لكنها كارثة منطقية.

استطاع الرزيقي احتواءها بسرعةٍ وذكاء، وبالرغم من المناقشة الحادة التي اتهمَته فيها ناهد بخيانة الدم العربي، وأنه ليس رجُلَ عدلٍ وقانون كما يدّعي، وأنها للمرة الأولى تشعر بالخِزي لأنها ابنتُه، وبالرغم من قسوة وقْع ما قالته على أبٍ مِن ابنته الوحيدة، فإنه تجاوَز هذا الألم حتى لو ظاهريًا، وتعامَل معها بمنطق زوجته سميرة، حتى يستطيع أن يعيدها إلى السياق العائلي، أما طريقه إلى ذلك فكان مجدي الليموني.

****

مجدي الليموني أحد أقارب مصطفى الرزيقي مِن بعيد، درّس في قرية في محافظة المنيا، كانت بداية دراسته في كُتّاب القرية ثم التحق بالمدارس الأزهرية، وعندما أنهى تعليمَه الثانوي التحق بكلية الزراعة جامعة الأزهر، كان يتردد على أسرة د.الرزيقي بحُكم القرابة البعيدة، بدأ يتقرب من د. مصطفى يَعرِض عليه مساعدته في أي شيء، حتى لو كان حمْل حقيبتِه، يكرر دائمًا أنه قريب للدكتور مصطفى ولكن مِن الفرع الفقير، وإنْ جاز التعبير من الفرع المعدَم في العائلة، يتباهى بأنه عِصامي، تدور كل أحاديثه عن تفوقِه الدراسي، بالرغم من أنه كان يستذكر دروسه على ضوء لمبة جاز، وكيف كان طعامهم الوحيد السريس والجبنة، وكيف عمل في القاهرة مبيِّض مَحارة في أثناء دراسته بالجامعة

حتـى يسـتطيع الإنفـاق عـلى نفسـه، كانـت محـاولات تَقَرُّبـه مِـن ناهـد مسـتميتة، لا تقِـل عـن محـاولات تقربـه مِـن أبيهـا الـذي أدرك هـذا بخبرتـه الكبـيرة في الحيـاة، ولكنـه اعتـبر ظهـور مجـدي في حيـاة ناهـد فرصـة يسـتعيد بهـا ابنتـه، خاصـة أن مجـدي اسـتطاع أن يبهرهـا بنمـوذج الرجُـل العِصامـي الفـارس، كان يحفـظ السّـيَر ويجيـد القَـص ويلقِـي أشـعار الزيـر سـالم وسـيف بـن ذي يـزن، لا تعـرف انـشراح كيـف وقعـت ناهـد في غرامِـه، آمنـت بـه وصدقتـه، أحَبتـه ودافعـت عـن هـذا الحـب أمـام سـميرة هانـم، التـي اعتـبرت أن دخـول مجـدي الليمـوني حياتهـم هـو أكـبر كارثـة حلـت بـأسرة الزيقـي.

****

ظـل الموضـوع الشـائك يشـغَل تفكـير انـشراح، كيـف سـتمُر ليلـة الدخلـة؟ ومـاذا سـيكون رد فعـل مَجـدي، هـذا الشـاب الصعيـدي خريـج الكُتّـاب والأزهـر، عـلى أن ناهـد ليسـت عـذراء؟ كانـت تشـعر بمسـؤوليةٍ غريبـة تجـاه ناهـد، بذلـت جهـدًا ليـس بالقليـل وبـدأت تبحـث في وصفـات نرجـس عـن أي طريقـة تُخفـي بهـا ناهـد مـا حـدث، وجـدت عـدة طُـرق منهـا البالونـة «الأمعـاء المملـوءة بالـدم»، جهـزت الوصفـة واسـتدعت ناهـد، ولكـن الأخـيرة أعلنـت أنهـا ترفـض أن تخـدع مجـدي، وأنهـا قـررت أن تصارحـه بـكل شيء، حاولـت انشراح بشـتّى الطـرُق أن تثنيَهـا عـن عزمهـا:

- يـا ناهـد انتـي بتدمـري حياتـك، حتـى لـو قـال لـك انـه مسـامحك

ووافق يتمم الجواز، انتي هتفضلي عينك مكسورة قدامه وهيفضل يشك فيكي، انتي كده بتسممي حياتكم وبتعذبيه، حرام عليكي نفسك وحرام عليكي الراجل، يا حبيبتي الصراحة مش دايما هي الحل، وبعدين ربنا عارف قد إيه انتي إنسانه نقية، ربنا بيغفر ويسامح ويعذر، لكن البشر لأ.

لم تستجب ناهد لكل ما قالته انشراح، ورفضت بشدة حتى أن تسمع الوصفة، كان إصرارها على أن تصارح مجدي أقوى مِن أي محاولات، وقالت:

إذا رفض أن يتمم الزواج فهذا أفضل لي، أمّا إذا وافق فسأبدأ حياتي بدون غش، حياة أساسها الحُب والصدق.

نظرت لها انشراح بحزن قائلة في سِرها: وماذا يفعل الحب إذا دخل الشك؟

حاولت انشراح أن تساعدها، ولكن بطريقه أخرى، تذكرت وصفه نرجس التي علمتها لهم، لاستخدامها في المواجهات الصعبة، التي تجعل الطرف الثاني عجينة لينة طيعة في يدها، يوافق علي كل ما تريد، فقالت لناهد:

- لو انتي مصممة تصارحيه قبل ما تفتحي الكلام، بُصي له في عينيه، وقولي في سِرك سبع مرات قبل ما تتكلمي «بالصلاة على النبي لقيتك انت النار وأنا الميّة طفيتك» وبعدها افتحي الموضوع.

نظرت لها ناهد برفق مبتسمة قائلة:

- حاضر يا انشراح.

كان لسان حال انشراح يقول -مثلها مثل كل الحاضرين في فرح ناهد مصطفى الرزيقي- كيف تزوجت ناهد بهذا الصعيدي؟ بالرغم من أنها كانت تعلم كيف، فعريسها الذي تأبطت ذراعَه على سُلم فيلتها في المعادي، مرتديةً فستانها الأبيض كأميرةٍ مِن أميرات الأساطير، لم يكُن يشبِهها في أي شيء، ربما لم يكُن قبيحًا بالمعنى المفهوم، لكنه صعيدي قروي تبدو على ملامح وجهه سذاجةٌ وقسوة، وعلى بَشرة يديه خشونة لا تتلاءم مع نعومة ورِقَة اليد المُمسِك بها، شَعره مصفف بطريقة حاول مصفف الشَّعر أن تكون وفقًا لأحدث صيحات الموضة، ولكنها جعلت مِن هذا المجدي شيئًا أقرب إلى تمثال سيئ النسب، كانت اللوحة جميعها مربكة، وعدم التناغم فيها يربِك العين والإحساس.

كانت انشراح تشعر أن ناهد لن تسعد في هذه الزيجة، حاولت كثيرًا إقناعها بالعدول عن هذا القرار مكررة جملة

«يا ناهد، مجدي ده مش لونك»

لكن ناهد أصرت على الزواج بمجدي، رغم رفض سميرة هانم والدتِها، وحيادية د.الرزيقي الظاهرية.

****

في شقة سيد الجديدة في المهندسين، التي لا تقِل مساحتها عن 320 مترًا، انتقلت ليلى للسكن، بعد إصرار سيد على ترك دار السلام، لأن مكانته الاجتماعية الجديدة تحتِّم عليه أن يسكن في منطقة

راقيـة، كـما أنـه يخـاف عـلى طـارق، وهـو في سِـن الشـباب، فقـدْ علِـم سـيد أن طـارق بـدأ في تدخـين البانجـو بالرغـم مـن أنـه كان يعطيـه مـا يكفيـه ليشـتري الحشـيش، كان مِـن المفـروض عـلى انـشراح أن تذهـب لمسـاعدة ليـلى في نقـل الموبيليـا وتنظيـف الشـقة، كنـوع مِـن الواجـب الأسَري، توقعـت انـشراح بالتأكيـد كيـف سـتحاول ليـلى عمـل الممكـن كلـه مـن أحجبـةٍ وبخـور لتحمـي نفسـها مِـن زيـارة انـشراح التـي تـصِر ليـلى عـلى أنهـا ورثـت كل عفاريـت نرجـس وبالرغـم مـن هـذا لا تكـف عـن طلبهـا إذا اسـتدعى الأمـر، كَـم تخـاف اللـومَ إذا امتنعـت عـن الذهـاب، وإذا امتنعـت كيـف سـتستخدم ليـلى هـذا للإيقـاع بينهـا وبـين أخيهـا؟ تعلـم أن ليـلى سـوف تسـتغلها حتـمًا في التنظيـف ونقـل الأثـاث، وتعلَـم أنهـا ينتظرهـا يـوم عمـلٍ شـاق، كَـم تكـرَه إحساسـها وهـي تغسـل الحوائـط، وليـلى تنظـر لهـا بخبـث قائلـة:

- «تسـلم إيديـكي يـا انـشراح، كل حاجـة زي الفـل، بـس اغسـلي البقعـة دي بالكلـور أحسـن لسـه لونهـا أصفـر، وماتنسـيش السـتاير، وقبـل مـا تمـشي اعمـلي حَلـة محـشي لاخـوكي، أصلـه مابيحبـش يـاكل غـير مـن إيديـكي».

دخلـت انـشراح الشـقة الجديـدة، اسـتقبلتها ليـلى كالمعتـاد بالترحـاب المصطَنـع لمـدة خمـس دقائـق، ثـم بـدأت تشـير بيديهـا إلى الشـقة والأثـاث المكـوّم في أحـد الأركان قائلـة:

- «واللـهِ لـولا المـرض لكنـت فرشـتها لوحـدي، بـس اعمـل ايـه؟ أصـل الصحـة مـش مسـاعدة، واخـوكي زي مـا انتـي عارفـة بخيـل،

مش عايز يجيب حد يساعدني»

تتعمد وهي تشير إلى كومة الموبيليا، أن تكشِف عن الغوايش الذهب التي وصل عددها إلى قرابة الثلاثين.

ولا تتوانَى ليلى عن مضايقة انشراح بتلميحات مباشرة أو غير مباشرة، وهي تأخذها في جولة في شقتها الجديدة.

- قبل ما نفرش عايزين نجيب الشيخ عبد الله يرقي المكان ويبخر.. أحسن عفاريت سِتّك ورايا ورايا، طفشتني من كل حتة، بيت المعادي وعمارة دار السلام، وربنا يستر وماتجيش ورايا هنا!

نعَم هذه لعبتها المفضَلة لتحصل على ما تريد ولتقول ما تريد، أحيانًا كانت انشراح تتساءل: هل فعلا ليلى تصدق أن عفاريت نرجس التي ورثتها انشراح كما تردد، تؤذيهم دائمًا، أم أنها تستغل هذه القصة عن عمد حتى تحصل على ما تريد؟ وفي أحيانٍ كثيرة كانت أيضًا تتساءل: هل سيد فعلا يصدق هذه القصص التي تبدو طفولية وساذجة أحيانًا؟ أم أنه ورثَ عن نرجس الحكمة وعن حياة الصبر وأصبح يستجيب فقط حتى تسير الحياة بدون مشكلات؟

هل يُعقَل أن عفاريت نرجس أصدرت قراراتٍ بوجوب اشتراء رُبع كيلو ذهب لليلى كل عام؟ وحددت مواعيد المَصايف ومجاملات الأقارب واشتراء الملابس؟ هل يُعقَل أن سيد يصدق أنه إذا لم ينفذ التعليمات ستبور تجارته ويقِل رزقه؟

****

كانت شقة المهندسين الجديدة بالنسبة لليلى، غُربة تشبه غُربة فيلا المعادي، خاصةً بعد أن تزوجت هدى وأصبح طارق شابًا يقضي معظم وقته مع شلة دار السلام، متخذًا مِن شقة دار السلام مكانًا للتجمع مع أصدقائه لتدخين الحشيش والبانجو، أمّا شقة العجَمي فهي مكان للمُتَع الأخرى، ونادرًا ما كان يعود للمنزل مبكرًا، لم تتحمل ليلى هذه الغربة المفاجئة في المهندسين، وأصبحت تقضي معظم وقتها في باب البحر، حيث مولدها بحَي باب الشعرية، كانت ليلى مِن مُريدي الشيخ الطشطوشي، وتدَّعي أن جَدها كان مِن سالكي الطريق وأهل الخُطوة، وأنه كان يقيم حلقاتِ الذْكْر كل ثلاثاء في بيته، حيث هتاف الذاكرين الهائمين، والليالي الربانية، ورائحة المسك والبخور والصندل وماء الورد، والتسبيح في فضاء وردي معطر على إيقاع ألفاظ الجَلالة «الله... الحي... القيوم... الواحد... الأحد... القهار... اللطيف...» وهي الأجواء التي جعلتها مدوامة على الحَضرة في باب الشعرية، مرة في الأسبوع، وبما أن ليلى مِن مُريدي الشيخ الطشطوشي، فقدْ كانت متعتها في زيارة الطشطوشي لا تعادِلها متعة، وذات مساء وبعد مقاطعةٍ طويلة فوجئت انشراح بليلى تطلب منها زيارتَها في باب البحر.

كنت أعلم يقينًا أن هناك ما تريده، فهي لا تكسر المقاطعة إلا إذا احتاجت شيئًا عجزتْ عن تنفيذه بمفردها، وما أن وصلت إلى منزل أُمها في باب البحر حتى فاجأتني:

-ما تيجي معايا نزور الطشطوشي

لم يكن عندي مانع بالطبع، وهناك قالت لي ليلى:

- إيه رأيك أجوّز طارق؟

فاجأتني، فطارق ما يزال صغيرًا نسبيًا:

- طارق؟ ده لسه ماكملِش اتنين وعشرين سنة، وكمان ماكملش تعليمه!

- اتنين وعشرين سنة راجِل يا انشراح، وهو كده كده مش فالح في التعليم، شهادة إيه؟ هو هيشتغل مع ابوه في الورَش والمصانع والمعرض، وبصراحة أنا لقيت له عروسة، حِتة بِت قمر، وجمالها يحل من على حبل المشنقة، وأهم من ده كله ببركة الطشطوشي.

- إيه؟ عروسة ببركة الطشطوشي؟ أول مرة أسمع حاجة زي دي، يعني إيه؟

- أمها بتخدم هنا في الجامع، وولدتها هنا، جالها الطلق وهي في الشغل، خدت جنب وولَدت نفسها، أُمها بتحكيلي وبتقول لي ماعرفش ازاي ولدتها، ولا وجع ولا ألم، ده حتى بعد الولادة أنا اللي ربطت لنفسي، وحتى إسمها، الشيخ الطشطوشي هو اللي اختاره، حسيت بحاجة بتقول لي بنتك منال.

كانت المهمة التي استدعتني لها ليلى هذه المرة، هي إقناع طارق بالزواج بمنال، ولكن في الحقيقة لم أساهِم بأي دور، فبمجرد أن رآها طارق، وقع في غرامها ووقعت هي أيضًا في غرامه.

تفنَّنت ليلى في التخطيط لليلة الفرح، أضاءت بوابات الأنوار ميدانَ باب الشعرية، وامتدت حتى باب البحر ثلاثَ ليالٍ، نُصبَت الفراشة

فكانت مكبّرات الصوت تدق بالأغاني بينما أقاموا منصة رئيسية سمحت لشباب المنطقة بالرقص، وقام الحاج سيد بذبح الذبائح وتوزيعها في باب الشعرية والسيدة زينب، حيث ورشته الأولى التي اعتبرها ورشة حظِه وتمسَّك بها حتى وفاته، وفي الدرب الأحمر والكلحة كانت أعداد الذبائح أسطورةً يتحاكى بها الناس، وبالغوا حتى قالوا إنه ذبّح ألف عِجل، أقام أيضًا الحاج سيد فراشة للطبّاخين تطعِم أهالي باب الشعرية ثلاثةَ أيام، أمّا ليلة الفرح نفسها فكانت حقًا أسطورة أخرى لسُكان باب الشعرية والطشطوشي، رأت أعينهم ما لم تَرَه مِن قبل مِن أنواع السيارات ومشاهير التجار والمعلمين، وبعض نجوم الفن الذين حضروا لمجاملة الحاج سيد عويضة، الذي أصبح في التسعينات مِن أهم صُنّاع الأثاث في مصر، ويصدره إلى ألمانيا، إضافة إلى معارِض السيارات ومعارِض الموبيليا. كان سرادق الفرح ممتدًا على مساحة نِصف فدان، البيرة والحشيش والمزات لم تنقطع مِن على الطاولات فقد أمرَ الحاج سيد أن يوزِّع هذا الواجب على الجميع ، وكما كانت الطاولات عامرةً بِكُل أنواع الكيف كانت خشبة المسرح عامرة بعدة دِسَت مِن الراقصات الشعبيات، يرقصن على غناء أشهر مُطربي مِصر ،يتناوبن الرقص دَستة تحل مكان الأخرى، وقد تم انتقاؤهن لكي يناسبن جميع الأذواق، السمراء النحيفة، والبيضاء الممتلئة لهواة الشحوم والتي تنبئ ثناياها عن حالةٍ مِن الامتلاك، والقصيرة والطويلة، وذوات الصدور وأخريات من ذوات الأرادف، حتى ملابسهن تنوعت، فمنهن مَن ترتدي الجلابية

البلـدي المثـيرة، ومِنهـن مَـن ترتـدي بَدلـة الرقـص التقليديـة، ومِنهـن مَن ترتـدي طقـم الملابـس الداخـلي مُغطـىً بجلبـاب لاصـق مِـن الشـبيكة، ومِنهــن مَــن ترتــدي الجيــب القصــيرة كبِنــات المَــدارس، ومِنهــن ذات الشَّـعر القصـير، وأخـرى شَـعرها طويـل كشَـعر الخيـل، وذوات الشـعر الأسـود والشـقراوات، حتـى رقصاتهـن كانـت كفريـق عمـل محـترِف، مِنهـن مَـن تجيـد الإثـارة بشـفتيها وعينيهـا، وأخـرى بصدرِهـا، وأخـرى بأردافهـا، وأخـرى برفـع الجلبـاب حتـى تُظهِـر مـا بـين سـاقيها، أمّـا وجوهــن فكانــت أيضًــا مختلفــة، فهــذه صاحبــة الوجــه الغَجــري ذات الملامـح الأنثويـة الشرسـة والتـي تدخلـك في تحـدٍ، وأخـرى ذات وجـهٍ يـدل عـلى خـبرة متقَنـة تؤكـد لـك أنهـا كفيلـة بـكُل شيء، وأخـرى ذات وجـهٍ بـريء كطفلـةٍ تخطفـك ببراءتهـا وتدفعـك لاحتوائهـا، ورابعـة تنبـئ عـن وقاحـةٍ لامتناهيـة لمَـن سـئِموا الحيـاةَ المحترَمـة. لم يكتـفِ الحـاج سـيد بالمنصـة الرئيسـية، فكانـت هنـاك أيضًـا عربـات الحَـظ وراقصـات المقطـورة الـلاتي اشـتهرن بفجورِهـن المطلَـق، والـلائي جُهـزْنَ خصيصًـا لملـوك النعمـة البيضـاء.

أمّـا النسـاء والفتيـات فقـدْ اعتلـين خشـبة المـسرح في منافسـة حاميـة مـع الراقصـات، خـسرت فيهـا الراقصـات بـكل احترافهـن أمـام الأنوثـة العفويـة الطازجـة لفتيـات بـاب الشـعرية.

ليلـة حَسـدت فيهـا كلُّ بنـات بـاب الشـعرية منـال ابنـةَ خادمـة الطشـطوشي عـلى حظهـا الوافـر، خاصـةً بعـد أن قامـت ليـلى بتقديـم خمسـة كيلوجرامـات مِـن المصوغـات الذهـب لابنِهـا طـارق كشـبْكَة

ليهديها لعروسِه أمام المعازيم، وقد استغرق تلبيس الشَّبْكَة حوالَي نِصف ساعة!

كانت ليلة وافرة اختلط فيها الهواء بروائح المتعة والشبَق، واختفى فيها كل شيء تحت الشبورة البيضاء.

انتهى الفرح واختفت ليلى كعادتها، وبدأت المقاطَعة مرة أخرى، حتى التليفون لم تعد ترد عليه.

أحداث كثيرة تأرجحت فيها علاقة انشراح وسيد، أو بالأحرى انشراح وليلى، منذ زواجها بسيد ما بين الرضا والجفاء والقُرب والبعد، حاولت فيها انشراح أحيانًا أن تخلق ما يمكن أن نسمّيه باللفظ الشائع في هذه الأيام «التطبيع» وكما كتبت في مذكراتها:

«حاولتُ أن أُحِب ليلى مِن أجل الإبقاء على سيد، كَم هو لعين أن تتحمل غريبًا يحول بينك وبين شريكك في الرَّحِم»!

ما هو المنطق الذي يجعل ليلى أقربَ إلى سيد مِنّي؟ وما هو المنطق الذي يجعل لليلى كل الحق في أخي؟ كلمة واحدة لو قالها سيد لأصبحت ليلى غريبةً، أمّا أنا فكلمات العالَم لن تمحينَي مِن حياته. كنت أحيانًا أحاول أن أكون صريحة مع نفسي، وأعترف بأن كُرهِي لها هو غَيْرة مِن تلك المرأة التي انتزعت مِني أول رجُلٍ في حياتي، فمبجرد ظهورِها في منزلنا لم أَعُد أنام بجواره كما تعودتُ، لم يعُد يعود من عملِه ليحكي معي، ولم يعُد يُقبّلني أنا، حتى هداياه الصغيرة أصبحت لليلى، حاولت أن أقنِع نفسي بأنها لم تكُن شريرة كما تصورتُ ولكن لم أستطع، في الحقيقة هي مَن زرعت كل هذه

المشاعر داخلي، هي من قررت أن تبدأ بالاستحواذ عليه، كانت تتعمد ألا تعطي لي فرصةً أن أتحدث معه على انفراد، كانت كثيرةَ الشكوى مِني له، فلم أعُد أرى منه غير القسوة والتوبيخ، كانت تعاتِبه كثيرًا إذا ما فكَّر في أن يشتري أي شيء لي، بحُجة أنهم في احتياج لأي قِرش، هل كان سيد ساذجًا لهذه الدرجة فلم يستطِع أن يوازِن بين حبِّه لي كأختِه وبين استحواذ زوجتِه؟ نَعَم خذَلَني سيد وكان أول الخذلان الذي لم ينتهِ، خسرت معركتي من أجل أن أحتفِظ بجزء مِن اهتمام أخي، ولم يكُن أمامي إلا طريقٌ واحِد حتى أحتفظ به في حياتي، ألا وهو الرضوخ لليلى ومجاملتها وتحمُّلها وتنفيذ طلباتها، أول إحساس بالقهر كان أمام هذه السيدة، القهر الذي لازمَني سنواتٍ طويلة وتزداد وطأته كلما حاولت التقربَ مِن سيد حتى في أبسط الأشياء، وكان رده دائمًا «زي ما ليلى تقول»! أحيانًا كنت أشعر برفضي لكل هذا القهر وأقرر أن سيد غير مهمٍ بالنسبة لي، وأقرر أن أقاطعهما فلا أجد أي صدىً غير سعادة ليلى في تخلُّصِها مِن غريمتها الأولى في قلب سيد، استطعت أن أقاطعهما أعوامًا تتخللها زيارات رسمية معدودة، ولكن حتى المقاطَعة لم تُرِح قلبي ولم أنْسَ أن سيد خذَلَني، حتى عندما ماتت حياة وبعد أن دفنّاها عند المقابر وأقفِل عليها اللحد، وقتَها انهَرْنَا أنا وهو في البكاء وارتميتُ في حضنه قائلة:

- أمك ماتت يا سيد

شعرتُ بحنانه الذي افتقدتُه سنواتٍ، أخذني في حضنه، كان هو أيضًا يبكي بحرقة:

- أمنـا ماتـت يـا انـشراح، حيـاة ماتـت، ماتخافيـش يـا انـشراح أنـا جنبـك، إحنـا مالنـاش غـير بعـض.

نظـرتُ إليـه وقلبـي يرقـص مِـن الفرحـة أخـيرًا سـيد شـعَرَ ببُعـدي واحتياجِـه لوجـودي في حياتـه

لم أكَد أستشعِر طعمَ الفرحة حتى أكمل جملتَه:

- ماتبعديش كده خليكي قريبة مني بس مِن خلال ليلى

وقعـت الجُملـة عـلى مسـامعي كصدمةٍ أنسـتني مـوت أمـي، تلجلجتُ وسـألته بمرارة:

- إزاي يعني أقرب منك من خلال ليلى؟

فكان رده في منتهى البرود:

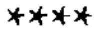
- يعنـي حـاولي تحسّـني علاقتـك بيهـا، دي بتحبّـك وبتعتـبرك اختهـا الصغـيرة

وقتَهـا أدركـت أن سـيد أخـي الـذي أحببتـه لم يعُـد لـه وجـود، حتـى في أشـد اللحظـات حميميـة وخصوصيـة، حتـى وأنـا في حضنـه وجـدتُ ليـلى تقِـف بيننـا..

لم أعُـد أشـعر بالقهـر مـن ليـلى ولا بالغَـيْرة ولا بالمَـرارة، لم يعُـد هنـاك أصـلا سـبب لـكل هـذه المشـاعر، فلـم يعـد هنـاك سـيد أصبحـت ليـلى بالنسـبة لي هـي وأسرتهـا مجـرد علاقـة أسَريـة عابـرة، نسـيتُ سـيد أو بالأحـرى تناسـيته، ولكـن مـع الوقـت بـدأ طـارق وهـدى في التقـرب لي، فأنـا عمّتُهـما التـي يحبـانِ الـكلام معهـا، فأنـا التـي تجهـز لهـما الفطائـر، ويحبـان زيـارتي فأقـرأ لهـما الفنجـان، ويستشـيرانني في مسـائلهما

العاطفيـة، حتـى استشـعرت ليـلى ارتباطهـما بي، وأخـذت في تحذيرهـما وتخويفهـما مِنـي، فبـدأتْ معاملتهـما تتغـير معـي تدريجيًـا حتـى وإن لم يُظهِـرا هـذا صراحـة في بـادئ الأمـر، ولم يلبثـا أن أخـذا يمتنعـان عـن الأكل والـشراب عنـدي، لخوفهـما مِن أننـي ربمـا أكـون وضعـت لهـما أي وصفـة سـحرية، ثـم مـع الوقـت بـدآ يُقلـلان مِـن زيـارتي، ولكـن هـذا لم يمنـع مطلقًـا ليـلى أن تحسّـن علاقتهـا بي إذا احتاجـت وجـودي في شيء مهـم مِـن وجهـة نظرهـا، وتَعَـسّر عليهـا تحقيقـه بمفردهـا، فمَثَـلا عندمـا قـررت هـدى ابنتهـا أن تتـزوج أحـد أبنـاء الجـيران، ولم تسـتطِع أن تقنِعهـا برفضـه، بـدأت في الاتصـال بي ودعـوتي، مُمليَـةً عـليّ بـكل وضـوح مـا تريـد منـي أن أقولـه لهـدى، وبمـا أن الجميـع يعتقـد في قـدراتي الخاصـة، سـيكون مِـن السـهل أن أقـول لهـدى إننـي رأيـت هـذا الشـاب في المنـام وأصِفـه لهـا وأبلغهـا مَثـلا أن المنـام حـذّرَني مِـن ارتباطهـا بـه، أو أسـتدرجها في قـراءة الفنجـان وأبـدأ في تلقينهـا كل مـا تريـده ليـلى، حـدثَ هـذا كثـيرًا، أحيانًـا أسـتجيب لهـا ومـرات أكـثر أتهـرب مـن تنفيـذ مـا تريـد بطريقتـي.

وهـا هـي الآن تمـارس مـا تعـودت عليـه، فبعـد أن أتمـت زيجـة طـارق اختفـت، ولا أحـد يـدري أي سـبب سـتفتعل هـذه المـرة للمقاطعـة.



- 8 -

لم تكُن هناك آلام في العالَم تساوي آلامه في هذه اللحظة، لقد وجد الحب الذي بحث عنه طيلة حياته، ولكن ما كل هذا العذاب؟ شَعر للحظة أن الحب هو أكبر وأقوى شيء في العالَم ولا يوجد ما هو أقوى منه، حتى تلك اللحظة التي استدعاه فيها أبُ اعترافِه وطلب منه أن يتخلى عن حبّه، اكتشَف أنه لا يقدر إلا أن يقول نَعم.

وقف أمام المرآة التي طالما تخايلَ أمامها، وللمرة الأولى يشعر أنه شديد الضآلة، لم يشفع له هذا الطول الفارع والجسد العريض، والحنجرة التي كانت ينطق منها صوتٌ جبلي يجعل كل مَن أمامَه صاغرًا. نَعم إنه ضعيف الآن ولا أحد سِواه يدرك مدى ضعفه، أخذ يتساءل: هل هو ضعيف أمام الأب أم أمام الرب أم أمام الحب؟ كل هذا لا يهم، المهم أنه ضعيف.

لا، لا بد أن يعرف أين نقطة ضعفه، لا بد أن يقضي عليها، لم يعتد الضعف ولن يقبله، ولكن هل بإمكانه أن يثور؟ على ماذا؟ على الحب؟ ولماذا يثور على الشيء الوحيد الذي أسعد حياته؟ على مَن إذَن يثور؟ على الرب؟ مستحيل! وقد كَبِر على عبادة الرب ويعيش بمباركة الرب.

نَعَم إنه الأب هو مَن يستطيع أن يثور عليه، ولكن كيف يثور

على مَن يطبق تعاليم الرب؟

لن يعيش بهذا الألم، لا بُد مِن حل، لم تهزمه الأشياء ولا الأعراف، كان دائمًا أقوى، ولكن كان هذا الإحساس والثقة أن الرب معه هو سبب قوته، ماذا يفعل الآن وقد تخلى عن الرب؟ مِن أين يأتي بهذه القوة التي عاش بها عمره كله وكانت سندًا له؟ نَعَم إنه الحب... الحب هو القوة الجديدة التي سيعيش بها، ولكن هل تستطيع قوة الحب أن تعوض قوة الايمان؟ كاد رأسه ينفجر، لم يملك إلا أن يبكي بحرقة كالأطفال الصغار أمام أيقونة العذراء، التي وضعها على الحائط أمام مكتبه حتى يتبارك بها، تاه مِن شدة الألم، مُلِئت عيناه غشاوة عجيبة، رأى نفسه كأنه يَخرج مِن جسده يركع أمام الأيقونة، بينما هو ظَل واقفًا ينظر إليهما بتساؤل غريب وتشكُّك، نظر مِن أعلى إلى هذا الراكع، كَرِه خنوعَه، قرر التخلص منه، أحكَم قبضته وقرر أن يهوي بها على رأس هذا الراكع تحته، لا، بل الأفضل أن يأتي بسيف يهوي به على رقبتِه ليُفصَل رأسُه عن جسده فتقع على الأرض، وتتكور لتجري صارخَةً مِن خارج الغرفة، فتعبُر الطرقاتِ وتذهب إلى غرفة أبِ اعترافه بالكنيسة مليئةً بالدماء... هل تكفي قربانًا؟ حاولَ أن يجري إلى غرفة والدِه ليأخذ السيف، ولكنه اكتشف أنه وهذا الراكع لهُمَا نفس الساقينِ، وجذعانِ، جذع مُنْحَنٍ راكعٌ وجذع آخر يقف أمام العذراء متشككًا، كانت ساقاه مثبتتيْنِ، حاول أن يخلعهما بقوة لم تتحركا، كانت المسامير التي دُقت بهما أقوى من أن يستطيع تحريكهما سنتيمترًا واحدًا.

نظـر إلى العـذراء، اختلطـت ملامحهـا في عينـه، فلـم يعُد يرى هـذا الوجه الـذي اعتـاد أن يـراه منـذ الطفولـة، تغـيرت ملامحهـا كثـيرًا فإذا بهـا بشرتها سـمراء، عيناهـا واسـعتان سـوداوان، رموشـها طويلـة، أنفهـا إفريقـي، حتى شـفتاها مكتنزتـان محددتـان يَعـرف طعمهـما، لقـد ذاقهما مِـن قبل.

اسـتدار الراكـع، رفـع رأسـه ونظـر إليـه نظـرةً ازدراءٍ، كيـف تُسـوِّل لـه نفسـه أن يـرى وجـه غـادة الحقـيرة التـي سـتُخرِجه عـن دينِـه بـدلا مِـن وجـه العـذراء؟

لم يتحمل نظرة الاحتقار التي وجَّهَها له هذا الراكع، عنَّفَه قائلا:

«لم يبقَ إلا أنت أيها الراكع الذليل لتنظر لي هذه النظرة!»

انحنـى بـكل مـا فيـه مـن قـوةٍ وعُنـف يـضرب هـذا الـسرابَ الراكـع حتـى يقتلـه، كان الراكـع يقاومـه بشـدة، اشـتد بينهـما الـصراع، ضعفـت مقاومتـه حتـى وقـع مغشـيًا عليـه.

كانـت الفرصـة مواتيـةً لانـشراح أن تتقـرب مِـن عـادل باشـا، كـما كان يناديـه الجميـع، كان قـرارًا صعبًـا جـدًا وهـي في منتصـف الأربعينات من عمرهـا، ولكـن لم تكُـن هنـاك حلـول بديلـة بعـد أن انقطعـت المعونـات التـي كان يعطيهـا سـيد لانـشراح، فقـدْ افتعلـت ليـلى مشـكلة كانـت نتيجتهـا أن مُنِعـت انـشراح مـن دخـول منزلهـا، وحرمـت عـلى سـيد مسـاعدة جميـع أخواتـه بمـن فيهـن انـشراح، وحتـى القليـل الـذي كانت تكتسِـبه مـن خياطـة الملابـس لجيرانهـا، لم يعـد قـادرًا عـلى المنافسـة بعـد فتـح بـاب الاسـتيراد وانتشـار الجاهـز بالأسـواق، وأصبحـت مهنـة الخياطـة مهنـة بائـدة، كَـبِر أولادهـا وأصبحـت مصاريـف التعليـم فـوق

طاقتهـا، لكنهـا سـتفعل أي شيء حتـى يكملـوا دراسـتهم.

لم تكُـن تتخيـل يومًـا أن تمـشي في هـذا الشـارع الضيـق وتجلـس وسـط كومـة مِـن النسـاء في مكتـب مخدمـاتي، تقـف في طابـور للعـرض لتختارها سـيدة أو رجُـل كـما كان يحـدث في زمـن النخاسـة، لكـن العمـل أشرفُ مِن التسـول، الـشيء الوحيـد الـذي حرصـت عليـه ألا يعـرف أحـد مِـن أهلهـا أو جيرانهـا أو أبنائهـا أو حتـى زوجهـا، أنهـا الآن تعمـل خادمـةً في البيـوت.

بـدأت انـشراح حياتهـا الجديـدة خادمـةً في منـزل والـدة عـادل هيـدرا، الأسـتاذة إيفـون جرجـس، شيء مـا في هذا المنـزل يجعلها تشـعر بالارتياح، أم هـو إحسـاس بحريتهـا وتخلّصهـا مـن عجرفـة ليـلى واحتياجهـا لهـا؟ هـي الآن تعمـل وتتقـاضى أجـرًا عـن عملها غـيرَ منتظـرةٍ الصدَقـة، ورثت انـشراح عـن أمهـا كثـيرًا مـن مبـادئ التمريـض، وبالرغـم مـن أن عملهـا الأسـاسي كان تنظيـف المنـزل، فـإن معرفتهـا ببعـض مبـادئ هـذه المهنـة جعلهـا تتقـرب مـن السـيدة إيفـون وتحصـل عـلى احترامهـا.

عندمـا وقـعَ عـادل مغشـيًا عليـه لم تسـتطِع السـيدة إيفـون الجليسـة أن تُسـعِف ابنَهـا، قامـت انـشراح برعايتـه، أدركـت بإحساسـها أن مـا حـدث لعـادل باشـا لا يمكـن إلا أن يكـون حُبًـا، فهـذا الهذَيـان وذاك الألم ودرجـة الحـرارة المرتفعـة تلـك لعـدة أيـام، مـا هـي إلا أعـراض حُمّـى حُـبٍ أكيـد، لقـد تملّكتهـا الحُمّـى نفسـها عندمـا سـمعت الزغاريـد في الشـارع وعرَفت أن إبراهيـم تـزوج، ولكـن مَـن هـي تلـك التـي تهجُـر مثـل عـادل باشـا؟ إن وسـامتَه تفـوق وسـامةَ نجـوم السـينما، طولُـه، شَـعرُه الناعـم الكثيـف، عينـاه الواسـعتان، صوتـه الجهـوري القـوي الـذي يُشـعِر أي امـرأة مهـما

كانت بالأمان، نفوذه الذي يعطيه هيبةً فوق هيبتِه وقوةً فوق قوتِه وسُلطةً تجعل أي امرأة تشعر بأن العالَم بين يديها. جلست انشراح بجوار عادل تداويه بالكمّادات وهو يهذي: غادة... غادة.

تُطالِبها الأم بلهجة حاسمة أن ما يقوله في ساعات هذيانه وأن ما سمعته وما حدث، لا يَجِب أن يعرفه أحد.

يرن التليفون، تقوم الأم بإغلاق الخط، تكرر هذا عدة مرات، انشراح تقرر المجازفة، في إحدى المرات وبينما السيدة إيفون في غرفتها، ترد انشراح على التليفون وتبلّغ غادة أن عادل باشا عنده حُمّى، وأنها إذا أرادت أن تطمئن عليه فمِن الأفضل أن تعاود الاتصال بها على رقم تليفونها في الكلحة، وقد أملتها إياه.

وهكذا تحولت انشراح إلى رسول غرام بين عادل هيدرا، سليلِ أغنى وأعرق العائلات المسيحية في مصرَ، وحبيبتِه غادة.

لم ترفع عينيها عن التليفون في انتظار المكالمة، مشاعرها ممتلئة بالذكريات المُرة عن الحُب والانتظار.

هل ستأمَن لها غادة وتتصل بها؟

أشفقتْ على عادل باشا هيدرا، وعلى هذه الغادة المجهولة لها، والتي لا تعرف عنها شيئًا غير أنه يَهذي باسمِها.

أكيد غادة حبيبته، وربما لا!

أتراها أخطأت فيما فعلت؟

****

ليس بعيدًا عن منزل انشراح في الكلحة، حيث أكوام الزبالة والبيوت التي تشبِه العشش تعلوها أطباق الدش، وتشكل حاجزاً بين المئات المكدسين فوق بعضهم البعض وبين السماء، في هذه الشقة المتواضعة في حَي المنيل تسكن غادة.

وافقت غادة على مقابلة انشراح بعد إلحاح منها، اقتربت انشراح من العمارة وكلها استغراب، هل يُعقَل أن تكون غادة التي أحبّها عادل باشا تسكن في هذه البناية المتواضعة؟

فتحت غادة البابَ قائلة بلهجة تكسوها اللامبالاة:

اتفضلي..

هكذا هُيّئ لها، غادة لا يتجاوز عمرها الثلاثين لكنّ تعبيراتِها وأداءها يعطيان إحساسا بأنها شخصية مسؤولة، شقة غادة نظيفة ولكن غير مرتّبة، لا توجد آثار للتراب على الطاولات، ولا توجد بُقَع على قماش الصالون، لكن ألوانه مختلفة عن المعتاد، الشقة صغيرة بشكل واضح، ما صعَبَ على انشراح استيعاب كل اللوحات المعلقة على الحائط ... ماذا تعني؟ وإلامَ ترمز؟ وقعت عين انشراح على صورة أعادت بها الزمنَ إلى الوراء حوالي ثلاثين عامًا، لا تتذكر اسمَ هذا الشاب منسدل الشَّعر الذي يلبس طاقية، فقدْ كان الطلبة يحملون هذه الصورة في مظاهراتِهم في أواخر الستينات، عندما كانت تذهب مع إبراهيم إلى الجامعة، لقد خانتها الذاكرة، كانت تعرفه جيدا وتعرف اسمه، مرت أعوام كثيرة لم تعد تتذكر أي شيء مما كانت تعرفه أو تقرأه، لم تعد تقرأ إلا الفنجان.

ما علاقة غادة بإبراهيم؟ لكنها شعرت بالألفة في هذا المكان، سألتها غادة:

- تحبي تشربي فنجان قهوة؟

أجابتها انشراح:

– ماتتعبيش نفسك، تسمحي لي أساعدك وأعمل أنا القهوة؟

- لا شكرا، أنا باحب أخدم ضيوفي بنفسي

عادت غادة بالقهوة سريعًا، أشعلت سيجارة وعزمت على انشراح بسيجارة أخرى بعد أن سألتها: بتدخني؟

لفَتَ نظر انشراح أنها تدخن نوع السجائر نفسه الذي تدخنه هي، السجائر الشعبية «كليوباترا».

ساد المكانَ جو مِن الصمت المتوتر

قررت غادة أن تنهي هذا الحرجَ قائلة:

- حابة تتكلمي بخصوص عادل، إيه المطلوب؟

لم تفهم انشراح مشاعر غادة، هل تورطتْ وتسرعت في طلب هذه المقابلة؟ هل يمكن أن تكون فهمتْ خطأ؟ وإذا كانت قد أساءت الفهمَ لماذا اتصلت بها غادة؟ استجمعت قواهَا واسترجعت طريقة تعاملها مع الأشياء عندما ترتبك وتعجز عن الفهم، «الصمت»، كانت عيناها تجوبان بحثًا عن فنجان غادة المقلوب الذي كان قاسمًا مشتركًا في حياة كل النساء اللاتي أعياهُن الحُب.. لكنها لم تجده.

غيَّرت انشراح الحوار ناظرة إلى الصورة سائلةً غادة:

- أنا ناسية اسم صاحب الصورة دي، بس كنت باشوفها في مظاهرات

الجامعة في أواخر الستينات، أكيد انتي كنتي لسه ماتولدتيش.

تغيرت لهجة غادة، سألت انشراح باستغراب:

- هو انتي كنتي في الجامعة في مظاهرات الطلبة سنة تمانية وستين؟ يبقى انتي أكيد كنتي زميلة بابا...

أجابتها انشراح:

- لا أنا ماكملتش تعليمي، بس أنا كنت باروح الجامعة زيارات مع أصحابي.

ارتبكَت انشراح أيضًا، فقد أدركت أن والد غادة أكيد كان زميلا لإبراهيم، وأكيد يعرفه وربما كان مِن شِلة إبراهيم التي تعرفها هي، ودّت لو سألتها عن اسم أبيها، تمنّت لو استطاعت مقابلتَه لتسأله عن إبراهيم. نظرت إلى غادة قائلةً في سرها: «يعني غادة دي كان ممكن تبقي بنتي أنا وإبراهيم».

أعادت انشراح السؤال: اسمه إيه؟

أجابتها غادة: تشي جيفارا

استطردت غادة: إزي صحة عادل؟ هو بخير؟

أجابتها انشراح:

- الموضوع صعب قوي، هو بيمر بحالة نفسية شديدة جدا، بيتصارع مع نفسه ويُتهيأ له انه شخصين، يفضل طول الليل في حالة صراع مستمر تنتهي انه يبكي بهيستريا.

سكتت لوهلةٍ ثم أكملت: على فكرة عادل باشا بيحبك بجد، وأنا حبيت اطمنك عليه.

بطريقة مباغِتة سألت غادة انشراح: انتي ليه مهتمة بعادل؟
لم تُعطِها فرصة للإجابة واستكملت حديثها قائلة:
- انشراح، انتي متعرفيش عن علاقتي بعادل كتير، علاقة معقدة جدا ولكن مشاعري ناحية عادل وبالرغم من كل التعقيدات علاقة قوية، وأنا اتمنى اني أساعده لحد ما تنتهي الأزمة اللي بيمّر بيها.
شعرت انشراح أنه ليس ثمّةَ داعٍ لاستكمال الحوار، وأن المقابلة انتهت، لم تفهم الكثير مما جرى، كما لم تفهم شقة غادة وكل مفروشاتها وكل ديكوراتها البسيطة الغريبة العميقة، أكيد مثلها مثل صاحبتها، استوعبت انشراح لماذا عشِقَها عادل، فهي نموذج مختلف عن كل النساء التي قابلتْهُن في حياتها، حتى ملامحها لا تشبِه أحدًا، جَمالها أخّاذ دافئ غجري على استحياء، نموذج أصاب انشراح بكثير من الارتباك والرغبة في التقرب منه، ودّت انشراح أن تسألها عن أبيها، ودّت حتى لو أمكن لها لقاؤه، هل مِن الممكن أن يكون والد غادة ما يزال صديقًا لإبراهيم؟ وهل مِن الممكن أن ترى إبراهيم؟ تمنّت لو حكت لغادة عن إبراهيم، ولكن غادة كانت لطيفةً بِجَفاء، قريبة ولكنها تُشعِرك بآلاف الحواجز، ما أربك انشراح وجعلها لا تتوقع أن يكون هناك لقاءٌ ثانٍ.
خافت انشراح أن تحكي غادة لعادل عن مبادرتها وزيارتها لها، فقررت أن تصارحه هي بنفسها، اعترفت له أنها سمِعته وهو يهذي باسم غادة وأنها أخذت رقمها وقامت بالاتصال بها وزيارتها، لم يَثُر عادل كما توقعت بالعكس تعلّق بانشراح تعلقًا غريبًا، فكانت

بالنسـبة لـه طـوْقَ نجـاةٍ لغريـق، فهـي الوحيـدة التـي لا تعارضـه، الوحيـدة التـي لا تتحـدث بالعقـل، إنهـا الإنسـان الوحيـد الـذي يفهـم مشـاعره، كان يعشـق جملتَهـا البسـيطة «كلنـا ولاد ادم وحـوا، وربنـا واحـد رب المسـلمين هـو رب النصـارى، وبعديـن يعنـي لـو كان الحـب بيفـرّق، كانـت النـاس حبّـت بالبطايـق»

أصبحـت انـشراح أقـربَ النـاس لعـادل، فهـي الشـخص الوحيـد الـذي يسـتطيع أن يتحـدث معـه عـن غـادة فـكان يحادِثهـا بالتليفـون سـاعات طويلـة كل يـوم مِـن مكتبـه، وأحيانًـا كثـيرة يمُـر عليهـا في منزلهـا في تلـك المنطقـة الشـعبية، ليجلـس إليهـا ويتحـدث معهـا عـن غـادة، لم يعـترض حسـن عـلى وجـود عـادل هيـدرا، ولم يسـأل حتـى بجديـة مـن هـو ومن أيـن عرفتـه انـشراح. أقنعتـه بسـهولة إجابتهـا السـطحية، فدائمًـا هنـاك أشـياء وأشـخاص فـوق القانـون والعـرف، دائمًـا يوجـد هـؤلاء المسـموح لهـم بـكل شيء.

أصبـح عـادل يعشـق جلسـتَها وحديثهـا كعشـقّه لغـادة التـي امتنعـت تمامًـا عـن الـرد عـلى تليفوناتـه، مكـرّرًا عليهـا آخـر حـوار دار بينَـه وبـين غـادة حتـى حفظتـه انـشراح كلِمـةً كلِمـة وحرفًـا حرفًـا.



- 9 -

كانت غادة تتنقل بانسيابية شديدة بين حجرات هذا المنزل الواسع، الكائن على أطراف المدينة الباردة، التي كسا الثلج طرقاتها وواجهات منازلها، تطل خلف نوافذه أشجار سيدج البرتقال المميزة بثمرتها الخضراء كبيرة الحجم ولحائها النحاسي اللون ذي الشقوق المستقيمة. ترتدي فستانا أحمر مزينة ياقته بكوريشة ناعمة من اللون ذاته، حتى دخلت غرفة كبيره تمتلئ جدارنها بلوحات وتابلوهات متنوعة، كان مشهدا غريبا الغرفة مكدسة باللوحات والكتب القديمة على أرفف خشبية ولكنها تخلو من الأثاث، أرضياتها مغطاة بحصر عليها أشكال سداسية وثمانية الأضلع من الأصفر الفاقع والأحمر القاني، وجدت نفسي معها في نفس الغرفة، وكلانا لا يشعر بالبرودة، برغم عدم وجود أي مدفئات، وفجأة سألتها:

- تعرفي يعني إيه فيريل:

ابتسمت وكررت فيريل... فيريل، ثم سألتني من أين لك فيريل؟

أجبتها بهدوء كأنني أقرأ مِن كتابٍ قديم محفورة صفحاته في ذاكرتي:

«كنت صغيرة في الخامسةَ عشرةً، كانت هذه كلمات صديقي الزائر الليلي عندما جاءني أول مرة، وقتَها كانت جَدتي على فراش

الموت ورفضَ سيد أخي الأكبر أن أكمل تعليمي، وصوت صفارات الإنذار في كل مكان كنت خائفة جدًا، أطرافي مجمدة، شفتاي لونهما أزرق، جسدي كله يرتعش، ولوهلة شعرت أنني لا أستطيع التنفس، وزادت ضربات قلبي لدرجة جعلتني أتصور أن جدران المنزل تهتز معها، استطردَ الزائر الليلي قائلا جَدتك الآن سوف تنتقل إلى العالَم الحقيقي، عالَم أكثر تحررًا وسعادة، سوف تتحرر من أهم نواقص البشر الخوف، يجب أن تكوني سعيدة مِن أجلها، كان صوته مطمئنًا دافئًا، أخذ يضحك معي قائلا لا تخافي.. يتملّك الناسَ الخوفُ عندما يشعرون بالضعف والاحتياج، وأنتِ قوية، تأكدي لن يحدث لكِ أي شيء سيئ، ومهما حدثت لك أشياء قاسية ستتغلبين عليها وتحوّليها لصالحك، تأكدي أنكِ قوية، أنا أحبك يا انشراح لأنكِ مِثلي تمتلكين فيريل، ولذا ستكونين أهلا لسيادة جسدكِ والناس والعالَم جمعًا، فيريل.. تذكّري هذه الكلمة جيدًا، ردّديها دائمًا، إنها مصدر قوتكِ في الحياة».

استطردت قائلة لغادة لم تكُن هذه المرة الوحيدة التي أتاني فيها الصديق الليلي، وفي كل مرة كان يظهر في أشكالٍ وهيئات مختلفة فأحيانًا هو عملاق يرتدي الذهب، وأحيانًا في شكل حكيم مُسِن ، سنواتٌ طويلة وأنا أتساءل مَن هو هذا الزائر الليلي الذي تغيّرت هيئته وشكله عدة مرات؟ تكررت الزيارات وفي كل مرة كان يُنهي الزيارة بالكلمه نفسها «فيريل».

أجابتني غادة بضحكة قوية، وأنا أيضا أكرر «فيريل»، أنت يا

انشراح تنتمين لمؤسسة فيريل السرية، والتي في عام 1933 تأسست في برلين، حيث فيريل تعني الطاقة الكونية الهائلة التي تشبع الكون، وهي مقياس لألوهية الإنسان، أو حسب معتقدات تلك الحركة أن مَن يملك فيريل يصبح أهلا لسيادة جسدِه والناس والعالَم، كما كانوا يؤمنون أيضًا أن هناك عمالقة مختبئين في كهوف عميقة داخل أغلفة ذهبية في مخابئ الهيمالايا، وسيَظهَرون قريبًا للناس ليحكموا العالَم، ومَن لا يستعد للقائهم وتحقيق التكافؤ معهم، سيجد نفسه في صفوف العبيد.

اطمئني يا انشراح واستمتعي معي بموسيقى شتراوس، فأنت تملكين فيريل.

استيقظت انشراح من نومها وكلها تعجب من هذا الحلم، ماذا رأت في غادة التي لم تقابلها إلا مرة واحدة حتى تراها في حلمها سندها في الحياة الإنسانة الوحيدة التي تثق فيها وتشاركها سرها ومخاوفها؟ من تكون غادة التي تظهرلها في صوره العارفة ببواطن الأمور والغيب وتلك الأشياء المعقدة الصعبة لتشرحها وتفسرها؟ بالطبع لم تتذكر انشراح من الحلم إلا القليل، ولم تفهم ما تذكرته، كل ما تبقى من هذا الحلم كما فسرته، أن غادة التي يحبها عادل هيدرا سيكون لها شأن في حياتها.

****

اشتاق الحاج سيد إلى زيارة بيت انشراح الذي غاب عنه سنوات،

اتصل بها في غفلةٍ عن ليلى وهدى وطارق، أوهَمهم أنه ذاهِب إلى معرض الموبيليا الذي يمتلكه في المهندسين، تحرك مِن هناك إلى الكلحة، تحرك بروح مشتاقة بالرغم من أنه في العشر سنوات الأخيرة أصبح مِن أهم رجال الأعمال، كانت حياته موزّعة بين لندن وألمانيا وشرم الشيخ والساحل الشمالي، ولكنه عندما شَعر بالمرض قرر الذهاب إلى انشراح، اشتاق إلى رؤية المنزل الضيق الذي عاشت فيه أُمه آخر أيامها، واختارت أن تموت فيه، افتقَد أُمه، افتقَد فنجان قهوة انشراح، افتقَد شكلَها وهي تهرول مِن السعادة هنا وهناك، صوتَها وهي تنادي مِن البلكونة بفرحة ولهفة:

- «ابعتلي علبتين سجاير مالبورو أحمر، الحاج سيد هنا، وإزازتين حاجة ساقعة»

حَنّ إلى فرحتها بزيارته وهي تمسح الكَنَبة بيدها قائلة: «اتفضل يا حبيبي يا سي السيد» كما كانت تحب أن تناغشه، اشتاق إلي أكلِها البسيط الذي يذكّره برائحة أُمه، يجلس مستريحًا تجوب عيناه هذا المكانَ الذي رَسمت التشققات على جدرانه صورًا وشخوصًا وحكاياتٍ، ولكن كانت هذه الزيارة مختلفة، فما أن وصل إلى منزل انشراح حتى دخل في حالة غريبة كأنها غيبوبة، نظر إلى انشراح متضرعًا قائلا:

- «بلاش ياخدوني يا انشراح، أنا عايز اخرج من هنا زي ما خرجت أمي»

لم تعرف كيف تتصرف، هل تستجيب لطلبه؟

خافت، قررت أن تتصل بطارق لتبلّغه أن والده عندها، وقتَها قامت الدنيا ولم تقعد، اتصالات تليفونية هيستيرية، هدى وليلى أصواتهما مملوءة بالفزع والشعور بالغدر، لم يمضِ أقل من ساعة حتى كان طارق قد أتى بالسيارة ليأخذ أباه، نظر طارق إلى انشراح نظرة حادة جعلها ترتجف ولم تستطع أن تنفِّذ طلب أخيها في أن يَظل عندها، كانت أضعفَ مِن أن تواجه طارق، وبدون كلمة اتَّجَه طارق إلى أبيه ليحمِله إلى السيارة، تَحسَّس محفظة أبيه ليتأكد من وجودها ثم فتحَها وهو ينظر إلى انشراح نظرة شكٍ، تجاهلت انشراح هذه النظرة فهي تعرف جيدًا أنهم لم يأخذوا مِن سيد إلا الاسمَ، لقد كانوا صنيعةَ ليلى، يفكرون بمنطقها ويَدينون بالولاء لها، أمّا سيد بالنسبة لهم فكان مجرد محفظة، كانت تعلم جيدًا أن هذه الحالة الهيستيرية ليست خوفًا على أبيهم، بل خوفٌ مِن أن يكتب الحاج وهو في هذه اللحظة جزءًا من أملاكه أو ثروته لإخوته.

****

مات سيد في المستشفى الذي أمضى فيه ساعات معدودة، بعد أن ترك منزل انشراح.

عشرات مِن المُتَّشِحات بالسواد يجلسن في البيت ليُقدمن واجب العزاء للحاجة ليلى، كانت انشراح تبحث عن هدى، فهي لم

تذهب إلى المقابر لدفن أبيها، هناك تصورت انشراح أنها في المنزل لأنها لا تتحمل هذا اللحظة، ولكنها عندما عادت بعد الدفن لم تجدها أيضا هناك، لاحظت انشراح غيابَ هدى ومنال، سألت بجزع، أجابتها ليلى بأن منال لم تتحمل صدمة موت حميها، فأخذتها هدى وذهبت معها إلى الطبيب. عادت منال إلى المنزل وهي في حالة هذيان شديدة، هدى تسندها يدخلان مِن باب الشقة بسرعة إلى إحدى الغُرَف، أدخلت ليلى وهدى منالَ إلى إحدى غرف النوم وخرجت الاثنتان، أغلقت ليلى البابَ بالمفتاح بينما جلست هدى على كرسي بجوار باب الغرفة لا تسمح لأحد مطلقًا بالدخول قائلة:

- منال حزنت على موت الحاج سيد، سقّطت العيل ربنا يصبرها

مضت فترة ليست بالوجيزة، بدأ صوت صراخٍ يعلو من الغرفة:

- وديتو فين ابني يا ولاد الكلب؟

رفعت ليلى صوت الراديو بالقرآن حتى يغطي على صوت منال فلا تفسر كلماتِها المعزياتُ، تنتبِه انشراح لهذا الصراخ العالي وتسأل هدى:

- حصل إيه؟ افتحي لي الباب عايزة اطمئن عليها

ترد هدى:

- ادخلي وقولي لها تِهدى مفيش فايدة مِن اللي هي بتعمله

ظلت انشراح بجوار منال في هذه الغرفة المغلَقة وهي شِبه غائبة عن الوعي، تفيق لحظاتٍ قليلة تبكي بدون صوت، ترفع

الغطـاء تتحســس تبحـث عـن طفلهـا الـذي فقدتـه، تتلمـس بطنهـا وتتسـاءل بصـوتٍ واهـن «عملـوا كـده ليـه؟»

تكمِل ساردةً بهذيان:

- هـدى قالـت لي انهـا تعبانـة قـوي وعندهـا نزيـف، وعايـزاني اروح معاهـا عنـد دكتـور النسـا بتاعهـا، وهنـاك الدكتـور قـال لي اني مجهـدَة ومحتاجـة حقنـة فيتامـين، ضحكـوا عليـا، طلعـت حقنـة بنـج، فتحـت عنيـا لقيتنـي غرقانـة في دمـي والملايـة كلهـا دم، ضحكـوا عليـا وسـقَطوني».

خرجـت انـشراح منفعلـةً، وبـدون أن يسـمع أحـد سـألت هـدى بحِـدة:

-عملتوا كده ليه؟

أجابتها هدى باستنكار:

-فيـه إيـه يـا عمتـي؟ انتـي عايـزة واحـدة مـن الشـارع بجِتَـة عيـل تـاكل دمـاغ طـارق وتتحكـم هـي وابنهـا في كل ثروتنـا وفينـا؟ بالعيـل ده منـال كانـت هتبقـي الـكل في الـكل، وبعديـن هـو فيه إيـه؟ لا حرام ولا حاجـة دول كانـوا شـوية دم سُـخنين ونزلـوا، عـلى فكـرة أنـا سـألت شـيخ قـال لي طالمـا لسـه مـا دبَتـش فيـه الـروح مـش حـرام، هدّيهـا يـا عمتـي وقـولي لهـا بُكـرة تحمـل تـاني وتخلّـف دَسـته عيـال، بـس احنـا نكـون عرفنـا راسـنا مـن رِجلينـا وقسّـمنا ميراثنـا وكل واحدآخـد حقـه، وطبعـا مافيـش داعـي تحـكي لطـارق لأنـه أكيـد مـش هيصدقهـا وهتخـرب عـلى نفسـها.

صدَقت هدى، طلبتُ مِن منال السكوت وأقنعتها ألا تحكي لطارق عما فعلوه بها لأنه لن يصدّقها وقلت لها:

- معلش يا بنتي لما الموجة تبقى عالية لازم نطاطي لها، عيشي وبُكرة تحبلي تاني، إنتي لسّه صغيرة.

طلبتُ منها أن تتعايش وأن تقوم بخدمة المُعزيات ومساعدة ليلى وهدى

استجابت منال قليلا ولكنني لم أستطِع أن أجيبَها على سؤال عملوا كده ليه؟

هذا ما أرادته ليلى. وبعد انقضاء أيام العزاء وانفضاض المُعزين والمعزيات، استدعت ليلى ابنَها في حضور هدى وقالت له:

طارق انت لازم تطلّق منال، إحنا اتاكدنا انها كانت بتخونك وإن العيل مش ابنك، وبصراحة هدى ربنا يكرمها أنقذتنا كلنا من الفضيحة، وأنقذتك مِن إنك تربّي عيل مش منك، وأجهضت منال والحمد لله انها جَت على قد كده، شوف مؤخرها كام واديهولها، إحنا مابناكُلش حق حد.

حاولت منال أن تدافِع عن نفسها أو تحكي له كيف قاموا بخداعها وإجهاضها، كان سكوتها كل هذه الأيام أكبر دليلٍ على صدق روايتِهم، عندما حاولت انشراح أن تشرح له ما حدث، اتهمَها هي الأخرى أنها شريكتُها في الإثم.

كانت انشراح مذهولةً مِن الجبروت، طلبت من ليلي أن تحدثها على انفراد:

- طيب منال مش مهمة، ابنك مش صعبان عليكي تجرحيه في رجولته وتطعنيه في شرفه وتحرميه من أول فرحته؟ وبعدين ده بيحبها!

- تاني يا انشراح؟ منال إيه وزفت إيه وحب إيه؟ انتي مش هتبطلي الرومانسية بتاعتك دي؟ منال دي حاجة كده، أنا جوّزتها له علشان يلعب بيها قدام عينّيا، علشان تلِم ابني ويبطل الخروج مع اصحابه في سهرات ماعرفش عنها حاجة، وكمان توفر مرتّب خدّامة، لكن يكون هو دا النسب لابن الحج سيد عويضة؟ دي جوازه كده فَك زنقة للواد بدل ما يجيلوا سيلان ولا زهري.

- كل الفرح اللي عملتيه ده، والليالي والدبايح ما كانتش الجوازة اللي تليق بيكم؟ والخمسة كيلو دهب وبَرَكة الطشطوشي راحت فين؟

أكملت ليلى حوارها:

- الفرح عملناه لابننا والصيت لنا والدبايح لله، والدهب بتاعنا مالهاش فيه حاجة، دي خاينة، وتحمد ربنا اننا هنتستَّر عليها ومش هنخرَجها بفضيحة، وبَركة الطشطوشي حلت، ابننا عاش سنتين في الحلال، وبصراحة يا انشراح انتي كمان كفاية قوي لحد كده، احنا استحملناكي كتير قوي علشان غلاوتك عند الحاج الله يرحمه، بس انتي من دلوقتي ورايح لازم تعرفي ان مالكيش حاجة عندنا، مش علشان الحاج مات، لا علشان انتي أصلا مش أخته شقيقته، الحاج سيد مش ابن عويضة تاجِر المخدرات، الحاج سيد

الوحيد من اخواتك اللي نَسلُه طاهر وعَصَبه نضيف، علشان كده ربنا كرَمه واداله مِن وسَع، مش زيك انتي واخواتك، غضب ربنا باين عليكم!

كانت انشراح مصدومةٌ مما فعلوه بمنال وطارق، فعلا إذا كانوا فعلوا ذلك بابنِهم فمِن الممكن أن تتوقع منهم أي شيء، لكنها تماسكت وسألتها بسخرية:

- ليلى، انتي كمان عايزة تقنعيني بعد العمر ده كله ان سيد مش شقيقي؟

أجابتها ليلى بهدوء:

- أخوكي الحاج سيد ابن قُطب، عارفة يعني إيه قطب ولا اعرفك؟ درويش من الدراويش اللي ربنا اختارهم واصطفاهم على الكُل، أخد عقله واداله بداله البَرَكة، الدرويش بيبقى ماشي في الدنيا مالوش عقل ولو شاف سِت أو بِنت وحَب يعاشرها ماحدش يقدر يقول له لا، حتى لو في الشارع يجيبوا ملاية ويغطوه ويسيبوه يعمل اللي عايزُه فيها، علشان البِذرة اللي هيحُطها دي بذرة مبروكة والعَيل اللي هيجي منها هيجيب لأهله السعد، ودا اللي حصل مع أمك، وكل الناس عارفه القصة دي، حتى أبوكي وافق يتجوزها وهي حامل في سيد واداله اسمه، أمَال انتي فاكرة الخير اللي ربنا اداه لسيد ليه؟ دا عشان مبروك.

نظرت انشراح إلى ليلى قائلة:

- فعلا اللي كان مَخلّيني استحملكم مات، وكفايه كِدب وافترا،

أنـا كِـده كِـده خارجـة.. حسـبي اللـه ونِعـمَ الوكيـل.

أجابتها ليلى:

- عـلى فكـرة دي مـش كِدبـة، وممكـن تتأكـدي مـن خالـك، وبالمـرّة خُـدي منـال في إيـدك وصليهـا لأمهـا، طـارق رمّـى عليهـا اليمـين.

خرجـت منـال ولم تحصـل إلا عـلى مؤخـر صـداقٍ هزيـل وجـرحٍ كبـير، أمّـا طـارق فقـدْ تحـوّل مِـن الصدمـة والحـزن والانكسـار إلى خيـال مآتـة تُحركـه ليـلى وهـدى، وقـد تَحقـق لهـما مـا أرادتـا.

لم يكُـن أحـد يُخرِجنـي مِـن حـزني عـلى وفـاة أخـي إلا هـذه الصغـيرة، وقتهـا أدركـتُ أن المـوت أحيانًـا رحمـة عـن معـاشرة هـؤلاء ، ولم أُعفِ نفسـي مـن اللـوم بالرغـم مـن أننـي لم أكُـن أعلـم أن لمُخططاتِهـم بقيةً، وأنهـم سـيتهمونَها بالخيانـة ويطردونهـا مِـن جَنتِهم.

ظلـت منـال في مكانهـا عـلى الكَنَبـة، التـي تحولـت لسريـر في هـذه الصالـة الضيقـة الواقعـة في منتصـف المسـافة، بـين حجـرة حَسـن وحجـرة الأولاد في منـزل انـشراح، كانـت في شِـبه غيبوبـة، جسـدها ممـدد عـلى الكَنَبـة، هاتـانِ العينـانِ القويتـان المليئتـان دائمًـا بالحيويـة أصبحَتـا باهتتـيْنِ حائرتـينِ تنظـرانِ إلى انـشراح نظـرة اسـتجداءٍ، أصبحـت حيـاة منـال معلقـةً بـأي كلمـة تتفـوه بهـا انـشراح، لسـانها ثقيـل تتحـدث بصعوبـة، مـرت شـهور ومنـال لا تـزال في هـذه الحالـة المرعِبـة.. لا تسـتطيع انـشراح أن تفعـل لهـا شـيئًا.

قلبـي يتـألم وأنـا أنظـر إليهـا، لم أتصـور أن الوحشـية تصِـل بهـم إلى هـذا الحـد، كنـت أتصـور أنـه يحبهـا وأنـه سـيدافِع عـن هـذا الحـب، وأنـه

سيفرِضها عليهم ولكنهم كانوا أقوى، وأنا كنت ضعيفةً خائفة منهم.

لماذا لم أدافع عنها؟ لماذا أكملتُ في هذه الجريمة وأعطيتها أملا بأنه سيعود وأنه ما يزال يحبها؟! لماذا أخفيت عنها خبرَ زواجِه مِن ابنة د. عبد الفتاح رضوان؟ إنني أيضًا مِثلهم، أيضًا أخدعها بحُجة أنني خائفة على مشاعرها، نَعَم أنا ضعيفة لا أملك حتى القدرة على أن أساعدها، على أن تواجِه الحقيقةَ وتواجِه مصيرها، كل هذه الفناجين المقلوبة والتي تنتظر منال أن يَخرج منها طارق، هي خديعتي وضعفي وقِلة حيلتي، هل لو كانت ابنتي كنت سأتركها تعيش في الأوهام منتظرةً أملا غيرَ حقيقي، بينما هو يقضي شهر العسل مع زوجته الجديدة في أوروبا؟

لا لن أتركَها فريسة لأمل لن يتحقق كما وقعتُ أنا فريسةً له وانتظرتُ سنواتٍ وسنوات، سوف أساعدها لتكون قويةً وبأي طريقة.

بدأت منال تتعافَى قليلا مِن أثر الصدمة، وأصبحت قادرة على الحركة بعد أن لزمت الكَنَبة فترة ليست بالقليلة، طلبت انشراح من ناهد أن تأخذ سيارتها الجِيب، شرحت لها أنها تحتاجها ضروريًا وأن منال تجيد القيادة.

****

لماذا هذا الإصرار الشديد على البحث عن كلبٍ في الصحراء؟ شوارع المدينة مليئة بالكلاب الضالة؟

سؤالٌ يلِح على منال بينما السيارة الجِيب الـ4 × 4 المسرعة تطوي تحتها هذه الرمالَ الناعمة وتتوغل في العمق بدون وجهةٍ محددة سِوى البحث عن كلبٍ ضال.

ضوء السيارة يكشف الطريقَ، القمر في كمالِه يُضيء الصحراءَ فتبدو كطبق من الفضة تتلألأ فيه المياه.

تجلس منال على عجَلة القيادة، تتدلى على وجهها المستدير كوجهة القمر في اكتماله خصلاتُ شَعرِها الكستنائي، وبينما تنظر عيناها اللتان تملأهما رغبة متوحشة تخفي مسحةَ الحزن فيها إلى الصحراء شاردة كأنها نَمِرة كاتمة غيظَها.

سألت انشراح بنبرة ضيق:

-أنا مش فاهماكي يا عمتي إيه إصرارك على كلب في الصحرا؟ ما الكلاب ماليين الدنيا ولا انتي غاوية مغامرات؟

-لا يا منال أنا مش غاوية مغامرات وعارفة أنا بعمل إيه كويس، ولو مش عاجبك لفّي وارجعي على البيت.

ترددت منال، فقدْ استفزَّهَا رد انشراح وهي التي لم تتعود منها على هذه الطريقة في الكلام، كادت تتحرك في الاتجاه المعاكس للخروج من الصحراء لولا احتياجُها الشديد... كظمتْ غيظها من انشراح مستطرِدة:

- ماقصدتش يا عمتي، بس انتي هتعرفي تصطادي كلب في الصحرا لوحدك ومش هتخافي؟

- مش دي المشكلة دي سهلة، المهم ألاقي كلبة زيك!

بـدأت انـشراح تسـمع صـوت نبـاح كلاب كثـيرة، طلبـت مِـن منـال أن تُطفـئ محـرك السـيارة، نزلـت انـشراح مـن السـيارة وفي يديهـا كثـير مـن الطعـام المَحْقـون بمخـدّر، تجلـس بهـدوء وتبـدأ في إلقـاء اللحـم، اجتمعـت حولَهـا قافلـة مِـن الـكلاب، أخـذت تقـترب مـن الطعـام. بـدأت في الأكل.. خـلال دقائـقَ معـدودةٍ أصبحـت الـكلاب مخـدَّرة.

جلسـت انـشراح عـلى الأرض وأخـذت تقلّـب في الـكلاب المُلقـاةِ أمامَهـا تتفحصهـا بدقـة.

كان لهـا مواصفـاتٌ خاصـة تبحـث عنهـا ولا تـرضى أن تتنـازل عـن إحداهـا، لا بُـد أن يكـون كل شيء دقيقًـا، لـن تـترك أي تفصيلـةٍ حتـى لا يكـون هنـاك أي احتـمالٍ للفشـل.

لم تحـاول منـال أن تشـارِكَها، كانـت تجلـس في السـيارة ممسِـكةً بعجلـة القيـادة متجاهلـةً كل مـا يحـدث كأنـه لا يعنيهـا، تختلِـس أحيانًـا نظـرةً إلى انـشراح وهـي منهمِكـة في البحـث عـما تريـد.

- أخيرا لقيتها الكلبة اللي شَبَهك، انتي محظوظة.

نظرت إليها منال بضيق قائلة:

- كفاية إهانه يا عمتي، هو انتي شايفاني كلبة فعلا ولا إيه؟

- إهانـة ايـه؟ أنـا فعـلا لازم الاقـي كلبـة، نتايـة يعنـي، ولازم تبقـي شَـبَهك في شـكلك وروحـك وطريقتـك، الكلبـة دي انتـي.

- انتـي عايـزة تجننينـي؟ روحـي إيـه وطريقتـي إيـه؟ ناقـص تقوليـلي وقَصَـه شـعري كـمان!

- كفايـة هـزار، أنـا بعمـل حاجـة بجَـد هتغـير حياتـك، وهتكـوني

غنيه جدا وهتتجوزي اللي يعجبك مهما كانت ثروته أو نفوذه.
نظرت منال في عينيها نظرة يأسٍ وهي تقول:
- اذا كان ده حقيقي كنتي قدرتي تغيري حياتك انتي.
قرأت انشراح أفكارَها، فأجابتها بنظرة تقول
- إن ما أردته في الحياة كان حبًا طواعية، حبًا بكامل الإرادة، حبًا لا تجلبه لي وصفات السحر ولا رؤى العارفين، ولقد كنت أريد لكِ أيضًا هذه الحياة، ولكني أعرف جيدًا أن البدائل أمامكِ معدومة، أعلم أنكِ تحتاجين الثأر لكرامتك والانتقام مِمن غدروا بكِ، وليس بوسعي إلا أن أساعدك.
بدأت انشراح في إخراج المشرط مِن حقيبة يدها، وقامت بِقَطع بَظر الكلبة، سال دَمُها كما سال دَم منال من قبل في عشرين شارع الليبيني، وكَمُمَرضَةٍ محترِفة داوت الكلبةَ وطهَرت مكان الجرح.
عادت إلى السيارة وأخرجت من حقيبتها كيسًا مملوءًا بخلطة من الفلفل الأحمر المطحون والفلفل الأسمر، وضعت فيه بَظر الكلبة وأغلقته بإحكام، أعطته لمنال قائلة:
-الكيس ده لازم تفضلي شايلاه على طول، وتأثيره هيفضل طول ما الكلبة عايشة، فهمتي ليه أنا اخترت كلبة من الصحرا؟ علشان ما حدش يصطادها بسهولة، والأعمار بيد الله وانتي وبَختك، ومتحاوليش تجربي الوصفة دي مع نفسك، ليها طلاسم مُعَينة.

****

لم تتصور انشراح بعد تلك المقابلة الباردة، أن غادة يمكن أن تعاوِد الاتصال بها، بالرغم من أنها كانت متأكدة بعد أن رأتها في الحلم، أن علاقتها بالفتاة التي أحَبها عادل هيدرا، الفتاة التي جلس أبوها في الجامعة نفسها مع إبراهيم، سيكون لها بقية، ولكن طريقتها الجافة جعلت انشراح لا تتصور أن المبادرة ستكون من غادة، لم تكُن تدري أن هذه المشاعر المرتبِكة تملكت غادة أيضًا، فقدْ أعادتها انشراح بكلامها عن الجامعة ومظاهرات الجامعة إلى حنين أصابها كما أصاب انشراح.

طريقتها مختلفة، سألتها بإلحاح إذا كانت تستطيع مقابلتها غدًا في الثالثة عصرًا في مقهى جروبي في وسط البلد، طلبت منها بشدة ألا تتأخر عن الميعاد لارتباطها بمواعيدَ أخرى بعدَها، كما طلبت منها أيضًا ألا تحكي لعادل عن هذه المقابلة.

وصلت غادة إلى مقهى جروبي قبل انشراح التي تأخرت عشر دقائق عن الموعد، اعتذرت انشراح عن تأخرها.

رحَّبت بها غادة وسألتها إذا كانت وجدت صعوبةً في الوصول إلى مقهى جروبي؟

مقهى جروبي.. بدأت انشراح تشُم رائحة أُمها وببريان وأغافني، وهل للذكريات رائحة؟ نَعَم طغت رائحة الذكريات على كل

شيء، هنا تجلس حياة، وهنا يجلس بربيان، وهنا الطفلة تأكل الآيس كِريم السويسري بنَهَم، وهنا ليس بعيدًا في العمارة المجاورة استوديو بربيان الذي التقطت فيه أول صورة، لم يعُد وسط القاهرة بجماله نفسه، ولم يعُد مذاق آيس كِريم جروبي الذي تجلس فيه الآن هو نفسه الذي كانت تأكله قديمًا، أصبح يشبِه ما كانت تبيعه أم قويق في الحارة، كل شيء أصبح باهتًا.

مِن أين ظهرت غادة التي تأخذها إلى نفسها؟ مَن هي غادة التي استطاعت بسهولةٍ أن تخترق عالَمها الحقيقي دون أن تدري، وتحدّثها عن جامعة إبراهيم وتدعوها لتناول الآيس كِريم عند حياة وبربيان كأنها تعرفهم جميعًا؟ لا، كأنها تعرف انشراح منذ طفولتها.

سألتها غادة: هل أعجبكِ المكان؟

أجابتها انشراح:

- جروبي ده المكان اللي أمي كانت متعودة تفسّحني فيه، نظرت إلى نفسها قائلة:

- ماتستغربيش العباية البلدي اللي أنا لابساها، أنا عارفة ان جروبي ده بتاع الباشاوات

قاطعتها غادة قائلة:

- لا أنا مستغربة حاجة تانية، أصل بابا الله يرحمه برضه كان متعود يفسّحني هنا، المكان ده أقرب مكان لروحه، بصراحة مش جروبي أقرب مكان لروحه، أقرب مكان لروحه الميدان اللي في آخر الشارع.

ميدان التحرير- الكعكة الحجرية

- إيه؟

- الكعكة الحجرية

الإصحاح الأول

«أيها الواقِفونَ على حافةِ المذبحةْ

أشهِروا الأسلِحةْ!

سَقطَ الموتُ; وانفرطَ القلبُ كالمسبحَةْ.

نظرت انشراح إلي غادة متسائلة:

بتقولي إيه؟ بتكلميني؟ مش فاهمة حاجة خالص

- أكيد هاحكيلك في يوم من الأيام عن الكعكعة الحجرية وعن المشاغب اللي مات في حب بهية، هاحكيلك عن «دُعَاةِ الشغب وهُم يَستديرون، يشتعِلون - على الكعكة الحجرية - حوْلَ النُّصُب شمعدان غضب».

احترمتْ انشراح حالة الحنين التي استولت على غادة، فقدْ تملَّكتها الحالة نفسها فلم تقاطعها ولم تحاول أن تسألها عن معاني تلك الكلمات الصعبة عليها، انتظرت حتى عادت غادة إلى الحاضر وإذا بها تفاجِئها:

- عايزاكي تروحي معايا مشوار، وبالرغم من إني ماعرفكيش قوي، بس حسيت بارتياح ليكي، خفت أروح لوحدي، وحسيت اني عايزاكي معايا، هنروح دير القديس سمعان الخراز، أبونا بطرس اتصل بيّا، مش عارفة جاب رقمي منين، انتي عارفة مين أبونا بطرس؟ ده عضو في المجلس المِلّي، انتي عارفة يعني إيه حاجة مهمة قوي

وحَـد مهـم قـوي؟ يعنـي كـده زي وزيـر، أنـا مـش عارفـة هـو عايزنـي ف إيـه، بـس أنـا قلقانـة، عنـدك اسـتعداد تيجـي معايـا؟

الذهـاب إلى ديـر القديـس سـمعان الخـراز لم يكـن شـيئًا سـهلا، رائحـة القمامـة النفـاذة مـن الزرايـب، حركـة الزبالـين الذيـن يمـلأون المـكان وينتـشرون كالجـراد، عربـات الزبالـة المكوَّنـة مِـن صنـدوق كبـير مـن الخشـب، لـه عجلتـانِ مـن الخشـب أو مِـن عَجـل كاوتشـوك ويجرهـما حـمارانِ أو أكـثر في نشـاط رهيـب، عربـات صاعـدة وعربـات هابطـة، وعـدد كبـير مـن الرجـال والأطفـال والبنـات منهـم مَـن يقـود العربـاتِ، ومنهـم مَـن يسـاعد الحمـير في دفـع العربـات للصعـود إلى أعـلى للتغلـب عـلى صعوبـات الطريـق، كان المدخـل إلى الكنيسـة أيضًـا مَليئًـا بالعشـش الصـاج، انـشراح تنظـر مدهوشـةً مِـن كَـم الزرائـب، ومنظـر الخنازيـر الـذي لم تألفـه عيناهـا يثـير بداخلهـا الاشـمئزازَ، ولكـن مـا أن عَـبَرَت السـيدتانِ منطقـة الزبالـين واقتربتـا مِـن مدخـل الكنيسـة الجَبَليـة حتـى شـعَرَتا بالارتيـاح، وهنـاك شـاهدَتا فجـوةً كبـيرة تحـت صخـرةٍ مَهولـة في حضـن جبـل المقطـم، وبهـا كنائـس، فـكل مغـارةٍ تـم تحويلهـا إلى كنيسـة، والكنيسـة الكبـيرة منهـا عِبـارة عـن مـدرَّج داخـل مغـارة كبـيرة. في حضـن الجبـل وجـدوا كـراسيّ بهـا عـلى هيئـة مدرجـات مثـل مدرجـات الاسـتاد، تَسَـع عـددًا مَهـولا مـن البـشر لا يقِـل عـن عشريـن ألفًـا عـلى أقـل تقديـر، كان هنـاك أيضًـا مجموعـات كبـيرة مـن السُـيَّاح، نظـرت غـادة إلى انـشراح، مِـن أيـن كل هـذه الحيـاة والجَمال بعـد المدخـل الغريـب مدخـل الزبالين؟ إنهـا الحيـاة بـكُل تناقضاتهـا، كان هنـاك أيضًـا تماثيـلُ منحوتـةٌ في حضـن

الجبل للسيد المسيح والسيدة العذراء، وقفتْ أمامَها غادة مبهورةً بروعة العمل الفني، مرددةً أنه لفنان مَن استطاع نحْتَ هذا الجَمال في الجبل. فوجئت بانشراح تتجِه إلى الحائط محاوِلةً أن تتلمس العذرَاء المنحوتةَ على جدران الجبل قائلة: شي لله يا ست.

وسألت غادة إذا كان بمقدروها أن تُضِيء شمعة للعذراء؟

شي لله يا ست، شي لله يا عدرا يا بتول يا أُم النور، صيامك ندر عليا ومحبتك في قلبي يا أطهر نساء الكون.

لم تعرف انشراح حتى وفاة أمها لماذا كانت حياة تصوم صيام العدرا، ولا ما هو الندر الذي وفّته، ولكنها تتذكر جيدًا كيف كانت تصومه بالماء والمِلح، وكيف كانت أحيانًا تأخدها معها إلى كنيستها بمسطرد لتحتفل هناك بالعيد وتشعل الشموع.

وصلنَا تقريبًا إلى الدير، قبل الموعد بعشر دقائق اتجهت غادة إلى الإدارة .

- عندي موعد مع الأب بطرس في السادسة

- أستأذنك، بيانات حضرتك؟

- أستاذة غادة أمين عبد الله

- وحضرتها؟

صمتت قليلا، نظرت غادة لانشراح ثم أجابته:

-والدتي

كما توقعت غادة كان اللقاء بخصوص عادل، وبالرغم من الطريقة اللطيفة المهذبة التي تحدَث بها الأب فإن غادة شعرت في قرارة نفسها

بالضعف، فهي تجد نفسها فجأة في موضع اتهام بغواية رجُلٍ ليتخلّى عن دينه، ولولا نظرات انشراح لها التي أعطتها كثيراً من القوة، لكانت انهارت من البكاء أمامَه، لم يكن هناك ما تقوله غير أنها حاولت بقدر الإمكان وبكياسةٍ ولَبَاقة أن تنفي التهمةَ عن عادل وعن نفسها، قائلة إن عادل مجرد صديق عزيز، ويبدو أن هناك سوء تفاهُم.

في طريق العودة مِن دير سمعان الخراز احتضنت انشراح غادة كأنها فعلا ابنتها التي أنجبتها، كَلِمة «والدتي» التي قالتها غادة لموظف الاستقبال في الدير تحولت إلى حبل سُرِّي ربَط بين انشراح وغادة، نَعَم غادة هي ابنتي مِن إبراهيم، أمّا مشاعر الأمان والحماية التي أعطتها انشراح لغادة أثناء المقابلة فقدْ جعلتها فعلا تشعر أنها أخيرًا وَجدتْ أمًا.

انطلقتا معًا إلى منزل غادة في المَنيَل، وهناك دخلت انشراح المطبخ وقامت بإعداد فنجانَيْن مِن القهوة، بينما كانت غادة مشغولة بإدارة جهاز تسجيل تنطلق منه أغنيات لم تسمعها انشراح من قبل، حاولت أن تركّز في كلماتها التي جعلت غادة تحلّق مِن النشوة كمدمنٍ أخذ جرعتَه المطلوبة، كانت غادة تغنّي مغردة:

«شابة يا ام الشَّعر ليلي والجبين شق النهار، والعيون بحرين أماني والخدود عسل ونار، واللوالي في ابتسامتك يحكوا أسرار المحار، يا اللي ساكنه القصر عالي، امتى يهنالي المَزار»

شعرت انشراح أن الأغنية كأنها كُتِبت لغادة، بشَعرها الأسود الليلي وعينيها الواسعتين الغامضتين اللتين يملأهما شجن لا

تخفيـه الابتسـامة الدائمـة.

نظرت إليها انشراح بحنان:

- كانـت حلـوة قـوي منـك كلمـه والـدتي، تعـرفي اني أول مـا شـفتك تخيلتـك بنتـي؟ سـألتها بحَـرج: هـي مامتـك عايشـة؟

- يعني.. أقصد آه!

- ربنا يديها طولة العمر

- بـس هـى مـش عايشـة معايـا، هـي مـع جوزهـا في السـعودية، أنـا والـدي اتـوفى وأنـا عنـدي عـشر سـنين وبعديـن هـي اتجـوزت وسـافرت السـعودية، وأنـا عشـت مـع خـالي ومراتـه، وبعديـن قـررت ارجـع هنـا في بيتنـا الـلي فضـل مقفـول بعـد وفـاة بابـا سـنين طويلـة، كل حاجـة هنـا في البيـت زي مـا سـابها، شرايـط الكاسـيت دي بتاعتـه، صـورة جيفـارا، المكتبـه دي بتاعتـه، أوريـكى حاجـة أجمـل؟

فتحـت غـادة درجًـا فيـه أوراق مختلفـة الحجـم، منهـا مـا هـو كبـير الحجـم يشـبِه اليافطـات، ومنهـا قصاصـات ورَق، أخـذت تقـرأ غـادة مـا كُتِـب عـلى هـذه الأوراق:

«يا مجلس شعب صباح الخير وانت رئيسك مليونير

قول للنايم في عابدين حكمك زفت وحكمك طين

أصل الوالي يا ناس مش داري بِهَمّ الفُقَرا في الحواري»

- بابـا كان أهـم واحـد بيكتـب شـعارات المظاهـرات، مظاهـرات الطلبة، انتفاضـة الحراميـة، سِـمعتي عنهـا سَـنَة سـبعة وسـبعين؟ السـادات قـال عليهـم حراميـة وهُـمّ طلبـة ومهندسـين، طفولـة غريبـة كل الأطفـال

تقرا ميكي وسمير وأنا باقرا شعارات سياسية، وقتَها مكنتش فاهمة معانيها، بس كنت بحبها قوي واحس أن دمها خفيف، عمري ما بانسَى سهرات بابا وأصحابه ونجم والشيخ إمام وهُمَ بيغنوا ويضحكوا ويتريَقوا على بعض وينادوا بعض القلة المنحرفة.

عمري ما هانسى منظر المُخبرين وهُمَ جايين يهجموا على البيت وياخدوا بابا، كنت باخاف قوي وأكرههم قوي، المرة الوحيدة اللي وافقت أمي انها تاخدني معاها علشان ازوره كان في سجن القلعة، ساعتها حسَيت بأسوار القلعة ضخمة وعالية وأنا تايهة مش فاهمة حاجة، صغيرة قُدام كل الأسوار دي، كان بيضحك لما شفته وعينه كلها قوة، بَصَ ليَا وقال لي أنا مش حرامي، كان عندي تسع سنين، وقلت له أمَال انت مسجون ليه؟ قال لي أنا هنا علشان بادوَر على حق الغلابة!.

رجعت الذاكرة بانشراح قُرَابة أربعين عامًا، وقتَما كانت تزور أباها في سجن طُرَة، ولكنها متأكدة أن أباها كان لِصًا، تاجِر مخدرات وبلطجيًا بالرغم من كل محاولات أُمها للدفاع عنه وتحسين صورتِه أمامهم، ولكن هل هناك فرق بين ألم وحرمان طفلة ترى أباها خلف القضبان لأنه يدافع عن حق الغلابة أو لأنه يتاجِر في المخدرات؟

أخذت غادة تحكي ما كان يرويه أبوها عن كل المظاهرات التي شارك فيها، وكيف اعتُقِل، ذكرياته في سجن القلعة وفي طُرَة، وكيف خرج الطلبة متجهين لمجلس الشعب في مظاهرة مكوَنة مِن ثلاثة آلاف طالب، وكيف اعتصَموا أمام المجلس، وكيف كان الضباط يخاطبونهم

بـ»يـا شـيـوعيين». نظـرت إلى انـشراح متسـائلة: عارفـة يعنـي إيه شـيوعي؟ تلجلجت انشراح وأجابت: لا

قاطعتها غادة: تصدَقي ولا أنا، كل اللي عارفاه اني بَكرَه الكلمة دي.

كَـم تَكـره كلمـة شـيوعي، كانـت دائمًـا تشـعر أن هـذه الكلمـة إهانـة وتُهمـة، ولا بّـد أن تتـبرأ منهـا بالرغـم مـن أنهـا كانـت متأكـدة مـن أن والدهـا بَطَـل، رجُـل صاحِـب موقِـف يدافـع عـن أشـياء لم تعُـد تهـمّ أحـدًا الآن عـلى مشـارف الألفيـة الثانيـة، مَـن يعـرف أباهـا؟ مَـن يتذكـر نضالـه؟ مَـن يتذكـر أصـلا أنـه كان هنـاك في يـوم مـا مَـن يسـيرون في مظاهـرات ويُرمَـون في السـجون مدافعـين عـن حـق الفقـراء، مُنددـيـن بسياسـات هـذا العميـل الأمريـكي الـذي بـاع مـصرَ للأمريـكان؟!

إنهـا غربـة في الوطـن، عندمـا لا تجـد مِـن جيرانـك أو أصدقائـك أو معارفـك أو زملائـك في العمـل أو حتـى أقاربـك مَـن يفكـر مثلـك! مَـن يسـمع الأغـاني نفسـها التـي تسـمعها؟ مَـن تتحـرك مشـاعره لأبيـات شِـعرٍ لا يعرفهـا أحـدٌ غـيرك؟

«دقت الساعةُ القاسية»

أبطالُـكَ غـير أبطالِهـم، رمـوزَكَ غـير رموزِهـم، تتذكـر عندمـا كانـت تلميـذةً في المدرسـة تجْمَـع حولَهـا الطالبـاتِ وتقـول لهـم أشـعارًا حفِظتهَـا عـن أبيهـا، تسـأل صديقاتِهـا في المدرسـة: بتحبـوا تسـمعوا الشـيخ إمـام؟ فـترد إحداهـن: هـو شـيخ كويـس وبتـاع ربنـا، بـس بابـا بيحـب الشـيخ كشـك.

تجيبهـم بتلقائيـة: الشـيخ إمـام ده مغنـي.. فـيردون بضحكةٍ سـاخرة:

مين المغنّي ده اللي عمرنا ما سمعنا عنه؟ تنظر إليهم راجيةً اهتمامهم: أغنّي لكم أغنية باحبها. وتجلس في الفصل تَجمَع عددًا مِن زميلاتها وتبدأ بحماس في الغناء.

تصورت غادة أن انشراح تنتمي إلى عالم أبيها بجامعته ومظاهراته، عالم ترسَّخَ في ذاكراتها وروحها ولم يتبق منه إلا صوت خالها وهو يعنفها عند أي تصرفٍ لا يعجبه منها، قائلا: العيب مش منك، أصلك بنت الشيوعي الكافر.

لم تعُد ترى أيًا مِن أصدقاء أبيها، لم تعُد تسمع أغاني الشيخ إمام، ولكنها ظلت تحِن إلى أيام أبيها وتتمنى أن تعود هذه الأيام... وتكره كلمة شيوعي!.

انتظرت انشراح أن تبدي غادة أي تعليق على مقابلة الأب بطرس، لم تفتح غادة الموضوعَ مطلقًا كأنها تحاول عن عمدٍ أن تتجاهل تلك المقابلةَ الساخنة التي حدَثت منذ ساعات.

قررت انشراح أن تكسر رهبة ما حدَث:

- على فكرة اللي حصل ده عادي، لو ابوكي عايش كان قال لك كده، ولو عايشة في الفلاحين كان العمدة عمل معاكي كده، ماتديش الموضوع أكبر من حجمة، كلمتين اتقالوا اعملي نفسك ماسمعتيهمش.

كانت إجابة غادة غريبة:

- المشكلة اللي بيني وبينه مش مشكله الدين، الحقيقة اني مش قادرة اتخيل اني أرتبط بشخص مليونير.

- نَعَم؟ مش فاهمة! مشكلتك مش انه مسيحي؟ مشكلتك انه

غنـي؟ أول مـرة أعـرف ان الواحـد يبقـى مليونـير دي حاجـة وِحشـة، إوعـي تكـوني مصدقـة الـكلام بتـاع الأفـلام العـربي انـه هيتسـلّى بيـكى ويرميـكي أو هيعايـرك أو الـكلام الفـارغ ده!

- يعايـرني إيـه ويتسـلى بيّـا إيـه؟ ده أنـا الـلي كنـت فاكـرة انـك فاهـماني، عـادل هيـدرا رأسـمالي، هُـمّ دول الـلي مخليينـي أنـا وانتـي كِـده وعيشـتنا كـده، بيسرقونـا ويرجّعـوا يشـترونا بفلوسـنا، وكـمان خايـن بيسـتغل ان أمريـكا بتحميهـم وبتدافـع عنهـم، تقـدري تقوليـلي كل التوكيـلات الكبـيرة ليـه واخدينهـا مسـيحيين؟ وبتـوع الدهـب وشركات المحمـول وتوكيـلات العربيـات والسـياحة والمنتجعـات! الـلي يـسرق أهلـه وناسـه، الـلي مسـتقوي بأمريـكا ده خايـن وعميـل.

أرجـوكي يـا انـشراح اقفـلي عـلى موضـوع عـادل ده، وتعـالي نتكلـم عـن حاجـة تانيـة.

لم تسـتوعِب انـشراح كيـف يكـون هـذا الرجُـل المهـذب الخلـوق ابـن هـذه السـيدة الفضـلى لِصًـا!

- ماشي نتكلم في حاجة تانية، انتي اتجوزتي قبل كده؟

شردت غادة وحدَّثت نفسها كأنها تجيب لانشراح

«إصرار خـالي عـلى الـزواج بالمهنـدس محمـد كان إصرارًا عجيبًـا، كأنـه يريـد أن يثبِـت لأمـي وزوجهـا أنـه تمَّـم مهمتـه بسـلام، مهمتـه التـي أخـذ عنهـا راتبًـا شـهريًا مـن مـال الحَرَمـين، كل شيء كان يجـب أن يكون حسـب الخطـة، غـادة كـبرت، غـادة دخلـت الجامعـة، غـادة خُطِبـت، محمـد لم يكـن شـخصًا سـيئًا. لا أعرف لمـاذا نفرتُ منه كل هـذا النفور، حـاول إرضائي

بـكل الطـرق، عمـل أشـياء كثـيرة لي، اشـترى لى شـبكة ألمـاظ، صرف مـالا كثـيرًا في الفُسَـح والخـروج والملابـس الغاليـة ليكـون لائقـا أمـام عائلتـي، في البدايـة أعجِبـت بـه، ولكـن مـع مـرور الوقـت أصبحـت لا أطيقـه، لا أقبـل منـه أي كلمـة ولا لمسـة ولا مداعبـة، كان يسـخَر مِـن حُبـي للموسـيقى، وكان يعتـبر ضحكتـي العاليـة قلـة أدب وقِلـة تربيـة وعـدم احـترام، ويغـار بشـدة مـن زمـلائي في الجامعـة، هـل مِـن الممكـن أن تنقلـب المشـاعر مِـن الإعجـاب إلى النفـور بسـبب جُملـة؟ جُملـة واحـدة قلبـت حياتي رأسًـا على عقِـب، جُملـة لـو لم يكُـن قالهـا مـا كنـتُ أنـا أصبحـت هـذه الفتـاة التـي تجلـس أمامـكِ الآن. ربمـا إذا قلتهـا لـك تقولـين عنـي مجنونـة كـما اتهمَنـي الجميـع وقتَهـا.. قـال لي في بدايـة خِطبتِنـا وأنـا أكتشِـف معـه هـذا العالَـم في حـوار معـه، فجـأة قَطعَـه ونَظَـر لي بقـرف قائـلا: إنتِـي محتاجـة الواحـد يشـيل دماغـك دي ويرميهـا في الزبالـة!

تحولـت مشـاعري تمامـا، نظـرتُ إلى هـذا الرجُـل متسـاءلةً: لمـاذا يريـد أن يتزوجنـي؟ ولمـاذا يجِـب علـيّ أن أعـاشِر رجُـلا يـرى أن دماغـي مكانـه صفيحـة زبالـة؟ كنـت صغـيرة وحساسـة، لم تمُـر الكلمـة علـيّ مـرورًا عابـرًا، ولم آخذهـا عـلى مَحمـل أنْ قـد خانـه التعبـير أو أنـه شـخص غـير لبِـق.. كان قـرارًا.. لـن أتزوجـه!».

انتبهت من شرودها وأجابت:

- لا.. كنت مخطوبة، وانفصلنا قبل الزواج.

****

- 11 -

كانت انشراح تواصل بدأب تجربةَ كل وصفات نرجس، ربما تفلح إحداها في حل مشكلة منال التي ما زالت تحب طارق، وضعت انشراح طاسة الزيت على النار، أخذت ثلاثة قرون فلفل أحمر ودهنت كل قرن بزيت الزيتون، ثم وضعت الفلفل فوق النار وأخذت تردد وتقول «مساء الخير يا حرور، يا اللي انت أحمر زي الدم وقلبك أبيض زي السم، احرق قلب طارق ابن ليلي على منال بنت فردوس، زي ما انت بتتحرق قدامي»

سمعت صوتًا في الصالة:

- ماما فين يا شيماء؟

- في المطبخ يا أبله ناهد

- الله.. ريحه الفلفل المَقلي تُحفه، أنا محظوظة

استقبلتها انشراح بحرارة قائلة:

_ عينَيا.. أقلي لك مخصوص، أصل دول مش للأكل، دول للحُب

_ وصفة مِن وصفاتك؟

- لا، وصفات نرجس، أهو بنجرب هنخسر إيه يمكن تيجي بفايدة، خفضت صوتها

- تعرفي يا ناهد بتمنّي الوصفة دي تجيب نتيجة، ليلى منها لله طلقت البت من طارق علشان غلبانة ومش قدهم.

- وبتوطي صوتك ليه؟

- أصـل منـال هنـا عايشـة عنـدي مـن سـاعة مـا اتطلقـت، ربنـا يكـون في عونهـا البـت نفسـيتها تعبانـة قـوي، بتحبـه.

كان اللقاء الأول بين ناهد ومنال، ولم يكن الأخير.

تناوَل الجميعُ طعام العشاء معًا، حضرته انشراح في جو حميمي، دخلت منال إلى الغرفة تاركة ناهد وانشراح يكمِلان حديثهما.

قررت انشراح أن تسال ناهد عن عادل هيدرا.

- ناهـد هـو انتـي تعـرفي رجـل أعـمال اسـمه عـادل هيـدرا؟ هـو تقريبـا عنـده قـري سـياحية

نظرت لها بدهشة:

- عـادل هيـدرا.. طبعـا اعرفـه، كنـا مـع بعـض في نـادي المعـادي، بـس أنـا اعـرف اكـتر اخواتـه الأكـبر منـه، هُـمّ الـلي كانـوا مـن سـني واصحـابي، وجـده كان مـن مؤسسـين النـادي، انتـي تعرفيـه منـين؟ وبتسـألي عليـه ليـه؟

- بصراحـه بـس الـكلام ده سر بينـي وبينـك، أنـا بقـالي فترة بشـتغل في البيـوت تنضيـف وطبيـخ، يعنـي مديـرة منـزل، وعندنـا مـش هيفهمـوا كـده وهيقولـوا خدامـة، العيـال كـبروا ومحتاجـة أزوّد دَخْلنـا، حَسـن زي مـا انتـي عارفـة، وكـمان مـش عايـزة اجرحهم...انـا بشـتغل عنـد والدتـه الأسـتاذة إيفـون.

- يـاه يـا انـشراح، الدنيـا صغـيرة قـوي، تصدقـي نفـسي اكلمـه واللـهِ وحشـتني ذكريـات الطفولـة دي، متتعوضـش، معـاكي نمرتـه؟ ولا اقولـك

بلاش احسن مجدي يعمل لي مشكلة.

ـ بِجَد كنت بتسألي عليه ليه؟ أو على إيه يعني بالتحديد؟

- مش عارفة اقول لك ازاي! أصل فيه ناس بيقولوا عليه انه حرامي بيسرق الناس وبياخد فلوس الشعب وانهم تبع أمريكا.

- إيه؟ مين بيقول على مين حرامي؟ ويقصدوا إيه بكلمه حرامي؟ مين هُمّ دول اللي تبع أمريكا؟

- المسيحيين.

- إيه؟ المسيحين تبع أمريكا وبيسرقوا فلوس الشعب؟ انتي جبتي الكلام ده منين؟

- مش مهم مين، بس اصلي بحب عادل باشا قوي وشايفاه راجل محترم جدا، والكلام ده ضايقني قوي.

- بُصي يا انشراح، لو بتسألي عن عادل هيدرا أنا اقدر أحكيلك عن الأسر المسيحية في الصعيد، زي عيله عادل هيدرا وغيرهم كتير، كنت اسمع من ماما، بس هي طبعا كانت بتحكي من باب أنهم بُخلا وانا كنت شايفة انها أسر مكافحة انهم بيعيشوا على المِش والملوحة وبيبعتوا ولادهم يدرسوا في كامبريدج، معظمهم بدأت ثروتهم بنخلّة، تخيلي نَخلّه! ماكانش عندهم فلوس يشتروا أرض اشتروا نخله واحدة، كانوا ياخدوا البلح يبيعوه والستات يعملوا من البلح مربى ويبيعوها ويبيعوا الجريد، وحتى جذع النخلة الهايش بتاعه كانوا بيبيعوه قَش، والفلوس اللي تطلع يشتروا بيها نخلة تانية وتالتة، وبعد كده بدأوا يشتروا الأراضي، بس بصراحة

المسـيحيين كانـت عندهـم فرصـه أكـبر لتعليـم ولادهـم في مـدارس الإرسـاليات، وفي المـدارس دي كان الطفـل يتعلـم اللغـات الأجنبيـه وخاصـه الفرنسـية ومبـادئ المحاسـبة، وكان الطفـل الـلي يبـان عليـه التفـوق أو النبـوغ تـصر أسرتـه انـه يسـافر أوروبـا يكمـل تعليمـه في السـوربون أو كامبرديـج، وكان ده في أحيـان كثـيرة يضطـر الأسرة انهـا تعيـش عـلى المِـش والملوحـة طـول السـنة علشـان يقـدروا يصرفـوا عليـه.

- أمّال ازاي وصلوا للعِز ده كله؟

- الـكلام الـلي أنـا باحكيلـك عنـه ده مـن أجيـال أجيـال قديمـة، مع الوقـت ظهـرت طبقـة مـن أبنـاء الأسر المسـيحية متعلمـة وتعـرف لغـات كويـس، فكانـت فرصتهـا في التوظيـف في البنـوك والأشـغال الـلي ليهـا علاقـة بالـدول الأوروبيـة وتحتـاج لغـات أكـبر مـن غيرهـم.

- وليه المسيحين بس؟ والمسلمين ليه لأ؟

-مـين قـال المسـلمين لأ؟ طبعـا كان فيـه مسـلمين بيعملـوا كـده، بـس المسـيحيين كانـوا مهتمـين أكـتر بموضـوع التعليـم لأن الفلاحـين المصريـين كانـوا بيشـتغلوا في الأرض أكـتر، وأكيـد قُـرب الديانـة برضـه بيكـون سـبب، يعنـي أنـا اعـرف مثـلا أن كتـير مـن الأجانـب الـلي كانـوا مقيمـين في مـصر كانـوا يفضلـوا أن يشـتغل عندهـم أطفـال مسـيحيين لتقـارب الديانـة، علشـان كـده كتـير مـن المِهـن زي صناعـة البمبـون والآيـس كريـم والشـيكولاته والدهـب الـلي كانـوا الأجانـب محتكرينهـا لمـا هاجـروا، الأجانـب معظمهـم سـابوا محلاتهـم للصنايعيـة الـلي

كانـوا شـغالين عندهـم، وكـمان في حاجـة تانيـة معظـم الصاغـة كانـوا مسـيحيين وده اداهـم فرصـة للتعامـل مـع الطبقـات الراقيـة الـلي تقـدر تشـتري الدهـب، ولمـا الابـن المتعلـم كان يرجـع مـن أوروبـا كانـوا بيعرفـوا يلاقـوا واسـطة لتوظيفـه في مـكان كويـس.

- طيب إيه علاقتهم بأمريكا؟

- نفـسي اعـرف جبتـي الـكلام ده منـين؟ مـش عارفـة، بـس اعتقـد ان ده كلام مـش مظبـوط، ده أي كلام في أي كلام، عيلـة عـادل هيـدرا بالـذات عيلـة وطنيـة، جـده كان واحـد مـن أهـم المسـيحيين الـلي وقفـوا مـع سـعد باشـا ضـد الانجليـز، ده حتـى في شـارع متسـمّي عـلى اسـم جـده علشـان الـدور الوطنـي الـلي قـام بيـه ضـد الاحتـلال الانجليـزي.

وبعديـن انتـي إيـه علاقتـك بأمريـكا والمسـيحين والـكلام ده؟ انتـي رايحـة تشـتغلي عندهـم وهُـمّ نـاس محترمـين، أول مـرة اسـمعك بتقـولي حاجـة كـده، ده انتـي طـول عمـرك كوزموبوليتـان يـا انـشراح.

- إيه بقي الكلمة دي؟ وهي تضحك

- يعنـي بتحبـي كل النـاس المسـيحيين واليهـود جريـك وأرمـن، معنديكـش مشـاكل مـن النـوع ده

- آه أحـب النـاس كلهـا إلا أمريـكا الـلي جبتنـا ورا ومـا أحبـش الخاينـين.

أخبار مجدي إيه؟

- تمام

- ومالك بتقوليها كده من غير نفس؟.. متخانقين؟

- لا احنا مش بنتقابل علشان نتخانق، أنا بافكر آخد الولاد وارجع أعيش في فيلتنا في المعادي، البيت مقفول بعد وفاة ماما وبابا، وأنا كده كده لوحدي بشوفه قليل قوي، مجدي مشغول بكل حاجة في الدنيا إلا احنا، في الأول كان مشغول برسالة الدكتوراه مشغول في الجامعة والمحاضرات، وبعدين بقي مشغول بتأسيس وإشهار جمعية استصلاح الأراضي اللي أسسها تبع جامعة الأزهر، وبعدين تقسيم الأراضي وبيعها، ومزراع الموالح والتصدير ومصانع العصير ومنتجات الألبان، ودلوقتي بيفكر ينزل انتخابات مجلس الشعب، سياسة وحصانة ونفوذ وكده يعني.

- ربنا يزيده، وإيه المشكلة؟ على الأقل بيعمل لكم، حاجة، فلوس ومركز مش أحسن من اللي برضه مابيوزّكيش وشّه طول النهار والليل علشان قاعد يحشش على القهوة! على الأقل مجدي مش مخليكي محتاجه حاجة.

- مش عارفة يا انشراح، بس أنا مش لاقية نفسي، أنا فعلا بفكر ارجع اعيش في الفيلا.

- وهو هيرضي؟

- أكيد أنا حاسة انه مش معايا خالص، وهو بصراحة حتى مابيحاولش يقرّب لي بقاله كتيييير.

- شكلك انتي كمان محتاجه قرنين فلفل على الطاسة، لأ تلاتة، الوصفة بتقول تلاتة،

ممكن يكون في واحدة تانيه في حياته؟

- ما اعتقدش، بس بصراحة ماعادتش فارقة، أنا عايزة ارجع لنفسي، بفكر اشتغل بدل ما الدكتوراه بتاعتي محطوطة في الدولاب، أرجع لأصحابي، لدنيتي.

- مش عارفة يا ناهد، بلاش تستعجلي، كده بداية النهاية

- أو يمكن بداية البداية، مش عارفة إيه الصح وإيه الغلط، بس هو مش معايا وأنا تعبت.

- أنا مش عارفة واحدة متعلمة زيَك وبتعرف لغات ليه مش بتحاولي تِقري كُتب عن العلاقات الزوجيه وأسباب الفتور والحُب، دا أنا زمان اتعلمت حاجات كتير قوي لحد النهارده لسه بستفيد منها من مجلة طبيبك، يا ريت أنا بعرف انجليزي وفرنساوي زيك، كنت أكيد فهمت حاجات أكتر.

تذكرت ناهد ما قرأته ذات مرة في أحد الكتب عن أسباب فتور العلاقات :

«إن المحبين المصرين على إجبار الحب على الاستمرار في أكثر أشكاله الإيجابية، يقضون أيامهم في علاقة يزداد تحجرها يوما بعد يوم. إذا لم يستطِع العُشاق فهْمَ دوائرِ التحول ومتى ينبغي أن تموت الأشياء وتستبدَل بها أشياء أخرى، فهُم لن يستطيعوا أن يحِب أحدهم الآخر أعلى أو أبعد من طموح هرمونات الجسد».

ابتسمت ناهد بحسرة قائلة لنفسها حتى طموح هرمونات الجسد لم يعد موجودا عند مجدي.

استكملت انشراح حديثها:

أقولـك أنـا نويـت أسـتغلك لمـا هاجـي لِـك المـرة الجايـة تكـوني اشـتريتي كتـب وتقريهـا وترجميـلي، أنـا اشـتقت قـوي لمعرفـة جديـدة لازم ارجـع اقـرا زي زمـان وعايـزاكي تسـاعديني.

ومـا أن أخـذت ناهـد سـيارتها وغـادرت المنـزل، حتـى جـاءت غـادة في زيـارة غـير متوقعـة، كان يبـدو عليهـا الإرهـاق كأنهـا خارجـة لتوهـا مِـن معركـة.

سألتها انشراح:

-غادة انتي كويسة؟

- لا

-مالك؟ ايه اللي حصل؟

-رموا علينا مَية نار

- إيه؟ ميه نار؟ يا لهوي.. فين؟ ومين دول؟ انتي كويسة؟

- أيوه الحمد لله، كنت خارجة أنا وزميلتي من الـdps

- ايه؟

-الجامعـة الأمريكيـة، كنـا بنعمـل شـوية شـغل هنـاك، واحـد مِـن ضهرنـا بيسـأل لـو سـمحتي يـا آنسـة، لفّـت زميلتـي قبْـلي وأنـا لفّيـت بعدهـا بثـواني، رمـى علينـا مَيـة نـار، هـي جـت في وشـها ورقبتهـا ولأني اتأخـرت نسـبيًا عنهـا مَيَـة النـار جـت عـلى ضهـري وكتفـي، طبعـا صرخنـا ومافهمنـاش حاجـة، اختفـى، فيـه نـاس أخدونـا في عربيـة ونقلونـا مستشـفى المنـيرة.

- مية نار!

كانت انشراح تعيد وتكرر من الصدمة.

ميه نار! ميه نار!

- أيوه يا انشراح، أنا الحمد لله اللبس حماني شوية، كويس اني كنت لابسة جاكيت تقيل، حروق بسيطة في ضهري وكتفي لكن هي حالتها صعبة جدا، الحروق في وشها ورقبتها ربنا يستر

- عملتي محضر؟

-أنا طول اليوم في المستشفى، وبعدين رحت اعمل محضر

-هيه وعرفوا مين؟

دي مش أول حادثة بالطريقه دي، الجماعات الإسلامية يا ستي بيرموا مية النار على اللي مش محجبات واللي خارجين من كليات الفنون والجامعة الأمريكية.

- إيه؟ وهُمَ مالهم؟ يرموا على اللي مش محجبات مَية نار ليه؟ هُمَ فاكرين نفسهم ربنا؟ أستغفر الله!

-بس اقولك على حاجة خفت، من ساعة ما خرجت من المستشفى وأنا خايفة امشي في الشارع، ده حتى وأنا راكبة التاكسي كنت خايفة لدرجة اني قفلت الشبّاك، كان عندي إحساس ان فيه حد هيمد إيديه من الشباك ويرمي مَية النار المرة دي في وشي، وماحسيتش بالأمان غير أول ماوصلت المنطقة هنا.

-وماكلمتيش عادل؟

-عادل هيعمل لي إيه يعني؟ هيعيّن لي حراسة مثلا؟

-لا ما اقصدش، يبقي جنبك يكلّم الظابط يهتم بالموضوع يعني، هو حد مهم برضه هيعمل أي حاجة.

- على فكرة أنا اعرف ناس مهمين غير عادل، بس ماحدش فيهم هيعرف يحميني من واحد يرمي عليا مَية نار في الشارع، انشراح أنا تعبانة والحروق وجعَاني وهدومي محروقة زي ما انتي شايفة، شوفيلي حاجة خفيفة البسها بدل الهدوم المحروقة دي.

خلعت غادة ملابسَها المحترقة، قامت انشراح بمراجعة الحروق وأعطتها جلبابًا خفيفًا واسعًا لترتديه وهي تقول لها:

-تصدقي كنت قلقانة عليكي طول اليوم، وبالرغم من أن ناهد كانت عندي بس كل شوية كنتي بتيجي على بالي.

-ناهد مين؟

ناهد، دكتورة ناهد، وسألتها عن عادل

-مش فاهماكي سألتي عنه ازاي؟ ومين ناهد دي؟ وهي تعرفه منين؟

اتعشَي بس وارتاحي واحكيلك في السهرة

بعد العشاء وفنجان القهوة استطردت انشراح في حكي ما دار بينها وبين ناهد عن عادل

-سألت عن موضوع انه بيسرق الشعب وانه بتاع أمريكا، وطبعا اللي انتي بتقوليه ده افترا اللي أنا عرفته ان جده كان راجل وطني وكان مع سعد باشا ضد الانجليز، وانه مِن عيله مكافحة

- محسساني ان أهله كانوا بيعزقوا في الغيط، مين ناهد؟ وتعرفه منين؟

- ناهد، دكتورة ناهد بنت مصطفى بيه الرزيقي، ده كان وزير.

-مصطفى الرزيقي أستاذ القانون!؟ وزير بَس دا كان الكُل في الكل، ده كان تَرزي القوانين اللي بيفصل لهم كل حاجة علشان يسرقوا البلد وكله بالقانون، طبعا بنته هتقول ايه؟ وانتي تعرفيهم منين؟ كنت بتشتغلي عندهم؟

- لا، ناهد دي أنا مربّياها، كانوا جيران أخويا في المعادي

- وناهد ما قالتش ليكي انهم أيام السادات كانوا بيعملوا بيع لاراضي الدولة والمصنع والشركات الحكومية؟ وان السادات كان بيسترضي أمريكا ويدّى التوكيلات المهمة للمسيحيين؟

- مش عارفة ليه يا غادة حاسة انك مابتحبيش عادل، ده مش كلام واحدة بتحب، الحب بيخلي الواحد يشوف حبيبه أحسن حد في الدنيا، انتي بتدوّري له على غلطة على رأي المَثل مالقوش في الورد عيب قالوا يا احمر الخدين.

-ربنا يهديكي يا بنتي ده بيحبك ومستعد يبيع الدنيا والدين علشانك، فكري في الموضوع.. انتي بتحبي حد تاني؟

- لا

- طيب بتحبّي عادل؟

- لا، يعني، مش عارفة، باحب اهتمامه بيّا، ذوقه، شياكته في تصرفاته، حنانه ساعات بحس اني بحبه وساعات لا

-اسمعي مِني، الحب رزق، نِعمة، ولو رفضتي النعمه هتزول، عادل بيلح عليّ عايز يقابلك، في المكان اللي تختاريه، قابليه مش هتخسري حاجة.

كان إصراره على مقابلة غادة والحديث معها وجهًا لوجه، هو طلبه الوحيد مِن انشراح، التي قررت أن تساعدهما، فهي ترى في نجاح أي علاقه حُب عوضًا لها عن فشلها مع إبراهيم.

استطاعت انشراح أن تؤثر على غادة قليلا، وأن تقنعها أن تعطي نفسها فرصة وأن يَذهبا مع عادل إلى الفيلا التي اشتراها، لتكون بيتًا له ولغادة إذا ما وافقت على الزواج.

كانت الفيلا تقع في هذا المنتجَع الكائن في الصحراء ليس بعيدًا عن الكلحة المسمّى بالقطامية هايتس، أول شيء تذكرته انشراح عندما دخلت هذا المنتجَع وشاهدت الحراسة المكثفة على الأبواب هو منظر ليلى وهي تتباهَى بشقتها في عباس العقاد، حاولت أن تطرد صورة ليلى التي تقتحمها طول الوقت وفي أي مكان، بينما كان عادل يشرح لهما بانبهار ويتحدث عن المشروع، كأنه خبير استثماري فخور بإنجازاته.

«انتم متخيلين الاستثمار الهايل اللي حوّل الصحرا لواحة بالجمال والفخامه دول، انتم عارفين مساحة الكمبوند قد إيه؟ مليون ونُص متر مربع، شفتوا جمال اللاند سكيب معمول بشكل احترافي ازاي؟ ده يأكد أن لاند سكيب ديزاينر متمكن ورا التناغم والتنسيق بين أحجام وأنواع الزرع وبين الممرات والمرتفعات، القطامية هايتس

دلوقتـي تعتـبر أكـبر منتجعـات الجولـف والتنـس في الـشرق الأوسـط وشـمال أفريقيـا، بعـد مـا نشـوف الفيـلا هنروح نـشرب القهـوة في ال clubhouse وبالمـرة افرجكـم عـلى أحسـن ملاعـب التنـس في مـصر تبـع أكاديميـة سـماش».

نظـرت انـشراح لغـادة وهـي كالتائهـة وسـألتها بصـوت منخفـض «ايـه السـكب ده؟»

أجابتها غادة: «الجنينة الزرع»

وعاد عادل مكملا شرحه:

- حـمّام السـباحة ده بقـى بيسـموه أنفينيتـي بـوول، مصمّـم بحيـث يـدّي انطبـاع الشـلال الـلي بيصـب في الفـراغ، والـلي قاعـد في البـوول بيشـوف كل حاجـة مِـن عـلى حرفـه»

وصلـوا إلى الفيـلا التـي كانـت عِبـارة عـن دوريْـن وبيزمنـت وروف، الـدور الأول لـه حديقـة فيهـا حـمَام سِـباحة خـاص بالفيـلا.

اسـتطرد عـادل في شرح كل التفاصيـل كمَـنْ يحـاول أن يقنِـع مشـتريًا بجَـمال بضاعتـه، كانـت عينـاه تنظـران إلى غـادة باسـتعطاف وتوسّـل

«شـوفتوا الشـياكة، البـاب مـن الخشـب البلـوط واخـد لـون تيـك كلاسـيك ومتطعـم بالنحـاس بشـكل رقيـق بـس يعطـي فخامـة والمدخل مرسـوم بالتطعيـم بطريقـة الوتـر جيـت مـن رخـام الترافرتـين علشـان يعطـي انطبـاع انـه أنتيـك» فتـح عـادل البـاب ودعاهـم للدخـول، اتسـاع الصالـة كان مبهِـرًا وكَـم الشـبابيك المصنوعـة مِـن الزجـاج السـيكوريت الملـون الـذي يطِـل عـلى فـراغ أخـضرَ زاد مِـن إحسـاس

الاتساع، قِطع الأثاث كانت موزعة بشكل يبدو عشوائيًا، وعلى مسافات كبيرة وأشكال مختلفة

استطرد عادل في الشرح موجهًا كلامه لغادة:

-أنا عامل هنا Home automation system الستاير والنور والتكييفات والمزيكا كل حاجة ممكن تفتحيها أو تقفليها عن طريق التليفون.

أنهوا جولتَهم في الفيلا ذهبوا جميعًا لتناول الغداء في swing restranut، كان عادل مرتبكًا متوترًا، اقترب مِن غادة وهمس لها:

-أنا مش عارف ليه باكون ضعيف قدامك كده، مش بعرف اقول أي حاجة علشان كده كتبت ليكي الجواب ده.

مد يده في جيبه وأخرج الورقة وأعطاها لغادة.

الحُب لا يعرف وطنًا ولا دِينًا ولا جسدًا، الحياة أقصر مِن أن نضيعها في حسابات لا تهم الرب، لن يغضب الرب إذا ما أحببتك وتزوجتك، إنني سأعيش معك روحًا واحدة في جسدين، سأنفذ مشيئة الرب وأنجِب منكِ أطفالا يعبدونه ويحبونه لأنه أعطاهم الحياة مِن بذرة حُب.. لم أعرف السعادة إلا معكِ

قولي أُحِبّكَ كي تزيدَ وَسَامتي

فبغيرِ حُبّكِ لا أكونُ جميلا

قولي ولو كَذِبًا كلامًا ناعمًا

قَد كادَ يَقتُلُني بكِ التمثالُ

صنعتُ منكِ إلهي، عبدتُكِ، تنازلتُ عن كل أيقوناتي مِن أجلك،

غـادة لم أعـرف الحـب إلا معـكِ أنـتِ روحـي ونصفـي الآخـر

قرأت غادة ما كَتَبَه عادل سرحت قائله لنفسها كأنها تخاطبه

الـربُّ في السـماء ولـو أراد لنـا أن نجتمـع لخلقنـا عـلى ديـنٍ واحـد، إن مـا يحـدث لـك هـو اختبـار لإيمانـك، لا تضلّل نفسـك، لـن تَجنـي مـما ترغب إلا تعاسـة، إن حبـك لي خطيئـةٌ والخطايـا لا تجلـب السـعادة، عـادل هـل تتخيـل أن هنـاك مَـن يسـمح لـك أن تكـون كـما تريـد؟ نحـن نعيـش في مجتمـع لا يعـرف إلا القيود، ولا يسـمح بالبقـاء إلا لمن يرضخ لهـذه القيود، كُلنـا جبَنـاء، تربّينـا عـلى الخـوف أنـا وأنـت، هـل تسـتطيع أن تقـاوم؟

مَـن سـتقاوم؟ أسرتـك؟ مـاذا لـو سـمعتَ أن والدتـك ماتـت مـن الحـسرة إذا علمـتْ أنـك تركـتَ دينـك؟ هـل سـتقدر أن تعيـش بـدون تلـك الـثروة التـي سُـتحرَم منهـا؟

هـل سـتتحمل أن يتلمّـز عليـك الآخـرون لأنـك تركـتَ دينـكَ مِـن أجـل امـرأة؟

هـل ستسـامحني إذا أغضبتُـكَ يومًـا مـا؟ أم أنـك سـتصرخ في وجهـي أننـي لم أكـن أسـتحق أن تـترك العالَـم مِـن أجـلي؟ سـتعيش مهزومًـا مكسـورًا ولكـن الأكـثر قسـوةً مِـن كل هـذا عندمـا تـأتي الشـيخوخة ويقـترب المـوت، ألـن تخـاف مِـن مواجهـة اللـه؟ سـوف تبـكي في سرك مسـتغفرًا ربّـك أنـك في يـومٍ مـا تركـتَ دينـكَ مِـن أجـل امـرأة

حبك لا يهم أحدًا، سعادتك أو سعادتي لا تعني أحدًا

ماذا سيخسر العالَم إذا عاش شخصانِ تَعيسيْن؟

المهم ألا يتمرد أحد، ألا يتحرر أحد

قطع عادل أفكارها قائلا

-سرحتي في إيه؟

-عـادل المشـاعر دي عاملـه زي النبتـة لازم الظـروف تسـاعدها علشـان تكـبر وإلا هتمـوت، هتعمـل الـلي انـت عايـزة وتغيّر دينـك، ولمـا الحُـب يخلـص هتنـدم وسـاعتها أنـا اعمـل ايـه؟ أنـا مـش عايـزة آآذيـك وأضيّع عمـري في تجربـه صعبـة هتنتهـي أكيـد بعـد فـترة بـس بعـد مـا تكـون خـسرت كتيـر.

نظر لها عادل وأجابها بهدوء

_أنا مش موافق، الحب مش بيموت

تدخلت انشراح قائلة: تسمحوا لي أقول رأيي

عـادل أنـا مـش متفقـة معـاك في الـلي انـت عايـز تعملـه، وكفايـه المشـاكل الـلي حصلـت لمـا رحـت الأزهـر علشـان تغيّر دينـك، الحيـاة مـش أبيـض وأسـود، بالعكـس دول اللونـين الوحيديـن الـلي مـش شَـبّه الحيـاة، مـا تضحكـوش.. الرمـادي هـو اللـون الـلي شَـبّه الحيـاة، عارفـين ليـه؟ لأنـه اللـون الوحيـد الـلي مـا بيكشـفش القـذارة.

استكملت موجهةً حديثها لغادة:

غـادة انتـي عنـدك حـق ان الحـب مـش بيقـدر دايمـا يقـف قـدام المشـاكل والخسـارة، عنـدك حـق انـك تخـافي عليـه انـه ياخـد الخطـوة دي ويخـسر كل حاجـة وممكـن بعـد كـده ينـدم.

وجهت كلامها لعادل:

مـش لازم نهـدم حياتنـا وندمـر نفسـنا علشـان الحـب أو نثبـت لـلي

بنحبهم اننا متمسكين بيهم، ليه ما تدورش على حل وسط، على فكرة في بداية الإسلام ناس كتير أسلمت وأخفت إسلامها علشان مايقتلوهمش ولا يعذبوهم، صدقني أحيانا العبادة في السر أصدق، هتستفيد ايه انك تعلن إسلامك وتحارب مجتمع؟ هيطلعوا عينكم هيدمروكم، واوعى تفتكر انك وانت محطم هتعرف تستمتع بالحب ده أو هتقدر تديها حاجة، مش هيسيبوا في روحك حاجة تديها لها.

حبيبتي العمر قصير جدا، مفيش وقت لكل الصراعات دي، الحياة عايزة اللي يحايلها ويحترم قوانينها، والسعادة بتبقي لحظة لازم نخطفها بدل ما تسيبنا وتروح للي بيعرف يمد إيده وياخدها.

طلبت انشراح من عادل أثناء توصيلهما أن تنزل عند موقف ميكروباص السيدة عائشة، لأن الليلة مولد ست فاطمة النبوية، قررت غادة الذهاب معها إلى هناك، كان عادل يود أن يبقى معهما ولكن انشراح اعتذرت له لأن هناك الأهل والأقارب وسيكون غير مقبول وجوده. استوعبَ عادل الموقف وقام بتوصيلهما مشيراً إلى المحمول قائلا:

-اتصلوا بيّا وانتم مروحين ابعت السوّاق يوصّلكم

مولد النبوية عيد سنوي لانشراح، تقابل فيه كل أحبتها وجيرانها القُدامى، حتى هؤلاء الذين تحسّنت أحوالهم المادية وتركوا الدرب الأحمر يأتون في هذه الليلة فلا أحد يتأخر عن النبوية

ما كل هذا الصخب؟ وما كل هذه البهجة؟ الشوارع الضيقة الملتوية تغرّد فوقها موسيقى إيقاعية مزيج من الدفوف وتصفيقات موحدة

مـع أصـوات منشـدة تتزاحـم وتتدافـع كأنهـا في سـباق أيهـم أقـرب إلى مسـامع النبويـة، فرحـي فرحي يـا أُم الحنان، يسـيرون يحملـون لافتاتٍ من القـماش الأخـضر السـتّان المطـرز بخيـوط ذهبيـة كُتِبـت في حـب النبويـة كأنهـا زَفـة عـروس، موكـب جماعـي تتزايـد الأصـوات علـوًا والتصفيـق انتظامًـا وتوحـدًا كلـما اقتربـوا مـن المقـام، يخـترق هـذا الهديـرَ الجماعـي أصـوات جانبيـة لأطفـال يهللـون لا يقـوى صوتهـم عـلى مجـاراة الموكـب، يكوّنـون مجموعاتِهـم الصغـيرة تتخللهـا أصـوات المزامـير والصفـارات بينما تتعـالى الزغاريـد النسـائية الجماعيـة، تدعـم الزخـم المنظـم في محبـة أم الحنـان، تندمـج انـشراح كالباقـين لا وقـت حتـى لتحيـة الأهـل والأقـارب، السـلام فقـط بالعـين فالـكُل يهتـف يـا أم الحنـان يـا أم الحنـان.

يصـل الموكـب إلى المقـام، لا يلتفـت له هـؤلاء الذين اندمجـوا في حلقات الذِّكـر حتـى تاهـوا عـن هـذا العـالم، فـلا لـوم عليهـم ولا هُـم مطالَبـون باتبـاع الموكـب، أجسـادهم تمايلـت وأرواحهـم سـبقت الحاضريـن إلى سِر النبويـة، لا حـرج عليهـم فهُـم يتراقصـون مرتّديـن ملابسـهم الفضفاضـة المغطـاة بالأوشـحة الخضراء تغـرب أعينهم وتلتف رؤوسـهم وأجسـادهم في الحـركات الدائريـة حيـث اللامنتهـي وحيـث الاكتـمال، دقـات الدفوف تـدق عـلى أجسـادهم وتحركهـا، تحـرك كل مـا مـات وكل مـا أُجبِر عـلى الاختفـاء، أصـوات المُنشـدين كزجاجـات خمـر معتقـة سـكبت أنهـارًا فهـرع إليهـا العطـشى والمولَعـون.

جلسـت غـادة بجـوار انـشراح تراقبهـا وهـي تقبّـل الأعمـدة وتبـكي بحرقـة، عندمـا تتذكـر كل مَـن ذهبـوا ولم يعـودوا، حتـى إبراهيـم.

لم تكُن غادة تعوّدت من قبل على زيارة الأضرحة ولا تفهمها، ولكنها شعرت بدفء هذا الجمع الهائل من البشر، قارنته بهذا المكان الواسع الممتلئ بالكراسي الفخمة والعمارة الجميلة والمساحات الخضراء الشاسعة الخالية من البشر.

انتهت الزيارة قالت انشراح لغادة:

اتصلي بعادل يبعت لنا العربية

أجابتها: لا مش مهم

كانت إجابتها مصدر شكٍ لانشراح

-إيه رأيك تيجي تباتي عندي النهارده؟ ما انتي كده كده لوحدك

وفي هذه الليلة الحميمية قامت انشراح بتحضير العشاء ثم فنجان القهوة .

سألتها مباغتة:

- انتي ليه ما اتصلتيش بالسواق بتاع عادل ييجي يوصلنا؟

- انتي فهمتي؟ صح

- فهمت ومش عايزه افهم، ليه ما اتصلتيش؟

-اللي شفته النهارده الصبح ده مش عيشتي ومش بتاعي ومش هاعرف اعيشه.

-ليه مش عيشتك؟ وكانت عيشة مين يعني؟ ده هو البتاع ده اللي كنا فيه النهارده أصلا لسه عاملينه السنة دي، وكل اللي اشتروا هناك كانوا برضه عايشين في شقق يمكن أشيك أو أغلى من شقتك، بس عادي يعني الدنيا بتتطور والناس بتطور نفسها، واللي معاه

فلوس بيحسّن عيشته.

-انتي قُلتيها، اللي معاه فلوس، لكن دي مش عيشتي، دي عيشة عادل وفلوس عادل

-ما انتي هتبقي مراته وحاجته حاجتك

-وافرضي بعد فتره كرهني؟ أبقى أنا اعمل ايه؟ لا هخلّف منه طفل ولا هيكون ليّا أي حقوق، وبعدين أنا ممكن اكون بالنسبة له مجرد حاجة نفسه فيها، ولما ياخدها يزهق منها.

- أنا نفسي اعرف انتي جايبة القسوه دي منين؟ ليه مش مصدقة ان فيه حاجة اسمها حب؟ وبعدين ماشي اعملي حاجات تضمن حقوقك، وانتي ليكي حق في كده لأن جوازكم في السر، وأنا هاكلمه، أنا زي امك يكتب لك الفيلا باسمك ويحط لك مبلغ في البنك بدل المهر يعني، وبعدين ولو اني مبحبّش الأذى، لو قَل بأصله معاكي انتي تقدري تخربي بيته، ده بالعكس عمره ما هيعرف يعمل كده حتى لو فكر، ده روحه في إيديكي، انتي باين عليكي غاوية فقر، حد يرفض الحُب والعز؟

السعادة دي عاملة زي العَجلة بتلف لو مالحقتيش تخطفيها هتروح لغيرك.

تذكرت إيريني وكلماتِها، ضحكت بحسرة قائلة:

«عجلة فورتونا»

****

- 12 -

إنها المرة الأولى التي تقابل غادة فيها ناهد، شيء ما بداخلها ضد ابنة مصطفى الرزيقي ترزي القوانين، وربما كانت غادة استأذنت وغادرت لشعورها بعدم الارتياح لوجود ناهد، ولكن ما أن بدأ التليفزيون في نقل مراسم جنازة ديانا سبنسر، التي هَز خبر وفاتها العالَم، حتى التفوا جميعًا أمام شاشة التليفزيون لمتابعه الجنازة، كما تابعوا جميعًا منذ ستة عشرَ عامًا زفافها الأسطوري.

كان جثمان ديانا في النعش يجوب شوارع لندن قبل وصوله لملاذه الأخير، موضوعًا على العربة الخشب تجرها الخيول ويتقدمها ستة مِن الخيول السوداء، مغلفًا بالعَلَم المَلَكي فوقَه باقات من زهور اللي لي الأبيض، التي وضعها تشارلز وابناها ويليام وهاري، كان النعش محاطًا بأفراد الكتيبة الثانية بزيِّهم الأحمر وغطاءات الرأس الفرو، يتقدم الجنازةَ زوجها السابق الأمير تشارلز وابناها وأخوها، بينما مئات الألوف من المفجوعين بخبر الوفاة المفاجئة وغير المتوقعة للأميرة ديانا أميرة القلوب، يُصدِرون همهماتٍ من البكاء المكتوم ويحمِلون الورود والشموع واللافتاتِ المكتوب عليها عبارات الحب. كانت شاشات العرض في شوارع العاصمة تنقل الجنازة بينما صوت ساحر يغني على الملأ، ساد صمتٌ غريب على انشراح وناهد وغادة ومنال وشيماء ابنه انشراح، عندما

بـدأت موسـيقى بصـوت سـاحر تـودع ديانـا مبـاشرة خـلال مراسـم الجنـازة، تولـت غـادة ترجمـة كلـمات الأغنيـة لانـشراح ومنـال وشـيماء «goodby England rose» وداعًـا وردةً لنـدن، حياتـك كانـت مثـل شـمعة في مهـب الريـح، بينـما بـدأت ناهـد التـي عشـقت ديانـا في الحـكي عـن حياتهـا لبسِـها، أناقتهـا، رقصتِهـا الشـهيرة مـع ترافولتـا، دعمِهـا للسـود والمَـرضَي، ذهابهـا إلى حقـول الألغـام، صراعاتهـا في القـصر المَلَـكي، وتصرفاتهـا التـي لا تناسـب التقاليـدَ المَلَكيـة التـي أثـارت انتقـاداتٍ كبـيرةً، وأكـبر مأسـاة في حياتهـا حُـب تشـارلز لأخـرى وإهمالـه لهـا وطلاقهـا، حتـى نهايتهـا كانـت مختلفـة، حادثـة سـيارة تمـوت فيهـا هـي وصديقهـا المـصري دودي الفايـد في نفـق في شـوارع باريـس! حقًـا شـمعة في مهـب الريـح، دمعـت أعينهـن جميعًـا عندمـا ظهـر عـلى شاشـة التليفزيـون جبـل مـن باقـات الزهـور والشـموع والكـروت والرسـائل الخاصـة، والقلـوب المصنوعـة مـن الـورق المفضـض، والشرائـط والأعـلام، وحتـى لُعَـب الأطفـال غطـت مدخـل قـصر كينجسـتون. عقَبـت ناهـد عـلى هـذه اللقطـة قائلـة:

كل هـذه الملايـين التـي تحبهـا ولكنهـا لم تشـفع لهـا عنـد قلـب تشـارلز، فعشـق امـرأة أخـرى حتـى كادت ديانـا تصـاب بالجنـون.

علاقـة امتـدت لسـنوات وسـنوات جمعـت بـين غـادة ومنـال وناهـد، بـدأت مـع دمـوع ملايـين النسـاء عـلى ديانـا، ووطدتهـا انـشراح برابطـه حـب والتـي جمعتهـن شـهريًا كطقـس عائـلي مقـدس حـول فنجـان قهـوه ، اسـتطاعت ناهـد بحكـم تلـك الصداقـة أن تفاتـح غـادة

بخصوص عادل وتوضح لها كيف ينتمي عادل إلى أسرة وطنية، ولكن هذا لم يغيّر شيئًا من قرار غادة، رفضت الارتباطَ بعادل وامتنعت عن رؤيته تمامًا بالرغم من موافقته على كل الطلبات، أجابت بحزم «مش هاقدر».

أمّا هو فقدْ أجابها برسالة كتَبَ فيها:

«إنني أنتظر تلك اللحظة التي يتوارى فيها خوفك من المجهول أمام رغبتك في البدء، أنتظر تلك اللحظة التي تشعرين فيها أنكِ إنسانة تدركين فيها قيمًا أخرى غير تلك التي يلقونها لنا، قيمًا أكثر حقيقية وفِطرية، قيَم الحب والانصياع لمشاعرنا، ربما لن تدركي هذا إلا عندما تدخلين معركتكِ وتنتصرين فيها، وقتَها ستدركين أن كل ما انتصرتِ له جعلكِ واقفة في أرضٍ جدباءَ لا حياة فيها، وقتَها ستكونين مجبَرة على البحث عن الحياة، عن الحب».

ظَل عادل يطمئن عليها مِن خلال انشراح التي أصبحت في حياته الصديقةَ والأخت الكبرى، كان يتابع غادة ويسهّل لها أمورها ويساعدها في أشياء كثيرةٍ في حياتها، ولم تعلم غادة مَثَلا أن الوظيفة التي تقدمت لها كان عادل السببَ الرئيسي في تعيينها فيها، حتى نشاطها المدني الذي بدأته بعد ذلك كان عادل يحميها ويسهل لها ممارسة نشاطها دون أن تعلم، أما انشراح فقدْ كان عادل قد قرر إبعادها عن أُمه إيفون، التي أدركت بحاسة الأمومة أن انشراح ضليعة في علاقته بغادة، وحدّد لها راتبًا شهريًا وفي الوقت نفسه ساعدها عن طريق علاقاته في أن تعمل عند الطبيبة الإنجليزية

السيدة مادلين، التي تسكن في المعادي ليس بعيدا عن الكلحة، وهو ما سيجعل نفقات المواصلات أقل كُلفة.

****

في بيتٍ مادلين كل شيء مختلفًا تمامًا عما شهدته من قبل، مختلف عن منزل كاترين أو بريان، فهناك كنت تشعر أنك في منزل مِصري مخلوط ببعض أشياء، أمّا هنا فهي الغربة التامة، حتى رائحة هذا المنزل مختلفة، مزيج من روائح الصندل الأرز الريحان الباتشولي، بشكل عملي جدًا تتعرف السيدة على الخادمة الجديدة قائلة: الأستاذ عادل بيشكَر فيكي جدا، اسمك انشراخ؟

تجيبها:

- انشراح

تحاول أن تنطق الاسم بلا جدوى، كل مرةٍ تعيد المحاولة تقول لها انشراخ انزعجت انشراح .

- كفاية يا مدام انشراخ انشراخ انشراخ، ربنا ما يجيب حاجة وحشة.

سألتها مادلين:

- ليه بتقولي حاجة وِحشة؟

حاولت انشراح أن تشرح لها معني كلمة «انشراخ» حاولت أن تجد في المنزل أي شيء فيه شرخ حتى توضح لها معنى الكلمة، لكنها لم تجد قامت مادلين بسرعة وأحضرت قاموس اللغة العربية

وبحثت عن معنى كلمة «شرخ» وقتها نظرت إلى انشراح وقالت:

- لماذا فزعتِ عندما نطقت هذه الكلمة؟

- ده فال وِحش، احنا المصريين عندنا لو في طبق مشروخ أو كوباية لازم نرميهم علشان ده بيجيب النكد.

كانت الدهشة في عين مادلين إلى أبعد الحدود، هل يعرف المصريون قانون الجذب؟ هل يؤمنون بهذه النظرية التي تقول Where intentions goes energy flows؟ تتدفق الطاقة حيث يتوجه الانتباه، ضحكت في سرها قائلة إن انشراح سوف تفيدني كثيرا.

نظرت إلى انشراح وقالت:

- أوكي، هناديكي انشرا

أُعجبت انشراح باسمها الجديد، كانت سعيدة بهذه الآتية من بلاد التقدم والعِلم والحضارة، وبالرغم من حدتها الخارجية، لمحت داخلها انشراح إنسانة رقيقة حنونة أحيانًا غريبة تملك من التصرفات الشاذة أو غير المألوفة، ولكن انشراح كانت تعلل ذلك بأن لكل شعب طباعَه.

- انشرا، أنا سيدة منظمة جدًا، كل شيء لا بُد أن يوضع في مكانه، لا يجوز لكِ تغيير مكان أي شيء، تسير أمامها لتوضح لها أهمية بعض الأشياء، تشير إلى برطمانات زجاجية مملوءة بالمياه إحداها تحت السرير وأربعة أخرى في أركان الغرفة، قائلة لها: هذه البرطمانات لا بُد أن تغيّري المياه فيها كل يوم وتُضيفي لها قَدرًا مِن المِلح، ثم تعيدي وضعها في الترتيب نفسه، السرير يقع في

منتصف غرفة النوم، لا يجب تحريكه ولا سنتيمترًا واحدًا.

أمّا مِرآة التسريحة فكانت مغطاة بقطعة قماش داكنة ترفعها الخواجاية عند احتياجها للنظر في المِرآة، ثم تسدل قطعة القماش مرة أخرى .

- هذه القطعة الداكنة لا ترفعيها أبدًا

كان هناك على مدخل المنزل مِرآة شكلها غريب، ذات شكلٍ هندسي ثمانية أضلاع ومرسوم عليها أيضًا أشكال غريبة، بها مِرآة محدّبة في المنتصف، أشارت مادلين إلى انشراح:

- هذه مِرآة البكاوا لا ينبغي لكِ أن تلمسيها

وجدت انشراح أيضًا ثماني عُملات مضفرة بشريط أحمر ومُعلّقة بجوار النافذة، أشارت لها مادلين:

- هذه النافذة يجب أن تظل مفتوحة طوالَ الوقت

أعطت مادلين لانشراح بعض التعليمات أيضًا، غلْق باب الحمّام دائمًا، وضْع غطاء التواليت وعدم ترك المرحاض مكشوفًا أبدًا، لا يجوز أن يوجد أي تراب على أي جزء في الشقة، هذا بالإضافة إلى الالتزام التام بالمواعيد.

أنهت مادلين تعليماتِها قائلة:

-أهم شيء يا انشرا بعد كل ما قلته أنه يجب عليكِ أن تمسحي الشقة يوميًا بالماء والمِلح.

نظرت انشراح مذهولة إلى هذه القادمة من بلاد العِلم والتحضر تؤمن وتفعل ما كانت تفعله نرجس قائلة في سِرها «واضح ان مش

بس جدتي اللي جاهلة ولا ان المصريين بس هُمّ اللي عندهم تخاريف، وواضح ان الخرافات دي موجودة عند الناس كلها حتى الإنجليز!»

كانت مادلين عندها عادات أخرى غريبة، منها أنها كانت تأتي بكلب ثم تُطلِقه داخل الشقة وتنتظر أين سيجلس الكلب، ثم تقوم بعد ذلك بوضع كُرسيها الهزاز في المكان نفسه الذي اختاره الكلب، والعكس تأتي أحيانًا بقِطة وتتركها في المنزل فإذا اختارت القطة مكانًا لتجلس فيه فإن السيدة تقوم بوضع قصاري الزرع والورد في المكان نفسه الذي اختارته القِطة، إنها ذكريات شديدة البعد نَسيتها سنواتٍ طويلة وتعاملت معها على أنها جهل مِن جَدتها، وهي الآن ترى هذه السيدة الأوروبية المتعلمة تفعل ما كانت تفعله جَدتها، تمسح الأرض بالماء والمِلح، تصرخ في انشراح عندما تجدها أمام المِرآة قائلة لها ماتبصيش في المراية كتير احسن تتجنني

تتذكر جَدتها وهي تُذكّرها دومًا بغلق باب الحمّام، ووضع حَلة على عين الحمّام، ذكريات شديدة البعد لم تهتم بها انشراح ولم تفهمها كما لم تفهم مطلقًا كيف تحل الباذنجانة مشكلةَ إنسان

«لقد حيّرتني هذه الباذنجانة منذ طفولتي تأتي جَدتي بمنتهَى الحماس قائلة:

انزلي يا انشراح هاتي كيلو بتنجان عشان نخلص مِن النكد اللي في البيت ده وتعالي بسرعة قبل ما حد ييجي»

تَجري انشراح إلى السوق، وجهها شديد الجِدية، طفلة في مهمة رسمية سرية، تشعر بنظرات خَضرَة بائعةِ الخضار تراقبها، أكيد هذا

ليس اسمَها الحقيقي ولكنهم هناك في درب شغلان اعتادوا على تلك الأسماء، بائعة الخضار خضره، السمكري بِليّه، صاحِب دكان الجبنة والمِش والمربّي حلاوه، أمّا هيام الراقصة اسمها هيام سوسته، وتاجِر البوظه اسمه الباشا، أحيانًا كانت الطفلة تتلكّأ في طريق العودة وخاصةً عندما تمُر بجوار منزل هيام سوسته، تقترب مِن شُبّاك غرفتها الذي تستره قطعة قماشٍ مهترئة، تمعن النظر مِن خلال قضبان الشبّاك الحديدية في شكل التسريحة وكَمّ أدوات الزينة الموضوعة عليها وعدد الباروكات، مِن الشبّاك تشب على أطرافها حتى تتمكن مِن رؤية حُجرة هيام سوسته بتفاصيلها الأنثوية المثيرة التي لم يكُن عند أُمها أو جَدتها أبدًا ما يشبهها، ولكن دائمًا صوت أُم قويق - كما كان أطفال الحارة يطلقون عليها لشراستها في التعامل معهم - يقطع هذا التأمل صارخة فيها «امشي على بيتكو يا بت يا انشراح، لو أمك شافتك هتنسل الشبشب على جتتك، لا يكون نفسك تطلعي رقاصة زي مرات ابوكي! دي أمك تموت من الغيظ؛ أمّال هتعايره بإيه؟»

لم أصدق يومًا أن الباذنجان هو بيض الجان كما كانت نرجس تقول دائمًا، وأن رائحة شيه على النار تُذهِب النكدَ وتفك السحر حتى ذلك اليوم الذي طلبتْ مِني مادلين أن أضع باذنجان على النار، ولكنها بخلاف جَدتي طلبتْ مِني أن أُحضِر باذنجانتيْن إحداهما بيضاء اللون والأخرى سوداء، وأن أضعهما على خلاف بعضهما البعض بحيث يكوّنَانِ معًا شكْلا شِبه دائري ثم أضعهما على النار. سألتها لماذا؟ فقدْ أصابني الفضول، مادلين تفعل كما كانت تفعل جَدتي وعندما سألتها

عن السبب أجابتني أن الباذجان هو «اليانج والين» الأبيض والأسود يكوّنانِ معًا دائرة الحياة وبشوْيِهما على النار تتجدد الحياة وتتحسّن.

وأنا أيضًا أشعر أن حياتي سيئة، حَسن دائمًا في غرفته التي دخلها منذ الأشهر الأولى مِن زواجنا، أسمع آهاتِه وتأوهاتِه على أصوات أنثوية تعدت على زوجي وغرفة نومي وفراشي، أمّا أنا فاعتدتُ على تلك الأصوات التي كنت أسمعها مِن الكَنَبة التي أنام عليها في الصالة سأفعل ما كانت تفعل جَدتي وتفعل مادلين، سأقوم بِشَيّ الباذنجان وسأصدق ما قالته لي نرجس أن رائحته تجلب الطيبين إلى المنزل.

كان العمل عند مادلين سببًا كافيًا لأن تعيد انشراح النظر في علاقتها بنفسهاو بجَدتها وبما كانت تفعله، وخاصة بعد أن شرحت لها مادلين أن هذه العادات هي عادات سليمة، تفسرها علوم الطاقه، وأن كثيرا مما يعتبره الناس معجزات وخوارق، ما هو إلا ظواهر يكشف العلم أسبابها المنطقية بالتدريج، حتى موتها المتكرر الذي جعل الجميع يثق بأنها تملك شيئا خارقا، فسرته لها مادلين علميا، وأن ما يحدث معها كان شيئًا عِلميًا يفسره العلماء بظاهرةٍ يسمونَها أو- بي - إي O-B-E Out Of Body Experince بمَعنى «خبرة خارج الجسد، ولكن المدهش أنها عندما حاولت شرح هذا التفسير للجميع، اعتبروا أنها تخفي عليهم قدراتها وتبخل عليهم بالمساعدة.

****

- 13 -

احتلـت غـادة مـكانَ منـال تدريجيًـا في الغرفـة القابعـة بـين غرفـة حَسـن وغرفـة الأولاد، بعـد أن بـدأت غـادة في تحقيـق حُلمهـا وعمـل دروس محـو أُمية بالمجـان في منطقـه الكلحـة، تشـارَكتا المـكان قليـلا، ولكـن منـال أصبحـت تتغيـب كثـيرًا مـا بـين إقامتهـا المتقطعـة عنـد أمهـا في بـاب الشـعرية، وسـهراتها التـي تنتهـي عنـد حلـول الصبـاح، تـأتي بعدَهـا إلى انـشراح، تغـيرت منـال كأن الحـزن أضـاف لهـا مسـحة جـمال خاصـة، فأصبـح كل مَـن يراهـا مِـن الرجـال يشـتهيها، لا أحـد يعلـم هـل هـذا بفضـل مـا صنعتـه لهـا انـشراح مـن وصفـة، أم بسـبب مـا كانـت تملـك مِـن جـمال وحـلاوة، لكـن المؤكـد أنهـا قـررت ألا تظـل هـي الفتـاة الفقـيرة التـي تعيـش عـلى السـطوح في بـاب الشـعرية، أو تَقبَـل بعريـس مِـن مقاطيـع قهـوة الطشـطوشي، كانـت الفـترة التـي قضتهـا مـع طـارق كفيلـةً أن تعـرف أماكـن الكافيهـات والبـارات التـي ترتادهـا هـذه الطبقـة، قدمـت نفسـها في كل مـكان طليقـة رجُـل الأعـمال طـارق عويضـة، كان هـذا اللقـب بطاقـةَ مـرورٍ داخـل هـذا المجتمـع، كـما أن منـال امـرأة «حِرشـة» في لغـة رجـال هـذه الطبقـة، والتـي تَعنـي مِـن وجهـة نظرهـم تلـك التـي تملـك أصـولا شـعبية، ولكنهـا تجيـد تقديـم نفسـها كسـيدة مجتمـع.

لم تتـوانَ عـن أن تكـون جريئـة وقَحِـة مـع هـؤلاء الرجـال، وفي أقـل

من سَنة ضاجعت منال كثيراً مِن رجال الأعمال المعروفين، ولكن بعد أن تعاشِر الرجُل مرة تختفي ولا ترد على تليفوناته، وإذا قابلها صدفة تتجاهله أو تنظر إليه نظرةَ احتقارٍ، لم تفهم انشراح ماذا تفعل منال؟ يلاحقونها بهدايا الذهب والألماظ والسيارات، حتى عروض الزواج، جميعهم يعرفون انشراح وعنوان منزلها، حيث يقومون بتوصيل منال إليها بعد السهرة، وكثير منهم يعرف رقم تليفون منزلها يُمطِرون انشراح بالتوسلات وطلبات التدخل للواسطة في إقناع منال، يتركون مع انشراح مفاتيح السيارات والشاليهات والشقق، تَعِدهم انشراح بالتدخل ولكن دون جدوى، فمنال ترفض كل شيء، لا تريد الارتباط بأي شكل من الأشكال حتى لو مجرد علاقة.

منزل انشراح هو محطة الوصول، بعد كل سهرة تحكي لها مع مَن كانت وكيف قضت سهرتها، وأحياناً إذا كانت راضية عمَن معها تدعوه إلى الصعود إلى منزل عمتها لشرب فنجان من القهوة، حَسن لم يعترض على كل هؤلاء الضيوف الذين تستدعيهم منال، بل كان يدافع عنها وعن زوجته إذا تطفل أحد من الجيران أو الأقارب وعلّق على زيارات منال الليلية بصحبة رجال مختلفين، لدرجة أن انشراح شكّت أنه ربما يُحِب منال، ولذا يوافق على كل ما تفعله حتى ولو على حساب سُمعتِه، في الحقيقة ما كانت تفعله منال لم يُرضِ انشراح، لأنها عندما عملت لها الوصفة كان هدفها أن تجد منال لنفسها فرصةَ زواج جيدة مِن وسط هؤلاء المعجبين، ولكن

ليس أمامها إلا أن تتحملها وتصبر عليها، بل وتتحمل مِن أجلها لَمَزات وغمزات الأهل والجيران وتدافِع عنها وعن نفسها قائلة:

منال عاملة زي الطير المدبوح، سيبوها تفرفر، حتى الفرفرة مستكترينها عليها؟

ولكن عندما علمت أن منال ضاجعت أعز صديق لطارق، مِن الممكن القول أنه صديق طفولته، وقامت بتصويره معها في الفراش وأرسلت لطارق الصور.. وقتَها جُن جنون انشراح، كانت تشعر أنها المسؤولة عن كل هذا الانهيار، نَعَم تعلم أن أصل الوصفة أن كل مَن يراها مِن الرجال يشتهيها جنسيًا ، ولكنها تصورت وقتَها أن منال ستستغل هذا وتختار لنفسها زوجًا مناسبًا، كانت تشعر بالذنب وكانت مضغوطة، لدرجة أن رأت في منامها كأنها انهالت على منال بالتوبيخ قائلة:

«أنت تقطعين كل الخيوط وتؤكدين له كل ما قالته ليلى عنكِ، إذا كنتِ متصورة أنكِ تثيرين غيرتَه فإنني أؤكد لكِ أنكِ تثيرين قرفَه ورفضَه، ثم قولي لي كيف قَبِل هاني أن يخون صديقَه؟!

بدت منال في الحُلم كأنها خبيرة عالِمة بأسرار الرجال، وردت عليها ببرود امرأة محنّكة:

ما الخيانة في علاقتي بهاني؟ لا توجد خيانة، أنا لم أعُد زوجة طارق، أمّا كيف وافق هاني فلماذا تتعجبين؟

تأكدي يا انشراح أن أي امرأةٍ في العالَم مهما قلت درجة جمالها، تملك ليلة مع كل رجُل في العالَم إذا أرادت. الليلة الأولى لها كأنها

حـق أو مِلـك، كأن الطبيعـة أهـدت كل امـرأة ليلـة مـع كل الرجـال، لا يوجـد رجُـل مهـما عظُـم يرفـض الليلـة الأولى، وعـلى المـرأة ألا تكـون غبيـة وتسـعى إلى الليلـة الثانيـة، لا أريـد مـن الرجُـل غيرَهـا تلـك الليلـة التـي يأتينـي فيهـا راغبًـا شَرِهـا مُحِبًـا، ولا بُـد أن ينتهـي المشـهد عنـد تلـك الليلـة، مشـكلتك يـا انـشراح أنـكِ تحكمـين عـلى الرجـال مِـن خيالـك وتتصورينهـم، وتتعاملـين معهـم مِـن خـلال الأغـاني والأفـلام ومقـولات جَدتـكِ ونصائـح أُمـك، تعـالَي معـي السريـر لتتعلمي مَـن هـو الرجـل! هنـاك عندمـا يكـون عاريًـا مِـن كل شيء تسـتطعين رؤيـة الحقيقـة!

إذا أردتِ أن تتعامـلي مـع الرجُـل فـأول الـدروس أعطيهـا لـكِ، لا تسـتمعي إلى مـا يقولـه هـو، إن هـذا الكائـن تحركـه أشـياء أخـرى لا نعلمهـا نحـن ولا يعلمهـا حتـى هـو عـن نفسـه، ولا تكـوني كالأغبيـاء وتتصـوري أن مـا يحركـه هـو الجنـس، إنهـا الخدعـة التـي يـروِّج لهـا الرجـال حتـى لا نفهمهـم، الخدعـة التـي صدقناهـا وحوّلنـا أنفسـنا إلى دُمَـى أو عرائـس متحركـة يحركونهـا بخيـوط تُمسِـكها أيديهـم، فنرقـص لهـم وقتـما يريـدون ونحـن واثقـات أن هـذا مـا يجعلنـا نملكهم، نَسِـينا أن الرجُـل مخلـوق بداخلـه فِطـرة المحـارِب، وهـل يَهـوى المحاربـون أن يقضـوا حياتَهـم في تحريـك دُمَـى؟

إنهـم يملكـون الرغبـةَ الأكيـدة في البقـاء، والقـدرةَ الهائلـة عـلى تلقِّـي الضربـات والاسـتمرار، يتعاملـون معهـا بحكمـةٍ وقـوة لأن الهزيمـةَ تَعنـي المـوت، حبُّهـم للحيـاة وإحساسـهم بهـا يفـوق إدراكنـا، مـا

يجعلنا نتصور عنهم اللامبالاة، ولكن في الحقيقة هم يعلمون أنهم لا يملكون رفاهية الانهيار أمام أي ضربة...

في السرير تكتشف المرأة هذا المحارب، فقط عليها ألا تكون مجرد دُمية.

ربما تتصورين أنني أبالغ، لقد تخلى عني طارق لأنني كنت مجرد دُميةٍ راقصة، ولكنني الآن بعد أن فهِمت طبيعة المقاتِل أستطيع أن اقول لكِ بكل ثقة

سيأتي طارق يومًا ما راكعًا، حتى بعد أن رأى صوَري في الفراش مع هاني».

استيقظت انشراح من نومها وبداخلها رفض عجيب لتلك المرأة الجافة، وحمدت الله أنه كان مجرد حلم ولأول مره تتمنى ألا يعود طارق لمنال.

وكأن القدر يلعب لعبتّه، قررت منال أخيرا الزواج، اختارت أحد رجال الأعمال أو بمعنى أصَح أحد التجار الأثرياء، كان يكبرها بفارق عُمْر كبير جدا، لم تفهم انشراح اختيارها وهي التي كان بمقدروها الزواج بمن هم أكثر شبابا وجاذبية منه، انتقلت لحياة جديدة معه كأنها تركت مكانَها على الكَنَبة لمرزوق، أمّا الجزء الثاني مِن الكَنَبة المصمَمة على شكل حرف L التي تقع في الصالة بين غرفة حَسن وغرفة الأولاد، والتي ظلت لفترة طويلة لغادة التي تركتها أيضًا بعد أن أتمت برنامج محو الأمية، تركتا الكَنَبة التي ظلت تستضيفهما سنواتٍ ليست بالقليلة، وكانت شاهدًا على كثيرا من

انكسـاراتهما وخيباتهـما، حتـى تسـتقبل مـرزوق وزوجتـه أم لقـاء وابنتَهـما، والذيـن عـادوا إلى مـصرَ هربًـا مِـن الحـرب والغـزو الأمريـكي، بعـد أن سـقَط تمثـال صـدّام في بغـدادَ، كان مـرزوق يحـكي وهـو يبـكي وصوتـه مَـليء بالانكسـار وتشـعر أن قلبـه يسـقط عـلى الأرض، مـع صـوت السـقوط المـروع للتمثـال تسـمع صـوت ارتطـام قلبِـه، لم يكُـن لمـرزوق وزوجتـه مـأوى عنـد عودتهـما فمنـزل درب شـغلان قـد تركتـه حيـاة وانتقلـت إلى السـكن مـع انـشراح حتـى وفاتهـا، سـيد أيضًـا مات، وأبنـاؤه لا يعرفـون مـرزوق وليـس مِـن الطبيعـي أن يقيـم عنـد ليـلى.

الكَنَبـة الواقعـة بـين غرفـة حَسـن وغرفـة الأولاد، كانـت الملجـأ الأول والمؤقـت لمـرزوق وأم لقـاء، حتـى يسـتطيعانِ توفيـق أوضاعهـما وتدبير مسـكن وعمـل، كـما كانـت ملجـأ للكثيريـن قبلهـما وبعدهـما.



- 14 -

خرجتْ مِن حجرتها شِبه عاريةٍ لا يكسوها إلا ورقة توت، متهدلة الثديين، شامخة النظرة، تتحرك بكل حريةٍ وتلقائية كأنها بكامل ملابسها، تنادي على الشغالة والطبّاخ، وتستدعي السائق لتعطي لهم تعليماتِها اليومية، لم يستوعب أحد ماذا حدث! الدكتورة تجلس على الكرسي جلستَها الصباحية المعتادة، تلف ساقًا على ساق، تشعل سيجارتها، تطلب مِن الشغّالة بهدوء أن تصنع لها فنجانًا مِن القهوة، كل شيء عادي، الطقوس الصباحية اليومية نفسها، الفَرق الوحيد أنها عارية، لم يجرؤ أحد من الصدمة أن يتكلم، ربما كان هدوؤها وتلقائيتها هما ما جعلهم ينكرون ما ترى أعينهم، تلعثّموا، وضعوا وجوّهم في الأرض خجلا من النظر إليها، حاولوا أن يتماسكوا أمام هذا المشهد الغريب، أمّا هي فكانت مستمرة في إعطاء التعليمات بداية للطباخ فقدْ طلبت منه أن يحضر لها على الغداء تيبيناكي الذي أصبحت تعشقه الفترة الأخيرة، لدرجة أنها أرسلت طباخهَا في دورة متخصصة لتعلُّم أصول الأكل الياباني والصيني، بدأت تشرح للشغّالة ما يجب عليها أن تفعله، تعطي للسائق برنامج خط السير اليومي، مضت دقائق قليلة لم يسمع فيها أحد ما قالت، ذهبَ تأثير الصدمة التي ألجمتهم جميعًا، أخذ كل منهم يستوعب الموقف، الطباخ شرد في جسدها العاري

تمامًا أمامه بكل مفاتنه كأنه في حُلم ألف ليلة وليلة، نَعَم الأميرة مِلك يديه تقف عاريةً أمامه، ولكن الغريب أنه لم يتحرك له ساكن، حاول أن يستغل هذه الفرصةَ ليستمتع قليلا ولكن صدمة الواقع جعلته لا يشعر بأي شيء، بل بدت له لوهلةٍ أنها تشبِه البقرةَ التي اقتناها يومًا ما عندما كان يعيش في قريته الصغيرة ورآها منفرة!

تأكدت الخادمة في قرارة نفسها أن الدكتورة جُنَت، قررت أن تساير أمورها وتتحجج أنها ذاهبة لتشتري أي شيء، ستخرج ولن تعود هربًا مِن هذا الجنون.

أمَا السائق فكان تفكيره الوحيد كيف ستخرج الدكتورة لقضاء مشاويرها بهذا الشكل؟ تَخيَل نفسه يقود السيارة وهي تجلس في المقعد الخلفي كعادتها هادئة لا تتكلم، ترتدي نظارتها وتقرأ شيئًا ما في كتاب أو جريدة، لا تتكلم معه على الإطلاق، لقد أملت عليه البرنامج اليومي كعادتها، سوف يذهب إلى الجامعة ثم إلى إحدى المؤسسات الخيرية، ثم إلى زيارة صديقتها ثم... ماذا سيفعل؟ وكيف سيتصرف لو قررت أن تخرج بهذا الشكل وهي السيدة الفضلى التي لم يرَ منها أي تصرف مسيء؟ ماذا حدث لها؟ لا لن يَقبل هذا، لن يتحرك في شوارع العاصمة يقود سيارة لامرأةٍ عارية.

دَق جرس الباب، التفت الجميع رعبًا، ماذا سيفعلون؟ هل يفتحون الباب؟ نظر بعضهم إلى بعض، أجابت السيدة بهدوء

افتحـوا البـاب، لم يسـتجِب أحـد، قالـت بلهجـة آمِـرة افتحـوا البـاب.

كانـت انـشراح، لم يكـن أحـد مِـن العاملـين بالمنـزل يعـرف أصـل هــذه العلاقــة، تصــوروا أنهــا ربمــا كانــت مِــن إحــدى المؤسســات الخيريـة التـي تتـولى إدارتهـا الدكتـورة أو مـن أحـدي أقاربهـا مـن البلـد ممـن يطلبـون المسـاعده ، ولكـن كل مـا كانـوا يعرفونـه أن الدكتـورة تُكِـنّ لهـا كل الاحـترام، فلـم تسـمح لأحـد أبـدًا أن يناديهـا باسـمِها، وكانـت تعرفهـا دائمـا بأنهـا «الحاجّـة» مـع عِلـم الـكُل أنهـا لم تَحُـج، تَدخـل انـشراح مبتهجـةً كعادتهـا، ولكـن مـا أن رأت ناهـد عاريـةً حتـى صرخـت فيهـا:

-فيه إيه؟ قاعدة كده ليه؟

أجابتها ناهد بهدوءٍ مفتعَل:

-مافيش حاجة يا انشراح عادي

استدارت انشراح لكل الموجودين صارخةً فيهم:

- هـو معـادش فيـه ضمـير؟ سـايبينها كـدا وقاعديـن تتفرجـوا عليهـا؟ معندكـوش ولايـا؟ حسـبي اللـه ونِعـمَ الوكيـل

وبحركــة لاإراديــة ســحبت انــشراح مفــرش الترابيــزة ولفّتهــا بــه، حاولـت ناهـد أن تقـاوم انـشراح، تفوهـت بكلـمات وجُمَـل مِـن قبيـل إيـه الـلي انتـي بتعمليـه دا؟ أنـا حُـره، أنـا ماسـمحلكيش، أنـا عملـت إيـه يعنـي؟ بيَنـت جسـمي؟ عـادي زيّـه زي الترابيـزه مافيهـوش حاجـة، مابيحركـش حـد، مـا بيثـيرش حـد».

ولكــن انــشراح كانــت أقــوى منهــا، لم تستســلم لمقاومتهــا، لفّتهــا

بالمفرش وأخذتها في حضنها بحنان أُم تحمي ابنتها، وضعت يدها على فمِها حتى لا تكمل ما تقول أمام الشغالين.

طلبت منهم الانصراف، أخذت تفكر كيف تنقِذ ناهد مِن هذه الفضيحة، فهؤلاء الشغالون مؤكد سيحكون لمَجدي أو لأولادها وللجيران والبوّابين، وحتى إذا لم يحكوا كيف ستكون نظرتهم إليها؟ وكيف سيعاملونها بعد ذلك؟ كانت انشراح تعلّم جيدًا أن مجدي هجر ناهد منذ فترة طويلة، ولكن هل مِن المعقول أن يكون هذا السبب؟ ما الذي فجّرَ الموقف حتى تصل إلى ذروة الانهيار؟ ولكنَ مهما كان السبب وقوته فلن ينقذها مِن أن تسوء سُمعتها وأن تلوكها الألسنة حتى لو قالوا جُنَت، فالجنون في حد ذاته وصمة. نظرت انشراح إلى الطباخ قائلة:

-الحقني بسرعة ببتنجانة سودة وحطها لي على النار.

أمّا السائق فأمرته:

اذهب بسرعة للعطار وهاتلي من عنده كف مريم وبخور جاوي و..»

لم يتحرك أي منهم مِن مكانه، ظلوا ينظرون إلى انشراح بذهول، صرخت فيهم قائلة:

-اتحركوا بسرعة، الدكتورة ملبوسة بواحدة خوجاية عايزاها تمشي على حَل شَعرها»

احتجت ناهد مقاطعة انشراح:

- ملبوسة إيه وتخاريف إيه؟

لم تُعطِها انشراح فرصة، قالت وهي تنظر في عينيها نظرة بقوةٍ وحسْم معناهما «اسكتي»

«أيوه ملبوسة بواحدة خوجاية، انتي ماتعرفيش حاجة، أنا اللي بعرف في الحاجات دي، اسكتي واسمعي الكلام».

كان جميع الخدم والسائق يعملون بهمةٍ لتنفيذ كل ما طلبته انشراح، وضَع الطباخ الباذنجان الأسود على النار وهو يتعجب مِن هذه المرأة التي تملك هذه الحِيَل، رائحة البخور الجاوي تملأ الفيلا حتى تعذرت الرؤية مِن كثرة الدخان، طلبت مِن ناهد أن تدخل غرفة نومها وأن تسترخي على الشازلونج، أغلقت عليهما الباب، وقف الطباخ والسائق والشغالة خلف باب الغرفة كي يتنصتوا، انشراح كانت متأكدة أنهم سيفعلون ذلك، تركتهم حتى يسمعوا ما أرادت إيهامَهم به، خَفّفت نور الغرفة، ظلت تقرأ آياتٍ قرآنية وتهمهِم بجُمَلٍ غير مفهومة تتخللها كلمات هي قَوي.. قادر.. لا ينام.. نَعَم... طلباتكم مُجابة في ما لا يُغضِب الله.

استرخت ناهد على الشازلونج مستسلِمة لانشراح، سألت انشراح كأن هناك أشخاصًا آخرين في الغرفة توجِّه لهم السؤال:

- بتعملوا فيها كدا ليه؟ دي سِت طيبة وعمرها ما أذتش حد

بالطبع لم يجِب أحد، أعادت السؤال، وبالطبع أيضًا لم يجب أحد.

أجواء البخور تهيمن على المكان، انشراح موجهة حديثَها إلى ناهد:

- انتي سليمة، ماتخافيش بس احنا مش عايشين لوحدنا على

الأرض دي، ربنا خالق مخلوقات حوالينا، وساعات هُمّا بيعملوا معانا مقالب لو احنا زعلناهم في حاجة، عشان كدا لازم نصالحهم ونعمل رضوة، والبخور دا هو الرضوة بتاعتهم، نامي دلوقتي وارتاحي وبعدين نتكلم، بس ماتطفيش البخور دا، سيبيه لمّا يتطفي لوحده.

استراحت ناهد وبدأت تطمئن وتَدخل في النوم كطفلٍ هدهدته أُمه، خرجت انشراح من الغرفة، جلست في الصالة تدخن سيجارتّها وقلبُها يعصره الحزن، هل مِن الممكن أن تكون ناهد ابنة الدكتور مصطفى الرزيقي، تلك الفتاة التي ملأت المعادي ضجيجًا وصخبًا بحيويتها وجمالها وعلمها وثقافتها الواسعة، ضعيفةٌ إلى هذا الحد فتصدق خرافاتي التي ابتدعتُها حتى أنقذها مِن ألسنة الشغالين؟ هل لهذه الدرجة كسَرها رجُل؟ هل إهمال مجدي لجسدها يصل بها لهذه الدرجة؟

أصبحت ناهد هشةً، نَعَم فقدت ناهد ثقتها بأنوثتها وبنفسها، فقدت أصلا الإحساس بأنها أنثَى وأنها مرغوبة وأنها تملك جسدًا ربما يشتهيه رجُل، لدرجة أنها خرجت على الرجال عاريةً دون أن تشعر بالخجل. ناهد على حافة الجنون، أخذت انشراح تفكر كيف تنقذها، إن علاج ناهد الوحيد أن يقع في غرامها رجُل ترتضيه وتحبه، يعيد لها ثقتّها بنفسها، ولكن مِن أين تأتي انشراح بمثل هذا الرجُل؟ وهل تستطيع أي قوةٍ في العالَم -حتى السحر- أن تجعل أحدًا يحب أحدًا؟.

****

- 15 -

كان لقاءً همجيًا جمَع بينهما، وما المانع؟ فالهمَج أيضًا يتحابون ولكن بطريقتهم، لو كان مهذبًا وسيمًا، لو كانت متحضرةً راقية لَمَا كانا تجانَسَا، نظرت إليه نظرة سافِرة، عضت على طرف شفتيها وخاطبته:

- إنت يا...

أجابها بطريقتهم:

-عايزه إيه يا بت؟ عينك مِني ولا إيه؟

أجابته:

- هو البعيد حمار؟ مابيفهمش؟ أُمال أنا عورت شفايفي عليك ليه؟ مش علشان أعرّفك ان انت اللي مَليت دماغي!

ركبا معًا الميكروباص ودفع لها الأجرة وتكمل حديثها:

- عايزاك في مصلحة.

ابتسم ابتسامة عريضة فقالت:

-لا مصلحة بجد، الهزار ده ييجي بعدين

****

- زوبة.. المشهورة بـ«زوبة انت يا...»

-عمتي

-اعملي لي وصفة مِن بتوعك، عايزة الواد وليد ييجي تحت رِجليا

-وليد مين؟

-هو فيه غيره؟ وليد البطل!

-انتي اتجننتي؟ وليد البلطجي؟

-بلطجي؟ والنبي يا عمتي بلاش أفكارك القديمة دي، هو اللي يعرف يدافع عن نفسه ويخلي الدنيا تعمل له حساب يبقي بلطجي؟ ده كفاية ان الواحدة تبقي ماشية مع واحد عارفة ان الكل بيهابه.

-يهابه إيه وحساب إيه؟ ده الواد ده اتضرب ضرب واتخرشم خرشمة، ده كان هفية

-آه ما هي في الأول بتبقي كده يفضل يتضَرب يتضَرب ويتهان لحد ما جِتّته تنحس وقلبه يجمد، ويتعلم ان السنجة مابتموّتش.

- يا زوبة اعقلي ده كل يوم متجرّجر على الاقسام.

-لا ده كان زمان لما كان صغير، دلوقتي بقي الكُل في الكل، الظباط دول قلبهم ضعيف هُمّ شطّار بس جوّه القسم، علشان كده بيحتاجوا الرجالة اللي زي وليد يسدوا بدالهم برة في الشارع.

-وانتي بقي لو اتجوزتيه هتعيشي منين؟ دا مافلحش في حاجة ولا عنده ولا صَنعة ولا شهادة، ده حتى زمان أُمه ودّته في ورشة خالك سيد الله يرحمه، اتضرب ضرب لمّا قال كفاية علشان يتعلم ومافيش فايدة.

- ما هو عنده صنعة ومش أي صنعة «فتوة»، أو زي ما بتحبي الشياكة يا عمتي «بودِي جارد» ده بياخد في الخناقة شيء وشويات.

- هيضربك ويبهدلك.

- لا يا خالتي مابيضربش النسوان غير اللي مابيعرفوش يضربوا

الرجالـة، والـلي مابيعَرفـوش ياخـدوا حقهـم مـن الدنيـا، وبعديـن أنـا مش غبيـة.

- والنبي انتي هتوذّي نفسك في داهية، وأمّك وابوكي هيوافقوا؟

-هُـمّ يطولـوا؟ ده أنـا لـو اتجـوزت البطـل هيتعمـل لهـم حسـاب في الحتـة كلهـا، المهـم أنـا علّقتـه في الميكروبـاص انهـارده وقلـت لـه اني عايـزاه في مصلحـة، واديّتـه معـاد عنـدك في البيـت بُكـرة، اتصرفي بقـي اعمـلي لـه وصفـة شرْبيـه حاجـة، المهـم يطلـع مـن هنـا عـلى المأذون.

-إيــه؟ معــاد عنــدي في البيــت؟ تجيبــي لي البلطجــي ده عنــدي؟ وعمـك حَسـن اقـول لـه إيـه؟ ووصفـة ايـه يـا بِـت الـلي هتخرجـه مـن هنـا عـلى المـأذون؟ ماكانـش حـد غلـب، انتـي مصدّقـة الـكلام الـلي أمّـك وليـلى بيقولـوه عنـي؟

-يـا خالتـي دا انتـي تنقـلي الحيطـة، وبعديـن مـا انتـي كل النـاس بتيجـي عنـدك، غـادة وعـادل والدكتـوره ومنـال ورجالتهـا، اشـمعني أنـا يعنـي؟ خليـكي جدعـة معايـا واللـهِ هبسـطك لـو الموضـوع تـم.

-خرّجينـي انـا مـن الموضـوع ده يـا زوبـة، يحصـل حاجـة أمّـك وليـلى ياكلـوني ويرجعـوا يقولـوا انـشراح ميّلـت بخـت البِـت.

-أنـا جايّـه بُكـرة والمعـاد السـاعة سـبعة، بَـلا أمـي بَـلا ليـلى، كل واحـد يشـوف مصلحتـه.

زوبـة الجريئـة التـي تعـوّدت أن تأخـذ مـا تريـد حتـى وهـي طفلـة، فعندمـا كانـوا يجتمعـون عـلى الطبليـة يجلـس الأطفـال جميعًـا ينتظـرون نصيبهـم مـن اللحـم أو الفـراخ، كانـت زوبـة تمـد يدهـا في الطبـق وتأخـذ مـا تريـد دون انتظـار.

زوبة الشهيرة بـ «إنت يا»

فقدْ كانت تبدأ حديثها مع أي رجُل بهذه الجملة «انت يا» ثم تصمت قليلا، ثم تطلب ما تريد، تنطقها بطريقة فيها مزيج من الكِبْر والتعالي والميوعة والدلَع، تصاحِبها نظرة شقية متحديّة والتي تربِك أي رجُل، لدرجةٍ تجعله غالبًا ينفذ ما تريده دون تفكير.

رغمًا عنها ترددت انشراح قليلا، فلم تكُن راضية عن اختيار زوبة، وأخذت تفكر: أليس مِن الأفضل أن تقوم بعمل وصفة تبعِدها عن هذا البلطجي؟ زوبة مثل ابنتِها ومِن حقها كأُم أن تدافع عنها، ليس في الأمر أي خيانة.

أعياها الصداع ربما مِن التردد والتفكير، فقدْ كانت دائمًا أمينة مع كل مَن طلب منها وصفة، بالرغم من عدم اقتناعها التام بجدوى ما تعمله، ولكنها زوبة، انتابها خوف من أن تكون وصفاتها فعلا صائبة وتكون النتيجة أن تتزوج زوبة هذا البلطجي، وفجأة شعرت برأسها يثقل كأنها على مشارف حالة نُعاس وبدأت تسمع صوت الزائر الليلي لأول مرة في المطبخ وليس في الحلم كالعادة! الصوت يلِح عليها وهي تقوم بتحضير العشاء لحَسن، أصابها ارتباك شديد كأنها عشيقة لا تعرف ماذا تفعل بعشيقِها وزوجُها على وشك الوصول.

ودّت لو طلبت منه أن يختفي ولكنه بادَرَها بالحديث:

أعلم كيف تحبين زوبة، كيف ترين فيها الوجه الآخر لكِ الذي ما يزال يملك قوة أن يحارِب على الملأ، لا تلوميها على اختيارها، إنه اختيارها ويكفي أنها امتلكت القدرة على الاختيار، ولا تشارِكي في هدمها، هل تريدين لها أن تعيش مثلما عاشت أمَكِ تعاني

من الشعور بالضآلة والجفاف، حتى تسلم جسدها في ليلة لعرّاف نصّابٍ تحت وطأة الاحتياج؟ أم تريدينها مثل ناهد تتحمل الخِزي والتجاهل بدعوى الفضيلة حتى تصاب بالهلاوس والاكتئاب؟ هل ترغبين أن تكون منال ثانية تتحول إلى وحشٍ ضارٍ يريد أن يلتهِم أي شيء وكلّ شيء بعد أن جاعت روحها؟

كانت نقطة تحولٍ في علاقة انشراح بالزائر الليلي، فبعدَ ظهورِه في المطبخ ليقنِعها أن تدافع عن زوبة، أصبح ظهوره متكررًا في أي وقت وأي مكان، لم يعُد يأتي في المنام متشكلا في صور مختلفة كما كان يفعل سابقًا، تحوّل إلى صوتٍ يلازمها ويقتحم مناقشتَها مع أي شخص، صوت لا يسمعه غيرها، يتدخل في الحوار ويقول رأيه، يوضّح أشياء ويشرح لها معانيَ، ويعطي مقترحاتٍ ويذكرها دائما أنها تملك «فيريل» وكما قالت في مذكراتها:

«ما زلت أشك أن هناك قوة غريبة تحركني، أنطق بلسانها، أميل لتصديق أنها عقلي الباطن، ولكنها أحيانًا تتحدث عن معارفَ بحكمةٍ وخبرة ولغة وفصاحة لا أمتلكها، ولكني كنت قد قرأت مرة معلومة لست متأكدة من صحتها، تقول إن الإنسان يحتفظ في ذاكرته بخبرات الأجيال السابقة والتي تنتقل إليه كعواملَ وراثيةٍ، ربما يكون هذا مصدر المعرفة».

****

- 16 -

هـل تُطلِـق سراحَ أنوثتهـا وتسـلمها لهـذا المجهـول؟ سـألت ناهـد نفسـها، كانـت رائحـةُ الرغبـة تفـوح مِـن سريرهـا ومِـن دولاب ملابسـها، مِـن جـدران الحوائـط، مِـن الأَسـقُفِ المعلقـة مثـل حياتهـا بـين السـماء والأرض، هـذا المثـير القرمـزي الـذي يئِـس مِـن مكانـه في خزانتـه، هـل حـان أخـيرًا الوقـت لترتديـه؟! كانـت تتذكـر كلـمات انـشراح وتنفـذ تعليماتِهـا بـكل الدقـة، يجـب أن تسـلمي نفسـك لملـك الجـانَ الـذي يحبـك ويعشـقك، والـذي مِـن غيْرتِـه عليـكِ وقـف في طريـق أي رجُـل يقـترب منـكِ حتـى زوجـك، إنـه أحـق بـكِ مِـن أي رجُـل.

أدارت الموسـيقى التـي تحبهـا، أغرقـت جسـدَها بروائـح القُطـن والشـاي الأخـضر ومزجتهـما برائحـة الفانيليـا والشـيكولاتة، شربـت حتـى الثمالـة كـؤوس نبيذهـا الأحمـر والـذي عتَّقَتـه رغـمًا عنهـا، سـنوات لم يـأتِ وظلت زجاجـة النبيـذ في انتظـاره، تسـمع صوتًـا مفعـمًا بالرغبـة والْحـب:

«أرجـوكِ ارضي عنـي أحبّينـي، أحببتـك عمـري كلـه اشـتقتُ لـكِ ولم أشـتَهِ امـرأةً غـيرك»

تملأهـا زهـوة متعـة الأنثـى المرغوبـة، يَطلـب منهـا أن ترقـص لـه، تـكاد تـتردد ولكنهـا تتذكـر كلـماتِ انـشراح افعـلي لـه مـا يريـد فهـو يحبـك ويسـتحق منـكِ أن تمتعيـه وتمتّعـي نفسـك معـه، رقصـت في البدايـة عـلى مضـض وخجـل مـن نفسـها ومـما تفعلـه، هـل جُنّـت

لهـذه الدرجـة؟ ترقـص اسـتربتيز لرجُـلٍ غـير موجـود؟ ولكنهـا سرعـان مـا اندمجـت في الرقـص المتواصـل كأنهـا في زار، تعِبـت وألقت بجسـدها عـلى سريرهـا المخمـلي، رأتـه شـديدَ السـمرة ذا ملامـحَ جميلـةٍ، مفتـولَ العضـلات، ولكنـه كان ضخـمًا جـدًا تمثَّـلَ في أركان الغرفـة الأربعـة قابعًا عليهـا مثـل الإلهـة نـوت إلهـة السـماء، سـألته مـا اسـمُك؟

أجابها: اختاري لي ما شئتِ من الأسماء.

أجابته: لا.. أنا أريد أن أعرف اسمَك الحقيقي

- بمـاذا تهـم الأسـماء؟ نادِينـي كـما تريديـن، اسـمي شـهاب ولكـن قولي لي حبيبي

- ماذا تريد مِني؟

- أحِبكِ

-مـا معنـى هـذا الحُـب؟ وكيـف تريـدني أن أحبـك وأنـت دمـرتَ حياتي؟ كل هـذه الآلام التـي عشـتُها كانـت بسـببك، حَرَمتني مِـن زوجي.

-لا تقـولي هـذا، لقـد أحَبـكِ مَـن هـو أعظـم وأشرف مِـن هـذا التافـه الوصـولي، لقـد أحَبـكِ وأغـرِم بـكِ مَلـك مِـن ملـوك الجـان، اسـتمتعي بهـذا، اسـتمتعي بحُبـي لـكِ وتأكـدي مِـن أنـكِ أنثـى فـوق العـادة.

ودّت أن تـصرخ فيـه قائلـة ولكنـي أحِـب زوجـي هـذا الوصـولي، مَـن أعطـاك الحـق في أن تجـبرني أن أكـون لـك.

مـرت بذاكرتهـا كل لحظات القسـوة والتخـلي، أرادت أن تطـرده مطالبةً إيـاه أن يتركهـا حتـى تحيـا حيـاة طبيعيـة، ولكـن ضعفهـا واحتياجهـا ورِقّـة عَرضِـه لحُبـه، وصوتـه وهـو يقـول أحبّيني كـما أحببتـكِ وادخلي في

عالَمي، أيتها المَلِكة أحبّيني حتى تعرفي معنى العشق، دِفء قُبُلاته على جسدها، يداه السمروانِ اللتان التفتا على خصرها، رائحة النبيذ المعتّق، صوت الموسيقى، ملمس قميصِها القرمزي، كل ذلك جعلها تستسلم لليلةٍ استوائية برائحة الشيكولاتة، أطلقت فيها ناهد العنانَ لأنوثتها وسلمتها لهذا المجهول، ولم تدرك كيف انتهت هذه الليلة الصاخبة إلا عندما التصق قميص نومها علي جسدها وراحت في نوم عميق حتى الصباح.

كانت ليلة صعبة على انشراح، تعلَم أن ناهد في هذه الليلة تنفّذ تعليماتِها مصدقه أنها تقضي ليلة حمراءَ مع الجان الأسمر، شيء ثقيل على قلبها يؤلمها جعلها تعيد النظر في علاقتها بالزائر الليلي، هل يكون هو الآخر جانًا؟

وللمرة الأولى ينتابها هذا الشعور، وبدأت تتحدث إلى نفسها:

أنا لا أريد هذا الزائر الليلي، لا أريد هذا الصوت الذي يطاردني ويأمرني، للمرة الأولى أشعر أنه غريب وأنه عِبء؟ لم أجرؤ مرة أن أسأله كأنه منطقة محظورة ممنوع الاقتراب منها، لا أعرف لماذا الليلة بالتحديد أتتني الشجاعة أن أسأله:

- إنت مين؟

أجابها

-انتظرت هذا السؤال كثيرًا، أخيرا يا انشراح تخلصتِ من خوفك وأصبحتِ قادرة أن تفتشي في نفسك وتبحثي عن ذاتك، انتظرت اللحظة التي تكونين فيها قوية وتملكين القدرة على المواجهة.

أعادت السؤال بشكل أكثر إصرارا:

- انت مين؟

- أنا روح من أرواح سوماتي، نحن موكلين بالبحث عن البشر الذين يملكون حب الخير والإرادة والقدرة على المقاومة والعطاء، نحن أرواح معلّمة ودورنا ببساطة أن نمدهم بالمعرفة والطريقة التي تساعدهم في تنفيذ الخير، لأنهم هُم مَن سينقذون البشرية من الدمار، هُم السبيل لإطالة الحياة على الأرض، لأنهم مَن سيحققون التوازنَ أمام قوَى الشر.

_انت جِن؟ انت عفريت وأنا ملبوسة صَح كده؟

-لا، أنا روح سوماتي

انهارت انشراح قائلة

أنا مش عايزه أرواح معايا، أنا مش نرجس، وحتى لما كنت بعمل وصفاتها كنت مقتنعة ان دا نوع مِن العلاج النفسي، حاجة بتصبر الناس وتديهم أمل يخففوا به وجعهم، لحد ما يقدروا يعدوا أزمتهم، ومش هاقبل تكون حياتي تحت رحمة جان يسخرني ويأمرني.

- اهدي يا انشراح، في الحقيقة الموضوع بعيد تمامًا عن فكرة الجان، نحن أرواح معلمة ولا نملك قوة أن نأمر أحدا أو نسخره، ولم أُعْطِ لكِ قوة خارجية، كل ما فعلته أنني نبهتك أنك تملكين الكثير. سأذكّركِ كيف تم تنبيهك أول مرة، هل تتذكرين ليلة عُرس نجوى؟ عندما منعت ليلى سيد مِن أن يعطيكِ بعض المال لتشتري فستانًا جديدًا لتحضري العرس.. هل تتذكرين ماذا حدث؟ وجدتِ على

السلّم مَبلغًا كبيرًا من المال يكفي لشراء عدة فساتين وليس واحدًا! هل تتذكرين كيف تصرفتِ؟ أعلنتِ أنكِ وجدتِ مَبلغًا من المال حتى يَظهر صاحبه، وبالطبع لم يَظهر أحد حتى أصبح المال حقًا لكِ فاشتريتِ من الفساتين ما يحلو لكِ وقمتِ بتصفيف شَعركِ عند الكوافير، هل تتذكرين ماذا قلتِ لنفسك وماذا قال لكِ الآخرون؟

شردت انشراح بذاكرتها بعيدًا، تذكرت كل ما حدث، تذكرت كيف بكت مِن السعادة لشعورها أن الله لم يَخذلها وأرسل لها مالا أغناها عن ليلى، ابتسمت ابتسامة واسعة وأجابت نَعَم تذكرت، وقتها شعرت أن الله يحبني، أمي وسيد وعواطف أيضًا قالوا لي إن الله يُحِبك يا انشراح.

-هذه كانت الرسالة الأولى، وهي أهم رسالة أن تعلّمي أن الله يحبكِ، وهذه رسالة يترجمها العقل البشري في اللاوعي إلى معادلة «الله يحبني، إذن أنا إنسان جيد» فليس مِن المعقول أن يحب الله شخصًا شريرًا، أما بقية المعادلة والتي تحدث أيضًا في اللاوعي، فلا بُد أن أظل إنسانا جيدًا حتى أحتفِظ بمحبة الله ومساندته.

كانت انشراح تسمع ما يقال ولا تفهم شيئًا، وما علاقتها هي بإنقاذ البشرية مِن الدمار؟ ولماذا هي بالتحديد؟ وما دورها؟ ومَن هذا السوماتي؟ وما فائدته؟

ازدحمت كل الأسئلة الصعبة عليها والإجابات الأصعب، تمنت لو كانت صمتت ولم تسأله مَن أنت، وأكملت الباقي مِن عمرها دون أن تسأل.

لاحَظَ السوماتي ارتباكَها وتشتتَها، لكنه استطرد شارحًا:

انشراح، إن الإنسان نفسه يملك مِن القوَى ما يغيّر به مسار الحياة بل مسار الكون والمَجرات في السماء وحركه دوران الأرض، أنتِ تملكين قوة خارقة حقيقة، قوة جبارة هي قوة الرأفة، وتتمتعين بقدره نفسية شافية، لقد كان عيسى المسيح يعالِج الناس بقوة الرأفة.

قطعت انشراح حديثَ هذا السوماتي منفعلةً عليه قائلة باستنكار:

إأنت بتتكلم عني أنا وتشبّهني بالمسيح والقديسين وأولياء الله الصالحين! أنا مَن سأنقذ البشرية من الدمار، واضح انك مش فاكر بير السلم وزغلول الباشا وغيره، نسيت اني اختليت بإبراهيم وتركت له نفسي؟ أنا واحدة من النادرين اللي هينقذوا البشرية؟ واضح أنك أخطأتَ أيها العفريت... تضحك ساخرةً.. ولبستني بالخطأ.

قلت لك أنا لست عفريتا ولم ألبس جسدك، أنا فقط قمت بدور المعلّم الذي يكتشف الطالب الموهوب ليدعمه ويعطيه مزيدًا من الثقة في نفسه وقدراته، ثانيا أنتِ لستِ ملاكًا، أنتِ بشر، هذا الذي تقولينه لا يعني شيئًا، كل ما قلتِه هو طبقًا لحدود معرفة العقل الضيقة وتصوراته عن الفضيلة، أما الروح فلها حسابات أخرى، الروح تقوى عن طريق المعاناة وتتطهر وتسمو وتصبح أكثر قدرة على العطاء والتفاعل، كلما زادت معاناتها وآلامها، وكل ما تعتبرينه خطيئة هو في واقع الأمر معاناة، وكل ما اعتبرته رذيلة كان إذلالا وقهرًا، إن من يفعلون الخير مِن برج عالٍ ويمدون أيديهم بالعطاء مِن خلال النافذة، كمَن يقف تحت المطر وهو يحمل مظلة، أما

هـؤلاء القلائـل مثلـك، الذيـن رغـم كل هــذه المعانـاة ظلــت قلوبُهـم تملـك الرأفـة والصـدق والرحمـةً والحـب والقـدرة عـلى المقاومـة والحلـم والعطـاء، فهُـم أعمـدة اسـتمرار البشريـة، ويجـب علينـا نحــن أشـخاص سـوماتي أن ندعمهـم.

اسـتيقظت انــشراح مــن نومهـا مفزوعــة، لا توجـد أي إجابـات عـلى أي أسـئلة، فقـط تـزداد الألغـاز، والآن يوجـد لغـزٌ آخـر غـير فيريـل، شيء يسـمّى روح ســوماتي!



- 17 -

وقفتْ غادة في شرفة منزل انشراح تدخن سيجارتها على استحياء، وفجأة لمحت سيارةً تشبِه سيارته، لا بل هي سيارته، مِن المستحيل أن يكون الأمر قد اختلط عليها، وبالرغم من بُعد المسافة النسبي فهي تقف في شرفة منزل انشراح في الدور الثالث لتستطيع التحقق مِن وجْهِ مَن يجلس أمام عجلة القيادة، ولكنها لا يمكن أن تخطئه حتى بعد أن مرت سنوات، هو بوجهِه الخمري النحيف وشَعرِه البُنّي الغامق، الذي يبدو أنه بدأ يتساقط على استحياء، جلستُه الواثقة أمام عجلة القيادة والتي لم يبدّلها الزمن، وربما زادت ثقة، فهو الآن يشغل منصبًا شديد التميز في الدولة. ما الذي أتى به إلى هنا؟ كيف استطاعت سيارته أن تعبُرَ فوق أكوام القمامة؟ وأن تمشي في تلك الحواري الضيقة الملتوية، التي لا تستطيع تحمل نتواءتها والتواءاتها إلا عربات الكارو أو السيارات القديمة التي رفض المرور تجديد رخصتها لعدم صلاحيتها، والتي اعتبرها أصحابها مربعًا صفيحًا ففضّلوا الانتفاع بها وتأجيرها كوسيلة انتقال، ينقلون بها السكان مِن الشوارع الرئيسية إلى تلك المنطقة التي لا يعلم أحد بوجودها على الخريطة إلا الله؟! فهُنا لا مرور ولا رُخَص! بدأت ضربات قلبها تعلو وهي تتابع السيارة تبحث عن مكان للركن، وكأن الدم تجمّد في عروقها وأصبح وجهها شاحبًا، وشعرت ببرودة شديدة في أطرافها

وبـدأت تتصبّـب عَرَقًـا، لم تصـدق مـا رأت عيناهـا.

إنـه يركـن سـيارته بجـوار منـزل انشراح! كيـف عـرَف أنني هنـا؟ لقـد غـيرتُ رقـم موبايـلي وتركـت بيـت الزوجيـة الـذي جمعنـي بـه سـبْعَ سـنوات، سـبع سـنوات مـن الممنوعـات، نَعَـم هـذا سر حيـاتي الكبـير الـذي لا يعلمـه أحـد، هـذه هـي المنطقـة المظلِمـة التـي لا أسـتطيع البـوحَ بهـا حتـى لانـشراح أقـربِ النـاس إلى قلبـي، لا أعلـم لمـاذا لم أحـكِ؟ هـل أنـا حقًـا باقيـة لهـذه الدرجـة على عهـدي له بـأن زواجنا سـيظل سرًا مـدى الحيـاة؟ أم أننـي لا أريـد أن أحـكي لأنني مـا زلـت أتـألم؟ بعـد هذا الصبـاح حـين وجـدت عـلى المِـرآة ورقـةً مكتـوب عليهـا بقلـم فلوماسـتر أنـتِ طالِـق! كيـف عـرَف أنني هُنَـا؟ وهـل هـذه مشـكلة بالنسـبة لـه؟

مـا زلـت أتذكـر تلميحـاتِ زوجـة خـالي السـخيفة، «تفتكـري طنطـك سوســن هـترضى تخطُبـك لحاتــم؟ أنـا شـايفة ان عينُــه مِنــك يعنــي والابتسـامات رايحــة جايــة مــا بينكــم»

كنت أرد بحِدة: ماعرفش، وبعدين أنا وحاتم مفيش بينا حاجة

كنـت أشـعر أن حاتـم يرمقنـي، يلاحقنـي بنظـرات إعجـاب، ولكنـه لم يصارِحنـي بـشيء، كان هنـاك أيضًـا شيء مـا في إحسـاسي لم أصـارح نفـسي بـه ولم أعـترف حتـى بـه، تقابلنـا في مأتـم خـالي بعـد عـدة سـنوات، حضرَ حاتـم المأتـم مـع نهـال أختِـه وزوجتـه، أمّـا طنـط سوسـن والدتـه قريبـة أُمـي فقـدْ توفّاهـا اللـه.

كُنـا في قاعـة النسـاء في الجامـع، أتى حاتـم ليقـدم واجـب العـزاء لي، اقـتربَ مِنـي وهمَـس لي: غـادة.. البقـاء للـه، ده رقـم موبايـلي اتصـلي بيّـا

ضروري علشان أساعدكم في إجراءات الميراث، الحاجات دي هتبقى صعبة عليكم هابعت معاكي حد يخلصها ليكي.

كان اللقاء الثاني مباشِرًا، إذ باغتني «انتي عارفة ان ماما كان نفسوا تخطُبك ليَا، انتي عارفة ان انتي الست اللي أُمي كانت شايفة انها هتسعدني».

وقتَها تذكرت كلام زوجة خالي فإذا بي أساله أيضًا بشكل مباشر «غريبة، طيب وليه طنط سوسن الله يرحمها ماجاتش تطلب إيدي؟».

أجابني بلهجة تملأها الحسرة: «النصيب»

تعددت اللقاءات وانتقلتُ مِن منزل خالي في بادئ الأمر إلى شقة المَنيَل، حيث انتقلت أنا للإقامة بعد وفاة خالي.

وقتَها كان حاتم يعمل في النيابة، لم يكُن دخْله كبيرًا، كان دائم الشكوى مِن أن راتبه ضعيف، وأنه لا يكفي التزامات أسرته، لم تكُن هذه المسألة تمثل لي شخصيًا أي أزمة، فقدْ كنت أعمل في أحد برامج الأُمم المتحدة التي كانت تحقق لي عائدًا محترَمًا، وكان يضحك دائمًا ويقول: إحنا بنقبض ملاليم وانتوا بتقبضوا بالعُملة الصعبة. ولذا وافقت على الزواج حتى بدون دِبلة، لن أنكر أن هذا كان موجِعًا، فأنا أعلم جيدًا أن سِعر دِبلة ذهب لن يساوي الكثير، ولكني ترفعت عن هذه الصغائر، هل سأتضايق من أجل دِبلة وهو يعطيني نفسه؟

ولكن ظلت المشكلة الكبرى التي ازددات تعقيدًا مع مرور الزمن،

«غادة انتي عارفة ليه ماما ماقدرتش تخطُبك ليّا؟

علشان تاريخ والدِك السياسي كان هيعمل لي مشكلة في التعيين في النيابة، ودخول السلك القضائي، النهاردة المشكلة بقت أكبر، أنا قطعت شوط في وظيفتي أكتر من اتناشر سَنة، يعني قطعت المرحلة الصعبة، تقاريري كلها زي الفل واللي جاي هي مرحله جني الثمار، صعب أشطب على كل ده بأستيكة واترمي في الشارع محامي حُر، وكمان في سِني ده، ده طبعا غير مراتي والبنات، دول متعلقين بيّا قوي.

كانت إجابتي: حاتم أنا موافقه نتجوز عُرفي، أنا مش هستفيد حاجة لما ادمر مستقبلك المهني أو أحرمك من ولادك، أو حتى أجرح شعور مراتك.

صارحت أمي وقتَها برغبتي في الزواج بحاتم بهذه الطريقة، لا أتذكر إلا وهي تجري إلى المطبخ لتأخذ سِكّينة وهي تصرخ بهذيان:

إنتي ناسية انتي مين وبنت مين؟ أبوكي راجل اسمه بيتكتب في كتب التاريخ، وناسية مين عيلة أُمك أخوالك جدودك، الصعيد كله بيقف لما يتقال اسم عيلتك، ناسية مين جوزي اللي ف مقام أبوكي الشيخ المرشدي اللي كل مشايخ المسلمين بيكبّروا له ويبوسوا إيده في السعودية قبل مصر، ناسيه انتي إيه؟ وخريجة مدارس إيه وكُلّيه إيه وبتشتغلي فين؟ مافضلش غير! ابن سوسن يتجوزك عُرفي وفي السر؟ وكمان من غير حاجة!

أنقذتني زوجة خالي مِن يدِها بأعجوبة، وقتَها وعدتهما بأنني لن

أفعل ذلك، ولكن ما أن سافرت أُمي مع زوجها إلى الرياض، حتى أتممت ما اتفقنا عليه أنا وحاتم، كان موقف أُمي دافعًا أكبرَ وراء تشبُّثي بالزواج بحاتم، كنت أراها ماديةً، تزوجت بعد أبي ولم تَصُن الحُب، تزوجت رجُلا على النقيض منه في كل شيء، كأنها اختارت هذا النموذج عِندًا فيه، أنا أيضًا سأتزوج حاتم انتصارًا للحب، وربما انتصارًا لأبي ولأفكاره، للحُرية التي لا تكون فيها المرأة سِلعة تباع وتُشترَى، سأتزوج حاتم وأكسر تابوهات أُمي والعِيلَة والمَركز والمال، سأنتصر على نموذج المرأة الجشِعة التي تدوس كل شيء تحت قدميها من أجل مصلحتها، لن أدوس على مشاعر زوجته، لن أجرحها، لن أحرِمه مِن أولاده ولا نجاحاته سأكتفي بالفائض القليل، هذا يكفيني.

ماذا ستفعل الآن إذا كان حاتم هُنَا مِن أجلها؟ ماذا ستقول لانشراح؟ وهل لديه مِن الجَرأة أن يدق جرس منزلٍ غريب، وهو الذي كان يرتعش رعبًا إذا رَن جرس التليفون وهو عندَها في المَنيَل؟ مضت سِت سنوات على انفصالهما، هل يُعقَل أنه ما يزال يحِبها ويبحث عنها لهذه الدرجة؟ هل تغيَّر لهذه الدرجة؟

كَم تتمنى أن يكون أتى إلى هذه المنطقة بمَحض الصدفة، وألا يكون يعلم شيئًا عن وجودِها في هذه الشرفة، وأنه سينزل مِن سيارته الآن ويدخل أي عمارة أخرى، أو ينزل مِن السيارة شخصٌ آخر ويكون كل ما حدث تهيؤات، ولكن القدر خيَّبَ ظنونها، وجدته هو يدخل مدخل عمارة انشراح، يجب عليها أن تتصرف بسرعة، الوقت قليل، مسافة صعود ثلاثة أدوار لن تتجاوز دقائق، كيف تمهِّد لانشراح؟

مـاذا تقـول لهـا؟

بـدأت ضربـات قلبهـا في التزايـد مِـن شـدة الارتبـاك، لدرجـة أنْ جَـف ريقُهـا فأصبحـت لا تقـوَى عـلى الـكلام، قـررت أن تنـادي انـشراح وتعطي لهـا أي تمهيـد، وإذا بانـشراح تدخـل لهـا البلكـون:

-انشراح، فيه موضوع عايزة احكي لك عليه بسرعة

-مـش وقتـه يـا غـادة، أنـا جايـلي ضيـف عـلى غفلـة، احـكي لي بعديـن، المهـم هاسـتأذنك بـس ماتخرجيـش، أصـل فيـه شـوية خصوصيـات ومش هيبقـي لايق وجـودك.

ردت غـادة بعصبيـةٍ غـيرِ معتـادة: ضيـف مـين وخصوصيـات إيـه؟ إنتـي عارفـه مـين الـلي جايلـك أصـلا؟

- إنتـي اتهبلتـي يـا غـادة؟ يعنـي إيـه عارفـة مـين الـلي جايـلي؟ يعنـي هيجـي لي ضيـف ماعرفـش مـين ده؟ عريـس منـال يـا سِـتي.

لم تستوعِب ما قالته انشراح:

-بتقولي إيه؟ عريس منال! منال مين؟

-هو فيه كام منال؟ منال بتاعتنا، منال الطشطوشي

-انتي بتقولي إيه؟ منال مين؟ عريس إيه؟ منال مين؟

كانـت تنطِـق هـذه الجملـة بلسـانٍ شِـبه مشـلول، فخرجـت الكلـمات كأنهـا منازَعـةُ قتيـلٍ يتلـوَى مـن الألم قبـل خـروج روحِـه.

كانت غادة تَهذِي:

-منال بتاعتنا ازاي؟ ازاي؟ طيّب دي حتى منال متجوزة!

-مـا هـو مايعرفـش، هـي مفهِـماه انهـا أرملـة ولا مطلّقـة، والنبـي مـا

انا عارفة هيّ بتعُك ف إيه! سيبيني بقى العريس وصل ، نتكلم بعدين.

فتحت ابنتها البابَ للضيف، وأجلسته انشراح في الصالة.

كان باب الغرفة مواربًا لدرجةٍ أتاحت لها أن تسمع بعض الحوار.

هو حاتم، هو صوته، نَعم إنه صوته الأنيق.

-أنا المستشار حاتم السعدي في جهاز الكسب غير المشروع، أنا آسف اني جيت لك من غير ميعاد.

آه حاتم ابن طنط سوسن، آه حاتم جوزي اقصد طليقي

صورته تقفز في ذاكراتها وهو يحوم حولها عندما كانت تجمعهما الصدفة في المناسبات العائلية، أيام الثانوي والجامعة.

-بس في الحقيقة أنا عارف انها بتحبك قوي، وانتي الوحيدة اللي ممكن تأثري عليها، هي دايما تقول لي انك غالية عندها قوي وإنك في مقام والدتها، هي بطّلت ترد على تليفوناتي ورافضة تقابلني، ومالقتش غيرك ألجأ له يا حاجة انشراح.

قاطعته انشراح وأجابته بابتسامةِ أمٍ حنون متعاطفة:

-تشرب إيه يا -وأكملت ضاحكة - بُص أنا مابفهمش في الألقاب بتاعتكم دي، وانت زي ابني، هاقول لك يا حاتم.

-ده شرف ليّا يا أمي، مش عايز اتعبك، أنا في الحقيقة عايز اتكلم معاكي، أنا مش عايز أشرب حاجة.

-أنا سامعاك يا حبيبي، بس قول تشرب ايه؟ أنا سامعاك بنتي اللي هتعمله.

-ماشي، فنجان قهوة مظبوط.

-اسمعيني يا أمي أنا بحب الآنسة منال وعايز اتجوزها على سُنَّة الله ورسوله، أنا مش بالعب، أنا حتي رفضت اتجوزها عرفي زي ما طلبت وصممت اني اتجوزها رسمي عند مأذون، علشان اثبت لها أنا باحبها قد إيه، وكل اللي هي عايزاه شَبْكة ومَهر، ومستعد حتى اشتري لها الشقة اللي هي عايزاها، ولو اني عارف انها مش هتليق بيها .

كانت كلمات حاتم تسقط على مسامع غادة كأنها قذائفُ هاون، دوِيُها يوقِظ الموتى، تقع على ما تبقَّى مِن روحِها فتدمره، جعلتها في حالة تشبِه كثيرًا حالتها يومَ موتِ أبيها، مزيج من العجز وعدم التصديق والإنكار، كأن ما يحدث يحدث لأُناسٍ غيرها ولا يخصها، كأنه مَقطع مِن فيلم يُعرَض على شاشة التليفزيون، تراه وتسمعه وتحاول أن تتفاعل معه ولكنه فيلم رديء هابِط، كل أبطاله مفتعِلون، الفَرق الوحيد أن دقاتِ قلبها لم تتوقف عن الخفقان بشكل مرعب، وأن شريطًا من الذكريات كان يتقافز أمامَها برشاقة وهي تتأرجح بين الذكريات وما تراه، كأنها محكَم في مهرجان دولي يقارِن بين فيلميْن ليختار أيهما يستحق السعفة الذهبية.

الآنسة منال! كان منظر منال المخمورة والتي يسندها كل ليلة رجلٌ يتراقص أمام عين غادة، لا.. لا.. لم تنسَ تلك الليلة التي كانوا جميعًا في عيد ميلاد أحد معارفهم المشتركين، وانتهت بها الليلة في غرفة نوم، خرجت بعدَها منال وهي تحاول أن تكسر الصمت بأن تبدأ

بالهجوم على غادة وتتهمها بأنها خائبة:

«أنا مش عارفة انتي مقفلاها على نفسك قوي كده ليه؟ إيه المشكلة تتبسطي وتدلعي وتحسّي بنفسك؟ وكمان شفتي؟ إيه رأيك في الطقم الألماظ ده؟ ده بتاع مراته ادهوني هدية، إنتي عبيطة يا غادة، مَحو أميّة إيه وعيال إيه وتعليم إيه؟» كانت منال تعيش هكذا حتى تزوجت رضا الحلواني، الذي لم يبخل عليها بشيء، فاشترى لها فيلا هُنَا وأخرى هناك وسيارات كثيرة، الزوجة الثانية الصغيرة زوجة الدلع والمتعة، صفقة معروفة موافق عليها الطرفانِ، ولكن هذا لم يمنع منال مطلقًا أن تستغل فترات الخناق بينها وبين زوجها في استعادة حيويتها، بمثل تلك الليلة التي كانت غادة شاهِدَ عيانٍ عليها، تداخلت ذكريات هذه الليلة مع ذكريات ليلة زفافها على حاتم، اللحظة التي أعطت فيها نفسَها له بورقة عُرفي، والتي لم تندم عليها قَط، فهي أحبّته وتزوجته، وضَحّت مِن أجل حبِّها، تلك اللحظة التي ما تزال تدفع ثمنَها فهي لا تملك أي دليل يثبت أنها كانت زوجةً لمدة سبْع سنوات

«بعد ما اتفقت مع المأذون» كان طنين صوته وهو يعيد عليها لمدة سبع سنوات بين الجُملة والأخرى، وقبل ممارسة الحب وفي وسطه وبعده، وهي تجفف له جسده بعد الحمّام، وهي تحضر له الطعام وتناوله فنجان القهوة المضبوطة، وهي تودّعه عند الباب يقولها ويكررها أكثر من أي شيء:

ياه يا غادة أكتر حاجة بتؤلمني في علاقتنا اني عاجز اني اتجوزك

علي سُنّة الله ورسوله، رسمي عند مأذون قدام الناس واديكي كل حقوقك، عاجز يا غادة عاجز قدام بناتي وقدام وظيفتي وأكل عيشي.

فَرق بسيط في الجملة بين المشهديْن، تبدلت فقط كلمة واحدة «عاجز» أصبحت «عايز»! أدركَ عقلها الكلمتيْن، أدركَ الفرق، أدركَ الحقيقة المؤلِمة.

بدأت تدرِك... راحت آثار المفاجأة وبدأ عقلها يحدّثها، علاقتك بحاتم انتهت وقتَ أن ترك لك ورقة الطلاق، مرت سنوات طويلة وأصبح لكل منكما حياته، ما المشكلة أن يحِب امرأة أخرى؟

ماذا يؤلمكِ الآن؟ أنه أحَب أخرى؟ أم أنه جاهِز أن يقدم لها ما رَفض أن يقدمه لكِ؟ أم أن غرورك الأنثوي يرى أنكِ الأجدر به مِن منال؟ أم وِجهة نظرِكِ في منال التي كنتِ دائمًا تعاملينها كعاهرةٍ رخيصة؟ أم أنك ما زلت تحبينه؟ كانت الأسئلة تتزاحم في رأسها ولا تجد إجاباتٍ محددة.

اختفت الرسمية التي كان يتحدث بها حاتم مع انشراح، وبدون مقدمات انفجرَ كطفلٍ في البكاء موجهًا حديثَه لانشراح:

يرضيكي منال تعمل فيَا كده؟ تكدب عليَا وتفهمني ان رضا الحلواني خالها؟ وتكلمه في التليفون قدامي على إنه خالها وتخلَيه يعدّي عليها ياخدها من الكافيه اللي كنا سهرانين فيه على إنه خالها، وتسافر معاه لبنان على إنه خالها، وتروح معاه شرم الشيخ على إنه خالها! وفي الآخر أكتشِف انه طليقها، ولما عرفت الموضوع ده وواجهتها تقولي انت غيران منه ازاي؟ أُمَال لو مكنتش عارف

انه مالوش في الستات واني لحد دلوقتي لسه آنسه وان بيني وبينه عِشرة وان فعلا مشاعري له كأنه خالي؟ ولازم تعرف اني عمري ما هاستغنى عن رضا، ده عِشرة عُمر وأنا مش قليله الأصل. وعدّيت الموضوع ترجع تاني تكدّب عليّا وتقولي أنا مابلبسش بِكّيني غير في شرم الشيخ، بالصدفة أشوف فيديو ليها بالبِكّيني ف داي يوز في فيلا واحد رجل أعمال في القاهرة وهي بترقص معاه، وقصص كتير كده، سهَر في البارات وسُكر، بس أنا عارف قد إيه حياتها كانت قاسية وان كل ده هيتغير لما تلاقي راجل بِجد يحبها ويحتويها، أنا فعلا بحبّها ومبقدرش استحمل دموعها لما بتبكي، بحِس ان طفله قدامي عايزه حد يطبطب عليها، علشان كده أخدت القرار ورحت الأسبوع اللي فات قابلت جوز اختها وطلبتها منه، واشترط عليّا شبْكة معينة ووافقت، واشترط كمان اني أصارح مراتي، وان أُختي لازم تيجي معايا تطلب إيدها علشان يضمن ان حياتها تبقي مستقرة، وان كل حاجة تبقي على نور، وطبعا هو عنده حق، كلمت أُختي في الموضوع وصارحت مراتي اني قررت اتجوز، وهي طبعا في حالة نفسية زي الزفت والبنات كمان، وبعد ده كله منال مابتردش علي التليفون، بقالي تلات ايام بكلمها بتكنسِل عليّا، أنا مش فاهم حاجة، مراتي سابت البيت وهي مابتردش على التليفون، خايف يكون جرالها حاجة، أنا جيت لك من غير ميعاد علشان عارف قد إيه انتي قريبة منها، وانا كتير وصلتها هنا بالليل، علشان كده أخدت رقمك منها علشان لو حصل حاجة اعرف اتطمن عليها، قولي لي هي فين؟

أعمل ايه؟ كلّميها قوليلها تيجي.. اعملي حاجة اتصرفي أنا بحبها وبِعت الدنيا علشانها.

كان ما سمِعته غادة يفوق قدرتَها على التحمل، حاتم تنازَل عن كل شيء، عن مكانته الاجتماعية، عن أُسرته، حتى عن رجولته، من أجل منال.

«ياه، هو أنا كنت ولا حاجة كده الحب والتضحية والعطاء والجنس، دا أنا حتى حرمت نفسي من الخِلفة عنشانه، رفضت عقود عمل في أوروبا علشان افضل جنبُه، لبست الحجاب علشان طلب مني ده، سبع سنين مالهموش لازمة، ده كان بيخاف يودّيني للدكتور علشان محدش يشوفه! طيّب فضِل معايا سبع سنين ليه؟».

لم تستطِع التماسُك مِن شدة الألم، وإذا بها فجأة تعجّز عن الوقوف وبدأت تُخرِج رغاوي من فمِها كأنها تحتضر.

جمعت قوّاها واتجهت إلى السرير، تمددت والتحفت بكُل الأغطية الموجودة، انكمشت في وضع الجنين ونامت تاركةً حاتم مع انشراح في الصالة، نامت فجأة وبدون مقدمات، كأن هناك مَن فصلَ التيار الكهربائي عن هذا الجسد فتوقف فجأة، توقفَ كل شي ما عدا صوتًا غريبًا يَصدر منها، كانت أسنانها وضروسها تكز بشدةٍ وبصوت مسموع عالٍ لدرجة هُيئ معها لانشراح أنها إذا فتحت غادة فمَها ستتساقط أسنانها المهشّمة إلى فتات، لم يتوقف صوت الكز طوال الليل تصاحِبه أحيانًا نوباتٌ من الأنين المكتوم، الذي كان يَخرج بصعوبة كأنه صرخة منهَكة مِن مُستغيثٍ يرقد تحت ركام مدينتِه بعد الحرب.

حاولت انشراح إيقاظَها مما تصورته كابوسًا ليليًا.

فتحــت غــادة عينيهــا بصعوبــة، وبمجــرد أن رأت وجــه انــشراح أجهشـت في دفقـة مـن النحيـب، لم تسـتمر إلا ثـوانيَ معـدودات، تبعتهـا نظـرة بَخْلَقَـة ووجـه ميـت خـالٍ مِـن أي تعبـير، ذكَّرتهـا النظـرة بعينَـي منـال عندمـا أجهضتهـا ليـلى، تلـك النظـرة التـي لم تفـارق ذاكـرةَ انـشراح سـنواتٍ وسـنوات.

أعادت انشراح عليها السؤال: مالك يا حبيبتي فيكي إيه؟

لم تُجِبها غادة.. أغمضت عينيها ونامت.

****

- 18 -

أهـي وقاحـةٌ، أم جـرأة، أم احتيـاج؟ لمـاذا تَقبـل أن تعمـل عنـد هـذا الأعـزب؟

العمـل عنـد مادلـين يومـيْن في الأسـبوع لا يسـد احتياجـاتِ الحياة، ولكـن ألا توجـد بيـوت أخـرى؟ ومـا المانـع؟ إنهـا جريئـة بمـا يكفـي لـكي تذهـب بمفردهـا، أو هكـذا تصـورتْ.

في مدخـل الشـقة وقفـت مرتبكـة مترددة منتظـرة أن يفتـح البـاب، فقـدْ كانـت صورتـه التـي رأتهـا مـرارًا وتكـرارًا في الجرائـد والتليفزيون تطِـل عليهـا مـن خلـف البـاب، تَعِدهـا بـآلاف السـيناريوهات.

اختفـت تمامًـا هـذه الجـرأة بمجـرد أن رآتـه دعاهـا إلى الدخـول، ارتبكـت كأنـه يدعوهـا إلى رقصـة رومانسـية، مختلـف هـو عـن كل الرجـال الذيـن قابلتهـم في حياتهـا، لا يشـبِه ببريـان ولا سـيد ولا إبراهيـم ولا حَسـن ولا عـادل، شـديد الوسـامة والرقـة، الشُـعر الفِضي يعطيـه جاذبيـةً خاصـة.

اختلطـت المشـاعر عندهـا، ودّت أن تَجـري مِـن أمامـه، ولكنهـا تمالكـت نفسـها وتذكـرت أنهـا أتـت للعمـل.

صدمتهـا الإضـاءة الخافتـة في منزلـه، فلـم تكُـن تشـبِه بريـق الأضـواء التـي أحاطتـه عمـرَه كلـه، منـزل كئيـب، إضاءتـه صفـراء، مصـدر الضـوء الوحيـد يـأتي مِـن لمبـة صغيرة تتـدلى مِـن فـوق طاولـة كبيرة

مستطيلة، عليها كثير من الأسطوانات الصفيح المغطاة بالتراب والملقاة بشكل عشوائي، تقع في مواجهة باب الشقة، أمّا رائحة السجائر فلم تدخله منذ سنوات، مرت عيناها بأثاث الغرفة الذي كان يمكن رؤيته بصعوبة وجدت مكتبة هائلة يعلوها التراب، ومكتبًا صغيرًا لا يمكن إدراك ماهيته من كثرة الأوراق والشرائط عليه، توجد على المكتب أباجورة صغيرة مطفأة.

أشار لها بالجلوس في أحد أركان الصالة بعد أن عرّفته بنفسها.

-أنا انشراح الشغّالة اللي حضرتك طلبتها

الركن الذي أشار إليه لتنظر هناك كان فيه عدد كثير من الباقات العربية، تكاد تلاحظها بصعوبة لولا إضاءة التليفزيون الذي يؤكد أنه هنا في هذا المكان فقط للإضاءة، فلا أحد يتابعه ولا أحد ينتبه إلى وجوده.

رائحه الشيشة مختلطة برائحة السجائر جعلت للمكان رائحة مميزة.

وقعت عين انشراح على طُرقة شديدة الظلمة، انقبض قلبها، اختفى الرجُل فجأة، دخلَ في هذه الطُرقة المُظلِمة التي كانت معتِمةً لدرجة أنك لا تدرك لها نهاية.

سرداب مظلِم عميق، نَعَم هو ذلك السرداب الذي رأته في أحلامها كثيرًا، هذه الحكاية التي لم تفارقها منذ طفولتها، والتي كانت تحِب أن تسمعها من آرام أنوش.

الرجُل ذو اللحية الزرقاء الذي كان يغازل ثلاث شقيقاتٍ ويحاول

الإيقـاعَ بِهـن في غرامِـه في وقـت واحـد، ولكنهـن كُـنّ يَخفـن مظهـرَه الغريـب ولحيتَـه ذات اللـون الأغـرب، كيـف كان دائمًـا يحـاول أن يقنِعهـن بأنـه إنسـان طيـب؟ كان يُكـثِر مِـن الهدايـا ويأخذهـن في جـولات جميلـة في الغابـة، يَضعهـن عـلى ظهـور الخيـل المزركشـة ويحـكي لهُـن حكايـاتٍ مسـليةً ويُطعِمهـن أشـهى المأكـولات.

الكبيراتُ لم ينخدِعـن بكلامـه المعسـول، لم تنخدع إلا الصغيرة، صدّقته ووافقـت عـلى الـزواج بـه، بنَـى لهـا قـصرًا جميـلا وأطعمهـا أشـهى الطعـام، اشـترى لهـا أجمـل الملابـس، أعطاهـا كل مفاتيـح الخزائـن والمخـازن، مفاتيـح كل أبـواب القـصر، سـمحَ لهـا باسـتخدامها جميعًـا مـا عـدا مفتاحًـا صغـيرًا مزخرفًـا زخـارفَ لولبيـة، أمرَهـا ألا تسـتعملَه.

سـافرَ الـزوج ذو اللحيـة الزرقـاء وجـاءت أختاهـا لزيارتهـا، حكـت الصغـيرة بسـلامة نيّـة لأختَيهـا عـن المفتـاح الصغـير ذي الزخـارف اللولبيـة الـذي لا يجِـب أن تسـتعملَه والتـي لا تعـرف أصـلا يخـص أي بـاب، أصابهـن الفضـول وقـررن البحـث عـن هـذا البـاب الـذي يفتحـه هـذا المفتـاح الصغـير، بحـثْن كثـيرًا في كل أركان القـصر وأدواره حتـى وجـدن البـاب، كان مختبئـًا خلـف بـابٍ آخـرَ، وبمجـرد أن وضعـن المفتـاح في هـذا البـاب، أصـدر القفـل أصواتًـا غريبـة، وعندمـا فتـح البـاب وجـدن دهليـزًا طويـلا شـديد الظلمـة، ليـس لـه نهايـة.

«هـو الدهليـز نفسـه الـذي أراه في أحلامـي، وهـو الدهليـز نفسـه شـديد الظلمـة الـذي اختفـى فيـه الرجُـل الآن».

أحـضرت الأخـوات شـمعة أضـأن بهـا الحجـرةَ، أصابهـن الهلـع، خـررن

جميعًا من الرعب مطلِقاتٍ صرخةَ فزع، فقدْ كانت الحجرة مستنقعًا للدماء ومستودعًا للعِظام النخِرة والجثث المتعفنة، والجماجم المكومة في الأركان كأهراماتٍ من التفاح.

«هذا الحُلم الذي لا يفارقني أبدًا، طُرقة طويلة مثل السرداب مملوءة بجماجمِ النساء، والمفتاح أمسِكه في يدي ملطخًا بالدماء، ولا يكُف عن النزيف يملأ يدي وملابسي، أمشي وهو يقطُرُ خلفي قطراتٍ من الدماء لا تنتهي ولا تتوقف، نزيف دائم وهلع مرعِب من هذا السرداب المظلم، حُلمي المتكرر المخيف، رأيت هذا السرداب أحيانًا هو مَلِيء بجماجم منال وجنينِها الذي أجهضته ليلى، ورأيته مراتٍ أخرى بجماجم ناهد، فكُل الجماجم كانت ناهد، وأحيانًا كأنها جماجم أُمّي وجدتي، وكثيرًا ما كنت أرى جماجم كل صديقاتي وجاراتي وابنتي كلها مجتمعة، ولم تكُن جمجمتي أبدًا هناك، كنت دائمًا أنا مَن تُمسِك بالمفتاح الذي لا يتوقف عن النزيف فأسير ملطَخةً بالدماء التي تقطر خلفي.

هذا الرعب قَطَعه صوت الدكتور أشرف يعتذر عن أنه لا يجيد صنع القهوة، ولكنه لَمَح نظرة الرعب في عينيها الموجهتين والمثبتتين على الطُرقة المظلمة.

قال محاوِلا طمأنتَها:

-متقلقيش يا هانم، أنا بس مكسّل أغيّر اللمبة، بس لمّا هتبقي مسؤولة عن البيت وعني، كل حاجة هتكون جميلة.

نَعم سمعت أنه رجُل محترَم، وأنه شديد الوسامة وشديد الرقة

في معاملــة الآخريــن، تذكــرت كلمــة ســائق ناهــد وهــو يوصّلنــي إلى منــزل الدكتــور أشرف.

«ده راجـل برنـس، باشـا مِـن بتـوع زمـان، وكريـم، دا أنـا عمـري مـا روحــت لــه في أي طلــب إلا وحَــط في إيــدي العشريــن جنيــه، أمّــال انتــي الــلي هتشــتغلي عنــده في البيــت هيعمــل معــاكي إيــه؟ دا انتــي طاقــة القــدر اتفتحــت لــك بــس ابقــي افتكرينــا».

تعجبت انشراح مِن مخاطبته لها بهانم، قائلةً لنفسها:

«برنــس -باشــا- محــترم بــس مــش لدرجــة انــه يقــول للشــغالة يــا هانــم!

دعاها للجلوس لتناول القهوة

أضـاء المصبـاح الرئيـسي، تبدّلـت الشـقة تمامًـا تحـت الإضـاءة العاليـة، رأت تفاصيلهـا لم تَعُـد مَخيفـة كـما هُيِـئ لهـا في الوهلـة الأولى، هنـاك مكتبـة مليئـة بالكتـب، تمنـت لـو قرأتهـا كلهـا، بيانـو أسـود اللـون منمّـق خـالٍ مِـن الـتراب كأنـه الـشيء الوحيـد في هـذا المـكان الـذي يَلقّـى عنايـة صاحبـه، بـدا لهـا أنـه غـير ملائـم لهـذه الشـقة الفوضويـة فالبيانـو لا يوجـد إلا في القصـور كـما تصـورت دائمـا، شـهادات مكتوبـة بلغـاتٍ مختلفـة، فهِمـت منهـا أنهـا شـهاداتُ تكريـمٍ وتقديـر، بـدأت ملامحهـا تهـدأ ويَظهـر عـلى وجههـا بعـض الاطمئنـان، توجّـه نظرُهـا أيضًـا إلى بعـض الأوسـمة والـدروع.

قال لها ضاحكًا متواضِعًا:

-قهوتك سادة مش كده؟ أنا كمان باشربها سادة

قدَّم لها سيجارة ثم قام بإشعالها لها.

تساءلت بينها وبين نفسها: كيف عرَف أنني مُدخّنة؟

- بعد ما اخلص القهوة لازم تقرأي لي الفنجان

ازدادت دهشتها: كيف عرَف أنني أقرأ الفنجان؟

أجابته مذعورةً كأنها تَنفي تهمةً عن نفسِها:

-أنا مابعرفش اقرا فنجانين، وما بصدقش في الحاجات دي. كل حاجة بتاعة ربنا والخرافات دي بتاعة الناس الجَهَلة، أنا فقيرة آه لكن مش جاهلة ومؤمنة بربنا.

كان صوتها ينطق كذبًا، أدرَكه د. أشرف، فأجابها بهدوء وبصوتٍ مطمئن واثق:

- قهوتك سادة صح؟ بتعرفي تقرأي الفنجان، أنا متأكد، طيّب ما بتصدقيش في الحاجات دي برضه صح، انتي فقيرة لكن مش جاهلة واضح جدا، عينيكي كلها ذكاء، ملامحك، حركة إيديكي، تعبيرات وشّك بتقول انك سِت مش عادية، بس احِب اقولك ان قراية الفنجان دي بتاعة الناس الجَهَلة، الجملة دي خانتك، المتعلمين المثقفين المشهورين والملوك بيقروا الكَف والتاروت والودع والنجوم والفنجان، معرفة الغيب حلم أصيل ورغبة فطرية في النفس البشرية، ده حلم من أحلام البشرية، معرفة بُكرة فيه إيه، الإنسان بطبيعته مستعجِل عايز كل حاجة بسرعة، وفُضولي، وكمان مغرور، متهيأ لُه انه لو عرف بُكرة فيه إيه هيعرف يتصرف.

كان كلامــه حلــوًا جذابًــا، ولكنهــا سرعــان مــا تذكــرت حكايــة آرام أنــوش وكلامَهــا عــن الرجُــل ذي اللحيــة الزرقــاء، وكيــف كان يحــاول إقنــاع البنــات بلســانِه الحلــو ومعاملتــه اللطيفــة، بالرغــم مــن أنــه أكــبر قاتــلٍ للنســاء.

شردت كثــيرًا «أكيــد هُنــا في آخــر الدهليــز توجــد جماجــم كثــيرة لشــغالات كثــيرات أتــين مِــن قَبــلي»

اعتــذرتْ لــه عــن عــدم قــراءة فنجانــه، وأصرت عــلى كلامهــا أنهــا لا تعــرف.

لم يُلِح د. أشرف في طلبِه، قال لها مداعِبًا:

-خلاص أنا اللي هاقرا لك الفنجان

نظــرَ إليهــا نظــرة جعلتهــا تــدرك أن شــيئًا خارقًــا يحــدث، اختفــى العالَــم مِــن حولهــا، اختفــت كل الأشــياء، اختفــت كل التفاصيــل، لم يعُــد واضحًــا أمامَهــا إلا هــو محاطًــا بهالــةٍ مــن الوهــج الدافــئ والــذي اخــترق كل خليــة بهــا، شــعرت لثــوانٍ أن فيضانًــا مــن النــور يتغلغــل داخلهــا فأصبحــت بــلا وزنٍ، بــلا كُتلــة، هائمــة، رأتــه، رأت عيناهــا كأن الخالــق ينحــت مــن العــدم نســخةَ الرجُــل الأولى الأصيلــة، كانــت عيناهــا تتابعانــه وهــو يتشــكل أمامهــا، تكــوَّنَ كل شيء حتــى شــمَّ أنفُهــا رائحــةَ الذكــورة، إشــارة الاكتــمال، دبّــت فيــه الحيــاة، وإذا بــه ينتفــض ويمــارِس أول فعــلٍ، يُلملِــم خصــلاتِ شَــعرها بعينيــه اللتــين داعبَتــا كل جــزءٍ فيهــا، كل المَســتور والمخبّــأ، أعــوام وأعــوام يتعامــل مــع كل ثناياهــا وكل تفاصيلهــا، يعــرف أيــن يحنــو، وأيــن يثــور، حتــى هُيِــئ لهــا أن هــذا

الرجُل كان شريكًا في صنعِها.

ارتبكت، ولكنه ارتباكٌ مختلِف، ارتباكٌ ممتِع، بادَلَها أيضًا هذا الارتباك، قررت الانصراف متحجِّجة بالتأخير، ولم تفاتِحه في أي تفاصيلَ خاصةٍ بالعمل أو الراتِب.

رافَقَها إلى الباب قائلا:

هانتظرك، انتي من دلوقتي سِت البيت.

خرجت مِن منزل د. أشرف وقلبها يرقص من الفرحة، نظرَ إليّ د. أشرف نظرة غيّرت ملامحي، مَحت التجاعيد التي رسمها الزمن، اجتاحني طوفان جعل كل خليةٍ فيّ ترقص، ماذا حدث لي؟ نظرت ليديها لم تعُد ترى فيهما خشونة السنين، ابتسامة عريضة ملأت وجهها، فرحة كبيرة لم تَعهدْها من قبل استعمرتها ولم تقاومها، ما هذا الهائل الذي يجتاحني الآن؟ قلبي يدق بشدة، أطير مِن على الأرض، ما هذه الفرحة التي ملأتني. فرحة.. فرحة.. فرحة كأنها بِساط الريح أركبها تطير بي فوق الأزمنة والأماكن، تطير بي فوق الجروح والآلام، تطير بي وأراها تُمسِك شيئًا ما كأنه مِمحَاة تمسح كل سطور الحزن، كأنها مادةٌ سِحرية تمُر على كل الذكريات التي طالما تركت مراراتِها في حلْقي وأصابتني بالانقباض والخوف، فجعلت تلك الذكريات كأنها لا تخصني ولا تصيب قلبي بالوجع، لا أُصدّق ما يحدث لي، أنا لا أتألم لذكرى إبراهيم، إبراهيم لم يعُد يؤلِمني! أخيرًا شُفيت، شُفيت بعد أربعين عامًا، ذِكرى إبراهيم لا تؤلِمني ولا تترك عندي مرارةَ الغدر، حَسن لا يؤلِمني، ولا أشعر

مرارة التجاهل، ليلى لا تؤلمني، لا أشعر بالإهانة ولا بالقهر، الفقر لا يؤلمني، لا شيء يؤلمني، كل هذه المرارات هزمتها فرحة، فرحة واحدة حقيقية كانت كفيلةً بأن تَهزِم كل المرارات.

تركتْ قلبَها للفرحة بينما عقلها كان مصمِّمًا على أن يعطيها إشاراتِ التوقف، وذت أن تمُد يدَها في رأسها لتنتزعَه وترميه من نافذة التاكسي، ذلك الذي يُفسِد عليها لحظاتِ الفرحة النادرة المعدودة، خبرة السنين أجابتها بأن هذا هو الحب.. ياااه.. وضعتْ يدَها على فمِها لتكتم ضحكة صاحبت هذا الاكتشافَ، كادت تنطلِق بصوتٍ عالٍ، استعادت كل اللقاء بكل تفاصيله، هذا الرجُل المختلف كيف رأته؟ كيف حدّثها؟ كيف كان ينظر لها؟ لم يكُن هناك شيء محدد تستطيع أن تلمسه، لكنَ صوتًا شديد الثقة يُعلِنها أنه الحُب، ليس مهمًّا أنني في نهاية الخمسينات، ليس مهمًّا أن العمر ضاع في المرارات، ليس مهمًّا أنني لن أراه مرة أخرى ولا أنني لن أعيشَ مَعَه.

فلم تعُد أحلامي أن أتزوج مَن أُحِب أو أعيش معه عيشةً هنية وأنجِب منه البنين والبنات، لن أنتظر منه الشبْكة أو الفرح الأسطوري، لن أحلم بأن تتأبط يدَه يداي وأدخل به في زيارةٍ عائلية لأتباهَى بهِ كَم هوَ وسيمٌ وجميل.

تخلصتْ مشاعري مِن كل هذا الزيف، ومِن كل المعادلات، ومِن كل الحسابات، الآن فقط أدركتُ قيمةَ المشاعر التي تمَس الروحَ فقط لتطهِرَها ولتُسعِدَها.

وللمرة الأولى منذ ما يقرب من أربعين عامًا، تشعر انشراح

أنها تخلصت من هذا الإحساس القاتل بالخواء الذي عاشت به عمرَها كله، اختفى الخواء الذي يجعل الأشياء بلا معنى، ويجعل كل الأحداث بلا حركة، وحتى الضحكات كانت كأسطوانةٍ قديمة صوتُها مشوّش.

الحُب هو الامتلاء، تلك اللحظة النادرة في حياة كل مِنّا، اللحظة التي أحيانًا نُفسِدها بالرغبة في مزيد من الامتلاء، اللحظة التي نريد أن نقودَها إلى طُرُقٍ ربما لا تناسبها، ونَلوي رقبتَها، ونحاول إجبارها على أن تُعطيَنا أكثر، كانت إشارات العقل تعمل بسرعةٍ شديدة جدًا، لا تعرف ما الذي دفعَ بها إلى أن تغيِّر طريقها، وإذا بها تطلب مِن التاكسي أن يوصِلها للمعادي، شعرت أنها لا تريد أن تذهب إلى المنزل، أخافت أن تَظهر علامات الحب عليها؟هل أرادت أن تستمِر في مشاعر اللحظة وتشارِك فيها ناهد تلك التي كانت سببًا في معرفتها بأشرف؟ أم أنها لم تكُن تريد أن تعود إلى واقعها بهذه السرعة؟

كان منزل ناهد دافئًا على غير العادة، سألتْهَا:

-هو انتي زوّدتي عفش أو دفَايات؟ بيتك دافي قوي النهارده يا ناهد!

-بيتي زي ما هو ولا زوّدت موبيليا ولا دفَايات، يمكن انتي اللي جايَه من المشوار دفيانة.. إيه طمنيني عليكي رُحتي عند أشرف؟

شردت بعمق وأجابتها:

-أيوه رحت. ثم ابتسمت

أجابتها ناهد:

-مش قلت لك راجل لطيف، ده فنان بجد، حد محترم جدا وإنسان جدا، هترتاحي في الشغل عنده، وكمان ابن ناس يعني هيعاملك باحترام، أنا كمان مفهماه انك عزيزة عليّا قوي.

-آه هو راجل لطيف فعلا، بس أنا مش هاشتغل عنده، مش هينفع

- إيه؟ انتي غريبة قوي.. ليه لأ؟

كانت انشراح قد نوت أن تحكي لناهد كيف وقعت في غرام أشرف، كانت تنوي أن تقول لها إنها متأكدة أن أشرف لم يرَها خادمة وأنه أيضًا وقع في غرامها، نَعَم هي متأكدة.. الصَبُّ تَفضحُه عيناه.. لكنّ شيئًا ما منعَها، عندما بدأت ناهد تتحدث كأنها بكلامها أعادتها إلى واقع نسيَته لساعات، ارتبكتْ لم تعرف بماذا تُجيبها.

-مش هينفع وخلاص

-ليه؟ ضايقك في حاجة؟ عرَض عليكي مرتب قليل؟ لو دي المشكلة أنا ممكن اقول له يزوّد لك المرتب.

احتدت عليها انشراح قائلة:

-لأ وخلاص يا ناهد، مش قِصة مرتب، مش هينفع

رن جرس المحمول الخاص بناهد، نظرت إلى شاشة المحمول ووجّهت كلامَها لانشراح:

- ده أشرف!

أجابتها انشراح بسرعة وبعفوية فتاةٍ تهرب مِن حبيبها:

- أنا مش عندك

نظرة دَهشة ارتسمت على وجه ناهد، وكانت هذه النظرة

تزداد اتساعًا عندما أدركت أن المكالمة خصيصًا مِن أجل انشراح، طلب منها أشرف بصورةٍ مباشِرة رقم محمول انشراح، رددت ناهد طلبَه بصوتٍ عالٍ حتى تَسمعها انشراح، التي أشارت لها بعدم موافقتها بينما تقول بصوتٍ ضعيف متردد.

-لأ

أجابته ناهد:

- ليه فيه حاجة عايز تقولها لها؟ أصلي قلقانة اعطيك الرقم، اتصالك يعمل لها مشكلة.

تلجلج أشرف قائلا:

- لا..

ثم سكتَ لوهلةٍ وقال:

- أيوه..

ثم أعاد بصوت أكثر ثباتًا:

- أيوه عايزها ضروري قولي لها أنا عايز الرقم جدا، واستأذنيها اني أكلمها أرجوكي يا ناهد وأنا هاكلمك كمان عشر دقايق

- ماشي يا أشرف، هاتصل بيها واقول لها وأرد عليك.

أنهت ناهد المكالمة ونظرت لانشراح نظرةَ مُحققٍ خبيث متسائلة:

- فيه إيه بقى؟

أجابتها انشراح بمرارة مَن يدفن وليدَه:

- فيه اللي انتي حسّتيه يا ناهد، انتي حسّيتي إيه؟

- حسيت حاجة عقلي مش مستوعبها

- مش مستوعبها ليه؟ علشان هو فنان مشهور مثقف نجم باشا؟ هههههه وأنا شغّالة!

نظرت إليها ناهد بحنان وحُب، كلّمتها بنبرة كلها جدية:

-لا طبعا، عمر ما حد فينا شافك كده، انتي فيكي حاجة تشد اللي قدامك وتجبره على التعامل معاكي بتقدير، فيكي سر يخلي أي حد يسيب نفسه ليكي وهو متطمن، يمكن في روحك في حكمتك يمكن في صدقك، مش عارفة، انت توليفة عجيبة عندك القدرة انك تحتوي أي حد وتخليه يحس معاكي بالراحة، في أزمتي مع عدنان قدرتي تقدمي لي اللي أمي بنت الباشاوات ووالدي رجل القانون العظيم عجزوا انهم يقدموه، ومش انا بس، غادة المثقفة، وعادل المليونير اللي درس في أمريكا، ومادلين وغيرهم، حتى جيرانك في الدرب الاحمر والكلحة حسوا انك مختلفة، ماعرفوش يفسروا اختلافك قالوا فيكي حاجة لله.

-كفاية يا ناهد، مختلفه إيه وسر إيه؟ انتي بس بتقولي كده علشان بتحبيني.

- ما هو ده السر اللي بيخليني احبك وخلى أشرف الدمرداش يحبك، أنا طول عمري رأيي فيكي انك سِت جامده بس الزمن هو اللي ظالم، ده فيه ستات كبب وعاملين نفسهم هوانم، هههههه ما علينا، طيب وإيه بقى؟ أدّي له الرقم؟

أغمضت انشراح عينيها، ارتكنت برأسها على خلفية الفوتيه، استرخت وشردت بعيدًا، كأن حالة الانجذاب التبسَتها، كان وجهها

يضحك كالأطفال، وقعت الطرحة على الأرض، لمعت خصلات شَعرها الذهبي الممزوج بالأبيض كأنها صفَّفته خصيصًا عند أشهر مُصفِّفي الشَّعر، تحت إضاءة قوية مِن لمباديره بجوار الفوتيه، أظهرت بوضوح ملامحها المبتهِجة في صمت، امتدت الإضاءة لتُغطّي رقبتَها، كانت فاتنةً لدرجة أن ناهد قامت بتصويرها وهي مستغرِقة حالِمة، فقدْ بدت لها كأنها وَجهُ تمثالٍ لفتاة إغريقية مصنوع من المَرمَر، جاءت لتوِّها مِن أسطورة.

- لأ

-مالك يا انشراح؟ هو انتي مبسوطة ولا زعلانة ومخضوضة؟ مش فاهماكي!

ابتسمت انشراح ابتسامة من القلب وأجابتها:

- فرحانة يا ناهد، باحِب وبأتحَب، طايرة يا ناهد من جوّايا، الفرحة مخلياني مش هنا. وسِيبك من موضوع النجم والشغالة، الحب مافيهوش كده، الروح لما تتقابل مع الروح حاجة تانية، حاجة ما تتوصيفش ولا تتقال ولا تتكتب، إحساس ممكن تعيشي سنين تدوّري عليه، وممكن تموتي من غير ما تعرفيه، أنا قابلته مرتين، مرة وأنا عندي أربعتاشر سَنَة، ومره تانية وأنا عندي تمانية وخمسين سَنَة، النهارده يا ناهد، النهارده مع أشرف.. فاهمة حاجة؟

- بصراحة شايفة، شايفة الفرحة اللي في عنيكي لدرجة ان دموعك نازلة، طيّب إيه؟ أدي له تليفونك؟

- لا إوعي، أنا مش عايزة اشوفه تاني ولا اكلمه في حياتي أبدا.

- لا بقى مش فاهمة.

- أنا أخدت أجمل حاجة في الحب، الحب نفسه، إحساسي اني باحِب وانه بيحبني، تفتكري إيه بعد كده ممكن يكون في حلاوة اللحظة دي وصدقها؟

هنتكلم هنقول ايه؟ هنتقابل هنعمل ايه؟ هنتجوز مثلا؟

- وليه لأ؟

- وليه آه؟ كل ده ما يلزمنيش، يمكن كان يلزمني زمان اكمّل تعليمي واتجوز راجل متعلم وابقى وزيرة، على قولة أبله مفيدة.

- وإيه المشكلة حتى لو في السن ده تقدري تعيشي مع راجل بتحبيه وبيحبك، وتحققي جزء من أحلامك!

-المشكلة ان دي ماعادتش أحلامي، ومش شايفاها حاجات كبيرة قوي ومهمة زي ما كنت فاكرة زمان.. ضحكت وقالت: هاكلمك بلغة الصنايعية لا مؤاخذة دخلت بيوت كتير منهم اشتغلت عندهم، شفتهم من جوه وطلعوا أونطة، بِدَل منفوخة على الفاضي، ضُعفَا أكتر مما تخيلي، خايفين ومهزوزين، خايفين على الفلوس وخايفين على المناصب، وخايفين على شكلهم، كل حاجة بيعملوها بحسابات، حسابات آخر حاجة فيها -ويمكن ما تجيش أصلا- الإنسان اللي جوّاهم اللي يمكن حتى مات وهُمّ مش واخدين بالهم، ما يتخيروش عن حسن الجاهل، الجهل جهل الروح.

- بس أشرف مش كده، أشرف فنان، ده بيانيست عالمي وبيألف مزيكا وبيقود أوركسترا، ده مايسترو بيعزف في كل دور الأوبرا في

العالم وعلى كل المسارح.

- ما أنا عارفة، أشرف إنسان، لو كان زيهم كان شافني شغالة.

- طيب وليه لأ؟

- وليه آه؟

-تاني؟

- انتي مافهمتنيش برضه يا ناهد، خلاص أنا حبّيت وخلاص مش عايزة حاجة تاني، أنا هاسمّي حبي لأشرف «الحب الشافي» هاخُد اللحظة دي في حضني واعيش بيها لحد ما اموت، إحساس السعادة ده مش عايزة اشوهه بأي حاجة، أنا حبيت واكتفيت واتمليت، شوية الحب دول هيدّوني حياة روح، هارجع احب كل حاجة، هاحِب بيتي وحَسن وولادي، وأنضف البيوت وأنا مزاجي حلو، وممكن كده وأنا بانفَض الشبابيك اغنّي لما الناس قالوا انك جاي شفت أنا احلويت ازاي.. وألبس العباية وألِف الطرحة وأنا ماشية كده واثقة سعيدة، كأن الدنيا كلها بتغني لي واثق الخطوة يمشي ملكا.

قطع صوتُ جرس التليفون حديثَها. نظرت إليها ناهد قائلة:

- أشرف

ضحكت انشراح وقالت لها اتصرفي

بدون مقدمات يسألها: أيوه يا ناهد كلمتي انشراح؟

- أيوه، بس هي بتعتذر لأن لو كلمتها هتحصل مشاكل لها مع ولادها وجوزها.

تردد أشرف قليلا ثم أكمَل:

- لأ.. لازم أكلمها

حاولت ناهد ادِّعاء البلاهة

- طيّب مش بس تفهمني عايزها في إيه كده ضروري يمكن اساعدك؟

- كنت عايز اتفق معاها على المرتب، وافهمها شوية تفاصيل صغيرة عن طباعي والحاجات اللي مش بحبها، وكمان اقول لها تعمل لي مَحشي كوسة مش ورق عنب.

- أشرف بس اللي أنا فهمته من انشراح انها مش هينفع تشتغل، لأن المشوار بعيد عليها.

****

قُرب مَطلع الفَجر وبعد أن هدأت كل الأشياء، وانتهى الصخَب المعتاد إذا بها تَرَى أمامَها زائرها الليلي، كان رقيقًا ناعمًا يشبِه ليلتَها السعيدة، امرأة صارخة الجَمال، دقيقة الخصر، ضامرة البطن مجدولة تملك قوامًا فرنسيًا، طويلة كَمَلِكات الجَمال، بشرتها زيتونية، عيناها خضراوان نادرتان مسدلتان بجفنيْن ناعسيْن، أنفها صغير، شفتاها عريضتان تصاحبهما ابتسامة قوية مبتهجة، شَعرها يميل للشقرة وينسدل على كتفيها العريضين، كانت شديدة الأناقة، ترتدي فستانًا يلتفُّ حول جسدها بدقة تُبرِز جمالَه طويلا أكثر من ثلاثة أمتار، لونه كُحلي ساخن، مصنوع من الستان دوشيس، ومشغول بالتِرتِر، والأحجار الملونة، والألماس، يكشِف عن جمالِ رقبتِها وصدرها البرّاق متلألِئ الصفاء كتلألؤ المِرآة، بدا لها كأنه نرجس جَدّتها تشبهها لحدٍ

كبير. فرحت انشراح لرؤيتها:

- نرجس

أجابتها الجميلة برفق ومودة:

- لا

أنا لست نرجس، أنا انشراح عويضة

بُهتت انشراح مِن ردها، وقالت لها:

- أنا؟ أنا لم أكُن يومًا بهذا الجَمال، لم أملك يومًا هذا القوام، ولم أكُن أبدًا تلك المرأة القسيمة ذاتَ الحُسن.

- بَلى إنني أنتِ، كل مَن ينظر لكِ يراكِ كما ترينني أنتِ الآن.. هذه الرائعة الفاتنة الجميلة.

- لم أرَ نفسي مثلك، كنت دائمًا أشعر أنني امرأة شديدة القِدَم، آتية مِن زمن بعيد. كنت دائمًا أراني أكبر بكثير مِن كل مَن حولي حتى مِن جَدّتي.

تبدّلتْ هيئة الجميلة فجأة فإذا بها امرأةٌ عجوز تختفي ملامحها وراء مئاتٍ من التجاعيد، ظهْرها مُنحَنٍ لدرجة أنه لامسَ رُكبتيْهَا، العروق نافرةٌ من يديها كأنها حملت أثقال الزمان كله، وبالرغم مِن هذا لم تكُن منفِّرة، كانت شموسٌ تُطِل مِن وجهها، تخترقك أنوثة مبهَمة غامضة مِن حدقتَيْن شديدتَي الزُّرقة، اختفت العجوز وعادت الحسناء للظهور تدريجيا.

هتفت انشراح قائلة: أراني أقربَ لتلك العجوز المَحنية، كيف تقولين لي إنني تلك الحسناء؟

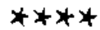
أجابتها الحسناء:

- هذه العجوز هي الألوبا التي بداخلك، هي الحكمة التي تملكينها. هل تعرفينها؟ يُحكَى في الأساطير أن امرأةً عجوزًا تعيش في كهف، كانت حياتها أن تلملِم العِظام وتجمعها، وعندما يكتمل عَظم ذئبٍ تجلس بجواره تغنّي وتغنّي، وكلما غنت يكسو اللحمُ العظامَ، ثم تعاود الغناء وتغنّي أجمل وأعلى حتى تدب فيه الروح، وكلما دبت فيه الروح اختفت مِن عندها التجاعيد وأصبحت أصبَى وأجمل، حتى وصلت لصورة الحسناء التي أعجبتكِ

- وما علاقتي أنا بها؟ وكيف تقولين إنها أنا؟

- أنتِ أيضًا كنتِ دائمًا تفعلين مثلَها، كنتِ تغنّين لقلوب متألمة ميتة أحيانا مِن الغدر، ومراتٍ من الوحدة، وأخرى من الاحتياج، حتى لقلوب قاسية جاحدة لم تَبخلي بغنائك الذي يلملِم العظامَ ويعيد لها الروح، أنتِ تملكين حكمة العجوز وعطاءَها، ولذا مهما كان شكلك لا يراكِ الناس إلا في هيئة تلك المليحة الحسناء.

ابتسمت انشراح بينما صوت غناءٍ عذبٍ مريح يملأ أرجاء الغرفة، وإذا بأشرف يدخل الغرفة، يقترب مِن انشراح يَطبع على شفتيها قُبلة.



- 19 -

قـررت غـادة أن تنسـحِب مِـن هـذا العالَـم الـذي يذكّرهـا بخيبتهـا، لم تعُـد تطيـق رؤيـة منـال أو انـشراح، هربـت مِـن أن تجـد نفسـها في مواجهـةٍ يومًـا مـا مـع حاتـم، هـو ومنـال في منـزل انـشراح. مـاذا سيكون الوضـع إذا تزوّجا وأتيا لزيـارة انشراح؟ مـاذا سيكون الوضـع إذا أنجبـا أبنـاء؟

مـرة أخـرى حاتـم يُحرِمهـا مِـن الحيـاة، انـشراح ومنزلهـا وابنتهـا شـيماء وناهـد والجـيران وزوبـة، حتـى منـال، هـؤلاء هُـم أسرتهـا الجديـدة، وإن صَـح القـول أسرتهـا الحقيقيـة التـي تعيـش معهـا منـذ سـنوات، حاتـم يكـون للمـرة الثانيـة سـببًا لحرمانهـا مِـن العالَـم، فقـدْ تخلّـت في المـرة الأولى عـن أسرتهـا وصديقاتهـا خوفًـا مِـن أن ينفضِـح أمـر علاقتهـما، وفضّلـت أن تبتعـد عـن الجميـع متحجّجـةً بانشـغالها في العمـل، حتـى أصبحـت وحيـدة تعيـش الانتظـار حتـى يَظهـر، المـرة الأولى كان ذلـك اختيارَهـا، أمّـا الآن فـلا بُـد أن ترحـل، لـن تسـتطيع البـوحَ ولـن تتحمـل البقـاء، اسـتيقظت في الصبـاح لملمـت أشـياءها وغـادرت.

عـادت إلى شـقة المَنيَـل، فتحـت الشـقة التـي كانـت معبـأة برائحـة حاتـم، الدواليـب التـي ظلـت محتفِظـة فيهـا بملابسـه، هـذه رابطـة العُنـق، وهـذه البيجامـا، صدّقـت مـا قالـه لهـا عـن سـبب بُعـده،

صدّقت مثاليته: «لم أترككِ لأني زهدتك أو لأن حُبي لكِ قد زال، ما زلت أحِبك وأعشقك، ولكني تعِبت، تعِبت مِن الكذب وافتعال المواقف حتى أراكِ، تعِبت مِن إحساسي أني ظالِم أظلم زوجتي بأنني أخونها وأظلمكِ بأنني لا أستطيع أن أوفيكِ حَقكِ، تعِبت من الخوف الدائم الذي أعيش فيه والإحساس المرعِب أنني لست عادلا، إن حُبي لكِ هو الذي دفعني لهذا القرار قرار الانسحاب، كان مِن الممكن أن أستمر وآكُل عمركِ كله في هذه الزيجة التي لا تعطيكِ أي حقوق، تأكدي أن بُعدي عنكِ هو أكبر عِقاب لي عن أنني لم أستطِع أن أكون رجُلا قويًا، كما أن العذاب الذي سأعيش فيه لحرماني منكِ هو ثمن ضعفي وعجزي، سأعود يومًا ما عندما أصبِح جديرًا بحُبكِ».

احتفظت بكُل شيء، ملابسه، روائحه، منشفته، بيجامته التي لم تغسلها حتى تظل رائحته فيها، حتى آخر قميص نوم قررت أيضا أن تحتفظ به كما هو، حاملا كل ذرّات عَرَقه ومتعته على أملٍ باللقاء.

قررت انشراح زيارتها، هناك شيء غير طبيعي حدثَ لغادة.

حاولت غادة كثيرًا إخفاء ما حدث ولكنها لم تستطع، كانت تعلَم أنها ستضع انشراح في ورطة، كانت تود أن تنأى بها عن هذا الشعور بالتمزق بين حبها لها وحبها لمنال، وبماذا ستفيد معرفة انشراح؟ وهل ستغيّر مِن الواقع شيئًا؟ لكنها لم تستطِع أن تصمت، هناك شيء مرعِب تحمله بين ضلوعها تريد أن يشاركها فيه أحد،

تحجَجت لنفسها بأنها لا بُد أن تشرح لانشراح السببَ الحقيقي وراء بُعدها واختفائها، ولكنها كانت تعلَم أنها مجرد حُجة.. هي تريد أن تحكي فقط تحكي.

-انشراح، الكلام اللي هاقوله مش عايزه حد يعرفه وخصوصا منال، ده سر ولازم يفضل بيننا.

أخذت غادة تحكي كل التفاصيل عن علاقتها بحاتم، الحب والزواج وكيف أجهضت نفسها دون عِلمِه عندما حملت بالخطأ، كيف ذهبت للطبيب بمفردها ولم تحكِ له خوفًا أن يسبب ذلك الحَمْل مشكلة، حكت عن الإهمال والتذلل والأمل والغدر، وحتى ما حاولت إقناع نفسها به من مثاليته وأخلاقه التي حَرَمته من الاستمتاع بحبه، حكت كيف صدَقت أعذاره الواهية وكيف اقتنعت بكل هذه الكذبة، كانت تحكي ويتخلل حديثها نوبات من ضيق التنفس ويصاحبها صوت مكتوم أحيانًا لا يقوَى على الحكي، وعندما أنهت حديثها انفجرت في بكاءٍ هيستيري: هو أنا ولا حاجة قوي كده؟ كل ده مالوش قيمة؟ كل ده ماحرَكش جوَاه حاجة؟ أخذت تبكي وتعيد: هو أنا ولا حاجة قوي كده؟ رفض يعمل علشاني أي حاجة، حتى دِبلة مرضيش يشتريها، وعلشان منال هو جاهز لكل حاجة، يضحي بكل حاجة، بس هي ترضى!

كان شكل غادة لا يختلف كثيرًا عن شكل منال، وقت أن أجهضتها ليلى منذ عشر سنوات، الذهول نفسه، الصدمة نفسها، الجرح نفسه.

أخـذت انـشراح تنظـر لغـادة ولا تعـرف مـاذا تقـول لهـا، دخلـت انـشراح المطبـخ ولأول مـرة منـذ وفـاة حيـاه تنـزل دمـوع انـشراح، تذكـرت وصفـة الكلبـة وأنهـا ربمـا تكـون السـبب في مـا تعيشـه غـادة مـن ألم، فلـولا الوصفـة السـحرية التـي عملتهـا لمنـال حتـى تسـاعدها أن تنتقـم لنفسـها، مـا كان حاتـم رَكَـعَ لهـا.

هـل تصـارح غـادة؟ وهـل ذلـك سـيخفف مـن الألم؟ أخـذت تنظـر لغـادة تلـك المـرأة القويـة التـي تحملـت كل هـذا دون أن تنطـق، دون أن تَخـرج لـه وتواجِهـه، دون أن تحـكي لمنـال، دون أن تحـاول إفسـاد أي شيء، تأكـدت أنهـا سـيدة مِـن عَينـة نرجـس وحيـاة، مِـن تلـك العَينـة التـي تعـوَد الزمـن أن يزيدهـا مـن ضرباتـه فقـط ليسـتمتع برؤيـة المقـاوَم، قـررت أن تصارِحهـا.

- أنـا هاحكيلـك عـلى حاجـة عملتهـا زمـان، زمـان قـوي ونسـيتها، وبصراحـة أنـا كنـت باعملهـا وأنـا نفـسي مـش مصدقـة فيهـا، أنـا بعمـل وصفـات سـحر ورثتهـا عـن جدتي، بـس أنـا بقـى كنـت عاملـة نفـسي متعلمـة ومثقفـة وبافهـم ومـش زي النـاس الجَهلـة، ولمـا كنـت باعمـل الوصفـات دي كنـت باعتبرهـا عـلاج نفـسي، حاجـة بتقـوّي اللي قُدامـي واللـي غالبًـا بيبقـى مقهـور وضعيـف ومـش عـارف ياخـد حقـه، واليـأس جـوّاه ومعنـدوش أمـل في حاجـة.. كنـت بعتـبر الوصفـة دي حاجـة هتسـنده لحـد مـا يعـدّي الأزمـه والصدمـة، هيصـدّق ان مشـكلته هتتحـل، هيقـوّى ويتماسـك ويقـدر يفكـر ومـا يتألمـش، عمـري مـا صدّقـت ان الوصفـات دي فعـلا بتعمـل حاجـة، بـس بعـد

اللي انتي حكيتيه ده عن اللي بيعملُه حاتم، ده مش طبيعي، دا صدّقيني تأثير سحر أنا اللي عملته من سنين، كانت نرجس تقول لي الوصفة دي بتجيب أتخن شنب راكع، كانت تقول لي كل الوصفات كوم ودي كوم، وأنا فعلا معملتهاش غير لمنال مِن حُرقتي عليها وإحساسي بالظلم اللي هي شافته، عملتها وبرضه ماكُنتش مصدَقة ولا مقتنعة بس قلت أجرب ونسيت.

لم تستوعِب غادة ما الذي تقوله انشراح، ولكن كأن شيئًا ما حل لها أزمتها: «أنا ماكنتش رخيصه عنده ، وهو مش ندل؟ ده سحر؟»

سكتت كثيرًا وبكت بكاءً هادئًا وإذا بها فجأة تقول لانشراح:

طيِّب فُكي السحر، فُكي السحر وسيبوه في حاله، على الأقل اكون حافظت على الحاجة اللي ضحيت بعمري علشانها، بيته واستقراره، منال عندها كتير، عندها رضا الحلواني، وعندها أمجد وأحمد، ومنال أصلا مش هيفرق معاها حاتم ولا هاني.

انفجرت في البكاء بتوسُلٍ: أرجوكي فُكي السحر وانقذي حاتم، حياته كلها هتتدمر وهي في الآخر هترميه، منال مش هتستحمل تعيش معاه مُخلِصة لِيه، أرجوكي يا انشراح فُكي السحر.

كان طلب غادة مفاجأة لانشراح، أجابت بصوتٍ مَن لا حولَ له ولا قوة:

-عايزاني اعمل ايه؟ سحر إيه اللي أفكه؟ واللهِ ما اعرف بيتفك ازاي!

نظرت لها غادة:

- للدرجة دي حُبك لمنال؟ للدرجة دي مش فارِق معاكي حاجة

بعد كل اللي قلته ليكي؟ مش فارقة معاكي مشاعري؟

- والله يا حبيبتي كل اللي اعرفه ان الكلبة لازم تموت، وساعتها التأثير يبطَل، واللهُ أعلم فين الكلبة دي، دي كانت كلبة في الصحرا من عشر سنين، هاجيبها منين يعني؟

فكرت غادة:

- أوكيه اعملي وصفه تبعده عنها، ولا اقول لك، اعمليلي أنا كمان وصفة الكلبة، وكده هنكون أنا ومنال زي بعض، وساعتها هنعرف تصرفات حاتم دي تأثير سحر ولا حُب.

اندهشت انشراح من طلبها، ولكنها وافقت كي تهدّئ غادة:

- مافيش مشكلة، بُكرة نطلع أنا وانتي بالعربية الصحرا ونصطاد كلبة، وأكون أنا جهزت الخَلطة.

هدأت غادة قليلا، وقامت انشراح بعمل فنجانيْن مِن القهوة، شربا معًا واتفقا على اللقاء في الغد



- 20 -

تكررت ليالي الخميس الحمراء، واظبت عليها ناهد كعهدٍ مقدس وأضحية للخلاص، في بداية الأمر كانت ناهد تمارس طقوسَها وهي تبكي وتشعر بالإهانة، ولكن ما أنْ تعودت عليها وبدأت تستمع بعلاقتها بهذا الجن الأسمر، حتى بدأت تعيشها بكل ما فيها من إحساس، تخلصت فيها من كل شيء، وأطلقت البراح لجسدها أن يعبّر عن نفسه، يثور ويفور حتى يهدأ، تخلصت من الخجل، إنها وللمرة الأولى تمارِس الجنسَ بحُرية تامة، تقول كل ما تريد، تتخيل كل ما تريد، تَسمع كل ما تريد، وتفعل أيضًا كل ما تريد، تحررت مِن كل شيء حتى من احتياجها لرجُل، رسمت صورة عن ممارسة الحُب وطقوس الجنس وبلوغ النشوَة، تعلمت مع الجن الأسمر كيف تكون نفسها، أصبحت أكثر قوة وتماسُكًا، وإذا بها تشعر بالرغبة في حياة حقيقية، حياة لا تكون مجبَرةً فيها على معاشرة رجُل يعطيها الحبَ كأنه واجِب، رجُل تشعر وهي تقترب منه بعشرات الحواجز بينهما، لقد فكرت مئات المرات في طلب الانفصال ولكنها كانت ضعيفة مهزومة، لم تقوَ على تنفيذ ما أرادت، تحمّلت سنواتٍ وسنوات هذا الألم وذلك الضغط النفسي، لم تعرف أبدا لماذا كانت ضعيفة، كما لم تعرف أيضًا لماذا هي الآن قوية، ما الذي أضافه لها طقسٌ وهْمي مع رجُل وهْمي؟

فكرت أن تتردد على عيادة طبيبٍ نفسي ليفسِّر لها كيف صدّقت تلك الفكرة وكيف خضعت لها، ثم كيف استمتعت بها ثم في الآخِر كيف أدركتها، ولماذا الطبيب إذا كان الإدراك نفسه دليلا على التعافي؟

نَعَم تعافت، وتعلّم أن شهاب شخصية وهْمية، وأن ما تمارسه كل خميس شيء يشبِه العادةَ السِرية، ولكن الأهم أنها أصبحت أنثى معتزةً بجَمالها وتقدّره ولن تعطيه لأي رجُل لا يحترمه، ولن تنهار إذا انفصلت عن مجدي.

كان قرارًا سهلا.. فمجدي كان يريده أيضًا، وحتى هذا لم يؤلِمُها، وعلّقت على هذا بقولها: «لقد احتضرت علاقتنا منذ زمن، كان الإبقاء عليها كمَنْ يحنّط جثة منتظِرًا أن تدب فيها الروح، الشيء الوحيد الذي بقي فيها هو ذلك القيد الذي خاف كل مِنا أن يكسره، مَن مِنا كان يملك شجاعة القرار؟».

عادت ناهد إلى عالَمِها، دبت فيها الحيوية، جددت فيلا والدِها وانتقلت للحياة فيها مع أولادها احتفظت بعلاقتها الطيبة بمجدي، وكانت تبرر ذلك قائلة: «الناس بتعادي بعض وتكره بعض لمّا بيكونوا لسه عايزين حاجة من بعض».

فتحت النوافذَ واستمتعت بموسيقى فرانز ليست، وبدأت ترسم، ترسم لوحاتِها الصغيرةَ شخابيط تُعَد فلا تُحصَى، صبغت شَعرها باللون الأشقر السانْدريه، الذي كان سابقًا لا يليق بزوجة رجُلٍ أزهري، ولكن الأهم من ذلك أنها أصبحت تنام بعمق وبابتسامة،

أحيانًا يزورها شهاب فتضحك قائلة مرحبا بك أيها الجن الأسمر.. جن الخلاص.

****

شمسُ القاهرة المشرقة الدافئة، ونهارٌ ربيعي في منطقة الداون تاون في التجمّع الخامس بنافوراتها الجميلة واثنين دوبل اكسبرسيو في ستار باكس، يتبعهما غداء شَهي في بول على الجانب الآخر، وربما قليلا مِن التسكع في المحلات كعادةٍ نسائية ممتِعة تصاحِب متعة القهوة، هكذا قررت ناهد أن تقضي يومَها مع انشراح التي لم تمانِع، فقدْ كانت في أمَسّ الحاجة إلى الخروج بعد الضغط النفسي الذي تعرضت له بسبب منال وغادة:

-عايزه أشكرك جدًا يا انشراح، وفيه مواضيع كتير قوي عايزة اتكلم معاكي فيها

-تشكريني على إيه؟ مش فاهمة!

-أولا أشكرك على شهاب، وعلى إنك قِدرتي تساعديني بفكرة وهمية اني أتجاوز أزمة كبيرة في حياتي، ده طبعًا غير اللي انتي طول عمرك بتعمِليه معايا، علشان كده أنا كمان عايزة اعمل لك حاجة، قولي لي عاملة إيه مع حَسن؟

اندهشت انشراح من السؤال:

-حَسن؟ هو حَسن ، موجود بالطريقة اللي هوّ عايزها، وبالحجم اللي هوّ عايزة،فوق العشرين سَنه بشوفه في اليوم رُبع ساعة

يجي يتعشى ويدخل غرفته وينام، وينزل الصبح بدري بيتسحّب علشان محدش يطلب منه مصروف، يسيب الخمسة جنيه على الترابيزة وينزل.. بس غريبة بتسألي ليه؟

-مش غريبة ولا حاجة، باطمئن عليكي، آه فكّرتيني قبل ما انسى، هي بيسة أختك ماحاولتش تتصل بيكي اليومين دول؟

-بيسه؟ مالِك يا ناهد، اللي فكرك ببيسة؟ دي هي ماحاولتش تشوفني من يوم ما جَت زارتني أيام السادات غير مرة واختفت كعادتها.

-لا أبدًا، أصلي لسّه شايفة اسمها في المترشحين لمجلس الشعب عن الدايرة بتاعتكم، فتوقعت انها أكيد هتتصل بيكي.

-بيسة رشحت نفسها لمجلس الشعب؟ وهي مالها بمجلس الشعب؟ دي مالهاش غير في قال الله وقال الرسول!

-ساعات بحِس انك مش في الدنيا، بيسة جوزها مِن أهم رموز الإخوان، أنا مش عارفة هي ليه ما اترشحتش في ألفين وخمسة أيام الإسلام هو الحل، كان الشارع معاهم والحكومة كانت سايباهم، دلوقتي مضيّقين عليهم، ما اعتقدش هيعرفوا يعملوا حاجة في انتخابات ألفين وعَشرة، بس هي عموما مترشحة على مقاعد الكوتة.

- أنا عارفة ان جوزها من الإخوان سُنّي يعني، بس الإخوان المسلمين مالهم ومال السياسة؟ وإيه الكوتة دي؟

-خلاص يا انشراح، شكلك فعلا ضايعة في السياسة، أبقى أشرح لك

بعديـن، وعـلى فكـرة طـارق كـمان مترشّـح للمجلـس، وطبعًـا مجدي ده بقـى شـاري كـرسي كاتـب عليـه اسـمه في البرلمـان.

- طارق مين؟

- طارق ابن أخوكي سيد

- طـارق ابـن ليـلى؟ ده حشّـاش، هـو لُـه في حاجـة غـير السـهر والـشرب والرقـص؟

-لا، لُـه ومسـنود عـلى اسـم حَـمَاه الدكتـور عبـد الفتـاح رضـوان، دول كفايـة أعضـاء النـادي اللي هينتخبـوه علشـان يجاملـوا حَـمَاه، ابسـطِي يـا سِـتّي اختـك وابـن اخـوكي هيكونـوا نـوّاب الشـعب.

-مجلـس الشـعب! طـارق وبيسـة؟ طـارق ابـن ليـلي ده يـاكُل مـال النبـي ويحـلّي بالصحابـة، وبيسـة! ودول هيعملـوا إيـه للشـعب إذا كانـوا مابيسـألوش عـلى أهلهـم؟ ياللـه لـه في خلقـه شـؤون.

- المهم أشرف طلب يتجوزك.

- فيه إيه النهارده؟ إيه كل المفاجآت دي؟

- فيها إيه يعني؟

- أشرف إيـه وجـواز إيـه؟ انتـي ناسـية اني متجـوزة؟ وبعديـن مـا احنـا قفلنـا الموضـوع ده مـن زمان.

-وإيه المشكلة؟ ربنا حلّل الطلاق.

- آه بـس حَسـن عايـش، ماغـدّرش بيّـا، آه عايـش بطريقتـه وبغباوتـه وبقسـوته، بـس عايـش.

- أيـوه، بـس دي مـش عيشـة، وهـو طـول عمـره بيعاملـك بغبـاوة،

وتقريبا مش بيديليك حقوقك.

- أنا عمري ما اتكلمت عن حَسن كويس، وطول عمري باشتكي منه، بس الحقيقة أنا ساعات بحِس اني أنا اللي أذيته.

- ده كلام جديد أول مرة أسمعه منك.

- يمكن علشان أول مرة أسال نفسي ليه لما جَتلي فرصة أسيب حَسن، وأنا اللي طول عمري باشتكي منه، قلبي ما طاوعنيش اعملها؟ حَسن أصغر مِني بعشر سنين، جاهل ما بيفُكّش الخط، في الحقيقة أنا كنت أكبر منه بكتير مش في السن بس، في كل حاجة، حَسن كان دايما يحِس اني بفهَم عنه وباعرف اتصرف عنه، دا كان فاكرني بعرف فرنساوي علشان كنت بقعد أغنّي بالفرنساوي، أقول لك حَسن فِهم مع الوقت انه لو اتشعبط في السما وركب المراجيح وعمل كل الشقلبانات، مش هيحِس برجولته، ويمكن ده السبب اللي كان بيخليه يهجرني ويروح لشرايط الفيديو، يمكن كان عايز يكسر نفسي ولا الإحساس ده خلاه بعيد عني؟ ماعرفش، وانا كمان زوّدتها، اتعلمت استوعِب ضعفه وقلة حيلته واسامحه واغفر له، لحد ما اتحولت لأُم تحت مسمّى زوجة، وأكيد أنا نفسي ما كُنتش حاسّه انه راجلي، ومع كل ده عاش ومَباعنيش وسابني وراح اتجوّز واحدة تانية صغيرة وعلى قَد إيده، مع إنه كان يقدر، ناهد أنا مش هاعمل كده في حَسن، أنا غيرك انتي ومَجدي، انتم تعِبتم مِن بعض وكل واحد فيكم كان مستنّي اللحظة انه يمشي، أنا وحَسن استقرينا على وضع مريّحنا احنا

الاتنين، هوَ له حياته وأنا ليّا حياتي، لا فيه قلة أدب ولا جُرَس ولا مَد إيد، عايشين باحترام لحدّ ما حَدّ فينا ربنا يفتكره.

- وأشرف؟

- قلت لك أشرف حُبي له هو الحب الشافي، هو الفرحة اللي هاعيش بيها لحد ما اموت.

- طيّب وهوّ! ما فكرتيش فيه؟ ده بيتعذب وبيتألم، نِفسه يبقى جنبك، ده بيقول لي باحبها يا ناهد نِفسي أسعدها، وعلى فكره هو بعت لك جواب معايا.

جلست ناهد تقرأ لانشراح رسالة أشرف

«مَر أكثر مِن عامٍ ونِصف على ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه، حاولت فيه أن أنساكِ، وأن أحترم اختيارك وأن انصاع لإرادتك وأقتنع بكل مبرراتك، ولكني اكتشفت أنني كالفارس الذي هرب بجواده من أرض متأكد أنها أرضه، سألت نفسي كثيرا هل ما فعلته احترام أم استسلام؟ لم يعد عقلي يستطيع أن يوجهني، آلام بعدك تفوق احتمالي، وقتها أدركت أنه عندما يجتاحنا الحب، أي حب، تتضاءل الحكمة ويذوب المنطق، فهمت كيف يموت الشهداء وكيف يتحمل السياسيون المعتقلات وكيف وكيف. أشياء كثيرة افتقدتها في عالم الشهرة والأضواء، حيث كل شيء حولك لامع، حيث أنت بالنسبة للجميع سلعة مهما علت قيمتها ولكنها تظل سلعة، انشراح، الموت قريب يحاصرنا جميعًا، عِشت بهلع أن أستيقظ يومًا فلا أجدك أو أن أرحل دون أن أبوح لك بوحَ

العاشـقين، لقـد كذبـتُ عندمـا وافقتـك عـلى اختيـارك وإنـكِ اكتفيـت بشـعور الحُـب، في حُبّـك تعلمـتُ أفعـالا ليسـت مِنـي، وخصـالا لا تشـبِهني، فـلا تضحيـات ولا بطـولات ولا حكمـة، معـك عرَفـتُ أن الحـب أنانيـة وغَـيْرة وامتـلاك، ومـا دون ذلـك عبـث، الحُـب جنـون، ذوبـان إلى المنتهَـى حيـث الارتـواء، في الحُـب لا توجـد حلـولٌ وسـطَى، كذبـتُ عـلى نفسـي وحاولـت أن أصـدق كـذبي أنني سـأرضي بحـب لا يعـاش، حاولـت أن أقنـع نفسـي بـكل مبرراتـك، ولكـن قلبـي كان يعلـن دائمًـا تمـرُدَه عـليّ وعـلى كـذبي، كان يطالبنـي بـك لا يهـدأ، كأن حُبـي لـك مـاردٌ حبسـته رغـمًا عنـه، مـاردٌ يفتِـك بي رافضًـا الاستسـلامَ لِـمَا أمليتِـه عـليّ، يقاومنـي، يحـاول الخـروج مِـن سِـجنِه، تتشـبثُ أظفـاره بجِلـدي، يقطـع لحمـي، يمزقنـي، يشـق صـدري ليخـرج ولا يسـتطيع، يضغـط عـلى أضلعـي، أشـعر بهـا تتهشـم، أسـمع رئتَـي اللتـين لا تقويـانِ عـلى التنفـس فتخـرج أنفـاسي مسـتغيثة مِـن هـذا الشـوق الجاثـم عليهـما يحرقهـما ويحـرق كل ثناياي، كَـم كتمـتُ وجـدي لـك ألمًـا ونـارًا وزفـراتٍ تـئِن، فطـرت قلبـي الـذي لا يهـدأ ولا ينـام ولا يكُـف عـن الحنـين، وعندمـا يخوننـي الصـبر لا أخجـل أن أقـول لـك إننـي لا أجـد إلا أنهـارًا مِـن بـكاء مخـذولٍ لـن ينتـصر لدموعـه أحـد، فتكتفـي أن تشـق عـلى قسـمات وجهـي قنـوات مِـن الاحتيـاج، لترتكـن إليهـا دموعـي كل ليلـة، عـلى أمـلٍ يائـس بلقـاء تغمـرك بهـا كقربـان محبـة».

أنهـت ناهـد الخطـاب، نظـرت لانـشراح متنهـدة متأثـرة، وقالـت لهـا بصـوت يائـس:

أقول له إيه؟

لم تكن انشراح في حاله تسمح لها بأن تقول أي شيء، بعد سماع كلمات أشرف لها، تذكرت تصرفات حسن وطريقته معها، عقدت مشاعرها رغما عنها مقارنة بين كل مشاعر التخلي والخذلان التي عاشتها في حياتها، وبين ما اعتبرته مكافأة السماء.

أجابت بصوت مكتوم

قولي له انشراح بتقول لك انت رحمة ربنا ليا.

قولي له سعادتها حصلت بحبك ليها وده كفاية، كفاية إحساسي انه بيحبني.

- إنتي بتقولي إيه؟ عايزاني أقول له كده؟ ده يتجنن.

أجابتها بصوت مهزوم:

ماعرفش، قولي اللي انتي عايزة تقوليه، بس أنا ماقيش في إيدي حاجة.

-على فكرة هو عايز يشوفك ويتكلم معاكي.

- ناهد، مش هينفع، أنا مش عايزة أشوفه، أنا باحبه، افهمي، لو شفته هاضعف.

-ما تضعفي، إيه المشكلة؟

- اقول لك، أنا لازم امشي، ورايا مشوار صعب بكرة واحتمال احتاج عربيتك العالية، نتكلم بعدين.

في طريق العودة كانت انشراح تفكر:

ياه شعور يقلب حياة الإنسان! عشت طول عمري مهزومة

لشعوري ان إبراهيم خذلني، ودلوقتي أنا طايرة لأن فكرة ان أشرف بيحبني ملياني. أنا دلوقتي فهمت إحساس غادة، استحملت سنين مَرار في جوازة سرية وبعدهم سنين وهو مش معاها، لأنها كانت مصدّقة انه بيحبها وان الظروف كانت أقوى منهم، شعورها انه بيحبها خلاها ترفض عادل وتعيش قوية وتحب الناس وتعمل دروس محو أميّة بالمجّان، وتساعد دي وده. غادة فعلا في كارثة، فقدت الشعور اللي كان مِدّيها الحياة، وفقدته بطريقة قاسية، شافته بيركع لسِت تانية، أنا مش ممكن أسيبها، لازم افضل معاها لحد ما تسترد نفسها، بس موضوع الصحرا مش حل.

في صباح اليوم التالي مرت انشراح على غادة في منزلها بالمَنيل، للذهاب إلى الصحراء كما اتفقتا، وبينما هُما في السيارة قالت انشراح لغادة:

-أنا عايزة أروح وِسط البلد الأول نشرب القهوة ونِفطر في جروبي، قبل ما نعمل مشوارنا، احنا هيكون قُدّامنا يوم طويل ويا عالم هنلاقي الكلبة اللي شبَهك ولا لأ.

انزعجت غادة من الجُملة ولكنها أجابتها:

-مش انتي اللي قُلتي لازم نروح بَدري؟

-آه، بس أنا مصدّعة ومَافطِرتش، يلا على جروبي اسمعي كلامي بَدّل ما اسخطك ضفدعة.

لم تكُن غادة لتتحمل هذه المداعَبة السخيفة، وبالرغم من أنها كانت في لهفة شديدة لبدء المغامرة وظلت طول الليل تنتظِر

ماذا سيحدث غدًا، فما أنْ سمعت عرْض انشراح حتى أتتها الرغبة جارفةً في الذهاب إلى جروبي وتناولِ قهوة الصباح هناك.

- فكّريني يا غادة بالاسم اللي والدك كان بيسمّي بيه الميدان، كحكة إيه؟

ضحكت غادة قائلة:

الكعكة الحَجرية.. انتي عارفة ان القصيدة دِي اتكتبت أيام مظاهرات الطلّبة سَنَة اتنين وسبعين؟ اللي بابا شارك فيها.

-آه فكّرتيني بالمظاهرات

- انتي مش قُلتي انك ماكنتيش في الجامعة؟

آه مَدَخلتش الجامعة ولا شاركت في المظاهرات، بس كان لينا جيران طلّبة في كُلية الهندسة، كنت باكتب لهم حاجات بزهرة الغسيل، وبعدين في 77 كُلنا خرجنا أقولك على حاجة أمي دخلت على الجمعية الاستهلاكية مع ناس كتير قوي كسّروها وبِقت تشيل وتعبّي، وجابت لنا لحمة قعدنا ناكل فيها شهرين، هو اسمه إيه الشاعر بتاع الكحكة؟

- كحكة برضه؟ اسم القصيدة الكعكة الحَجرية، واللي كتبها شاعر اسمه أمل دنقل.. وعنده قصيدة تانية حلوة قوي اسمها «لا تُصَالِح»

-صعبة برضه زي الكعكة الحجرية اللي مافهمتش منها حاجة دي؟

-لا، دي رائعة وسهلة.. تِحبي أقولها لك؟

- قوليها لو تِحبي

- اسمها «لا تُصالح»

«لا تُصالِحْ.. ولو مَنحوكَ الذهبْ

تُرَى حين أفقأ عينيْكَ

ثم أُثبتُ جوهرَتَيْنِ مكانَهما

هل ترى؟

هي أشياء لا تُشترَى».

نظرت غادة لانشراح وسألتها فجأة:

-انتي جِبتينا هنا ليه؟

ابتسمت انشراح بحنان وأجابتها

- علشان تِحسّي باللي انتي حاسّة بيه دلوقتي

-وانتي إيه عرّفك أنا حاسّة بإيه؟

ضحكت انشراح وقالت:

- إذا كنت أنا يا انشراح يا جاهلة يا اللي أبويا تاجِر مخدرات، مقبِلتهاش على نفسي، على فكرة أنا كنت باحِب وأنا في إعدادي واحد اسمه إبراهيم، وكان زميل والدك في كلية الهندسة، وكان في مظاهرات الطلبة، وفجأة سابِني وسافر فرنسا يدرِس ومارجِعش، وقعدت مستنّيَاه يرجَع يِيجي عشر سنين، ومعملتلوش حاجة ولا وَصفة ولا رُبع وَصفة، ماقبِلتهاش على كرامتي، عايزة الوصفة ليه؟ حاسّه انك مجروحة؟ حاسّة انك ولا حاجة؟ عايزة تثبِتي إيه؟ إنه حبّك ولا انه مَاحَبّكيش؟ عايزه ترجّعيه ولا تسيبيه؟ عايزة إيه؟ صعبان عليكي ان واحدة بأخلاق

منـال تكـون هـي السِـت الـلي عايـز يذّيهـا اسـمه؟ مـش يمكـن هو شبَهها يحُـط إيـده في أي حاجـة ياخـد الـلي عايـزه ويجـري، بيـدوّر عـلى مصلحته وبـس مايهمـوش هـو بيـدوس عـلى إيه ولا عـلى مين؟ بُـصّي حتى لـو حاتم كان فعـلا وقـع في غـرام منـال مِـن غـير وصفـة، الحقيقـة هـي لعبـة ما بين اتنـين محترفـين، هـو متعـوّد ياخُـد الـلي هـوَ عايـزُه بشروطـه وببـلاش، بس هـيّ كـمان محترفـة مـا ديتـوش الـلي هـوَ عايـزه وحطـت شروطهـا، ولأنـه مغـرور ومـا اتعـودش ان فيـه حاجة نفسـه فيهـا مايوصلهاش وقـع في الفخ وبـدأ يسـلّم بشروطهـا، بـس أنـا عايـزة اقولـك حاجـة، أنا شـفت مـن عَيّنة حاتـم عـشرات كانـوا بيجيـوا وبيعيّطـوا، وسـاعة التنفيـذ بجَـد بيخافـوا ويجبنـوا، ومنـال فاهمـة ده كويـس علشـان كـده مـا بتفرطـش في رضـا الحلـواني، تلعـب شـوية، تسـتفيد شـوية، تتمتـع شـوية، بـس هـي فاهمـة الحقيقـة، منـال مسـكينة، كل ده مـا يخصنـاش.. أنـا يهمّنـي انتـي دلوقتي.

-أنا؟

-أيوه انتي، انتي غير منال واللي ممكن يسند منال يضعفك.

_مش فاهمة، انتي بتقولي ألغاز

_ منـال مسـكينة ضاعـت مِـن بـدري، عرفـت طعـم الـذل، انتـي مـش عارفـة قسـوة انـك تنامـي في حضـن راجـل انتي مـش طايقاه، مـش هاقول لـك علشـان تـاكلي زي الأفـلام العـربي، علشـان أي حاجـة، علشـان تنتقمي، علشـان تعـوّضي نقـص جـوّاكي، مـش عارفـة قسـوه انـك تتجـوّزي راجـل اكـبر منـك بتلاتـين سَـنَة، علشـان تركبـي عربيـة زي الـلي راكباهـا ضرتـك، وبعـد كـده تـدوّري عـلى شـاب تقـضي معـاه ليلـة، انتي عايـزة تبقـي كده

تسيبي روحك النقية القوية؟ يا شيخة حرام عليكي، دا عادل هيدرا بجلالة قَدرُه، ولا تقوليلي حاتم ولا رضا، راح الأزهر علشان يغيّر دينه ويتجوّزك رسمي ويتحدّى العالَم علشانك، وانتي مرضتيش لأنك أمينة مع نفسك ومعاه، ومش بس أمينة وكمان قوية، فضلتي تعيشي في الكلحة وانتي أصلا بِنت عِز وبِنت عيلة، وتعيشي بمرتّبك، على إنك تتجوّزي جواز مصلحة من غير مشاعر، دلوقتي بس فهمت كلمتك ليّا لما جيت لك أول مرة، أنا باعِز عادل وباخاف عليه، وهافضل جنبُه لحد ما يتجاوز الأزمة، بالرغم من إنك أحيانا حسيتي بمشاعر ناحيته، بس قدرتي بسرعة تفرقي بين مشاعر الحب ومشاعر الاحتياج ورفضتي تظلميه معاكي، بذمتك دي مش قوة؟ بعد ده كله عايزة تروحي تدوّري على كلبة في الصحرا علشان ترجّع لك إيه؟ حاتم ولا ثقتك بنفسك؟ الحاجات دي بنعملها للضُعَفا علشان ما ينتحِروش أو ما يقتلوش، كفاية ولّا أقول كمان؟

سكتت غادة قليلا، شعرت لوهلةٍ بالخِزي، ولكنها قالت:

- بس أنا موجوعة وضعيفة يا انشراح، وحاسة ان كل اللي بتقوليه ده كلام كُتُب وشعارات، أنا مَرمِيه لوحدي، الراجل اللي حبيتُه سابني بدون سبب وما حققتش أي حاجة، عايشة في الكلحة على الفتات، بيطلع عيني في العربية الصفيح، حتى العربية اللي اشتريتها بالقِسط اضطريت ابيعها بعد ما عقد الأمَم المتحدة خلص، إيه يعني ولا زوج ولا ولاد، ولا حُب ولا وظيفة ولا فلوس، كسبت إيه قولي لي؟

- الاختيارات كلها قدّامك، عادل هيدرا يتمنّالك الرضا ترضي، وده بيحبك وعايز يتجوزك، ولا بيلعب ولا بيتسلي، سِكة منال سهلة وانتي جميلة، ومنال مِن بُكرة تظبطك، والصحرا مش هتمشي، موجودة، والكلاب على قَفا مِن يشيل.

- إيه!

- انتي في الوضع ده بمزاجك وباختياراتك يا غادة، والفُرَص التانية موجودة، وأقول لك على فُرصة تانية انتي ماتعرفيهاش، لو عايزة حاتم سهلة.. على فكرة منال جَدَعة لو عرفت انه يخصك هتسيبه ليكي، هتديله بالجَزمة، حرَكة نَقص مِن بتوعها، وانتي تِظهري في الصورة بفتكر الملاك اللي ضحت بنفسها علشانه يقعد يَعيَط، وعلى فكرة هي خلاص بتنفَض له، أنا عارفة منال وشفتها بتتعامل معاه ازاي، عرفت انه خلاص بياخد الشلَوت ومِن غير حاجة ولا كلبة ولا صحرا، خلال شهرين هييجي يعيط لِك.

لم تتوقع غادة مِن انشراح كل هذا الحوار، كانت تشعر بكل جملة كأنها صفعة، لم يتحمل عقلها كل تلك الصفعات التي كانت كصدماتٍ كهربائية لإعادة الوعي. لم يكُن عندَها ما تقوله، صمتت كثيرًا وأخذت تردِّد بينَها وبين نفسِها:

«أترى حين أفقأ عينيك، ثم أثبت جوهرتين مكانهما.. هل ترى؟ هي أشياء لا تشترى»

****

اليـوم عاشـوراء، انـشراح كعادتهـا مشـغولة بعمـل أطبـاق العاشـوراء وتزيـين كل طبـق باسـم صاحبـه، كـما كانـت تفعـل أُمهـا، وتقـوم بكتابـة الأسـماء بالقِرفـة عـلى أطبـاق العاشـوراء.

نرجس، حياة، سيد، عواطف، سعيد، مرزوق، انشراح، ليلى.

وكلـما يزيـد فـرد يزيـد طبـق عليـه اسـمه، وكلـما مـات أحـد اختفـى طبقـه.

وتمر السنوات وتختلف الأسماء على الصينية

ويظـل عاشـوراء عيـدًا أسَريًـا مقدسًـا، تـصِر فيـه انـشراح عـلى دعـوة جميـع مَـن تحِـب إلى منزلهـا، كانـت صينيـة انـشراح كبـيرة مثـل صينيـة أُمهـا ومِـن قَبـل جَدتهـا، تراصـت فوقهـا أطبـاق العاشـوراء في أُلفـةٍ شـديدة، فلـم يكـن هنـاك مـكان لأي طبـق، تراصـت الأسـماء المكتوبـة بالقِرفـة عـلى سـطح العاشـوراء: منـال، عـادل، حَسـن، ناهـد، غـادة، مادلـين، زوبـة، شـيماء، حتـى الذيـن ماتـوا جَدتهـا نرجـس، وأُمها حيـاة، وسـيد أخوهـا، لم تنقطـع عـن عمـل أطبـاق لهـم توزعهـا رحمـة ونـورًا عـلى أرواحهـم.

عاشوراء هـذا العـام مختلفـة جـدًا، ففـي ليلـة عاشوراء أتاهـا الجميـع في المنـام، رأت نرجـس جَدتهـا، وأُمهـا، وببريـان، وسـيد، وآرام أنـوش، وهاجـوب، وسـعيد، رأت كل أصدقـاء الليـل ذلـك الـذي سـاندها يـوم

وفـاة جدتهـا وهـذا الرجُلَ الهـادئ الـذي نصحهـا بالـزواج مِـن حَسـن، رأت الكهـوفَ والعمالقـة، رأت سـوماتي، رأت الحسـين وفاطمـة النبويـة وأم العواجـز والشيخ يحيـى أبـو المظاليـم، ورأت فاطمـة سرحـان وهـي تغنّـي عـلى ورق الفُـل دلْعني، وإيريـنـي ترقـص مـع داليـدا زوربـا، رأت امـرأةً في مثـل عمرهـا تقـارب عـلى السـتين، شَـعرها فِضي متوسـط الطول ترتـدي بَدلـة بلـون السـماء المفضـض، تجلـس عـلى مـسرح تعـزف عـلى الجيتـار وتغنـى بالإنجليزيـة عـلى أنغـام موسـيقى ناعمـةٍ دافئـة:

«هل مِن الممكن أن يكون هناك المزيد

مِن تلك الحياة التي نصدّق أنها مِلكنا؟

هل مِن الممكن أن يكون هناك المزيد

في حياةٍ أكثر مما يستطيع الجسد الشعورَ بها؟

رأت كأنهـا ماتـت، كأنهـم يحمِلونهـا ويضعونهـا في سـيارةٍ لنقـل المـوتى مكتـوب عليهـا تحـت الطلـب 104 القاهـرة.

رأت كأن قبرهـا تحـول إلى مقـام يـأتي إليـه المريـدون مـن كل مـكان، يتحاكـون عـن كراماتهـا وقدراتهـا، عـن موتهـا المتكـرر، عـن مـن كانـت سـببا في ثرائهـم ومـن كانـت سـببا في شـفائهم.

وبينـما كان الجميـع مندمجـين في حديثهـم السـنوي وأكل العاشـورا والميـل في والتشـيز كيـك، التـي تعـودت ناهـد أن تحضرهـا معهـا كل عـام، والاسـتعداد لجلسـة الفنجـان الجماعيـة، التـي يصِر فيهـا الجميع أن تقـرأ انـشراح الفنجـانَ لـكل منهـم أمـام الجميـع، ويتنـدرون ويضحكـون عـلى مصطلحاتهـا المكـررة التـي حفِظهـا الجميـع عـن ظهـر قلـب، وتـرد

عليهـم سـخريتهم منهـا قائلـة «أتسـخرون مـن الفنجـان؟ لقـد كان الفنجـان نافـذتي عـلى أسرار البـشر الذيـن تعبـوا مِـن حمْلهـا فألقـوا بهـا في فناجينهـم، لأعيـد صياغتهـا عـلى لسـاني بمـا يحلـو لهـم أن يَسـمعوه»، طلبـت انـشراح مِـن غـادة دون أن يلاحِـظ أحـد أن تـأتي لمسـاعدتها في المطبـخ، تبِعَتهـا غـادة، حكـت لهـا انـشراح عـن حُلـم ليلـة أمـس قائلـه «حاسـة اني هامـوت قريـب».

ذهبـت إلى حجرتهـا وأحـضرت عـدة كرَاسـات مهترئـة، أعطتهـا لغـادة قائلـة: دي مذكـراتي، أنـا كنـت متعـودة اكتـب كل الحاجات الـلي بتحصل معايـا، انـا طـول عمـري بتحصـل معايـا حاجـات غريبـة مابعرفـش اتكلم عنهـا ولا احكيهـا لحـد، لمـا تقـري الـورق ده هتعـرفي كل حاجـة، الزائـر الليـلي، الوصفـات، الصـور الـلي كنـت باشـوفها في الأحـلام، سـوماتي، فيريـل، وصفـات نرجـس الـلي كنـت بعملهـا للنـاس، كل الحاجـات الـلي طـول الوقـت عقـلي كان رافضهـا وبعتبرهـا غريبـة مـش مفهومـة، غـادة، خـلي الـورق ده معـاكي ده أمانـة، ولـو فعـلا مـت وكانـت العربيـة الـلي جـت تاخـدني كان مكتـوب عليهـا «تحـت الطلـب 104 القاهـرة» زي مـا أنـا شـفت في الحلـم، يبقـى سـاعتها كل الـلي أنـا كنـت بشـوفه في الأحـلام مـش تخاريـف، ويبقـي وارد ان مـع الوقـت النـاس تفتكـرني شـيخة وليـا كرامـات زي ماشـفت المقـام بتاعـي في الحلـم، سـجلي الـكلام الـلي في الـورق ده يـا غـادة واحفظيـه في أي حتـه، علشـان لـو افتكـروني شـيخة يعرفـوا الحقيقـة، كل الحقيقـة، وإني لمـا كنـت بامـوت واصحـى دي حاجـة علميـة زي مـا قالـت مادلـين، وركـزي عـلى كلام سـوماتي ان

كل اللي بيحصل معايا ده مش كرامات ولا معجزات، وإن زي ما ربنا خلق أجهزة في جسم الإنسان تقوم بالوظائف الضرورية له، بالرغم مِن أنه كان يقدر يخلي الإنسان يخلَف مِن غير جهاز تناسلي ولا بويضة وحيوان منَوي، ويتغذى مِن غير فم وأسنان ومِعدة وأمعاء وبنكرياس وكِلَى ومثانة، يكون مِن المَنطقي ان ربنا خَلق أجهزة مسؤولة عن تلبية احتياجاته النفسية عن الحب والنجاح وتحقيق أحلامه وطموحاته، أجهزة تانية تخلي الإنسان قادر انه يشفي نفسه وغيره من الأمراض، وأحيانا قادر انه ياكل النار والزجاج ويتواصل مع الآخرين عن بُعد، وزي ما كان تكوين الإنسان مجهول لشعوب زمان وكانوا فاكرين ان الست بتخلَف لوحدها لما بتقعد جنب النهر تحت ضوء القمر في أوقات معينة، وإن الراجل مالوش أي علاقة بعملية الإنجاب، ولأن الأجهزة دي أو القدرات دي مفترَض إنها موجودة في تكوين الإنسان زيها زيّ الأجهزة الأخرى، يبقى كل الناس عندها نفس القدرات، علشان كده مفيش إنسان على وجه الأرض ماحَسّش بيها، كل واحد فينا أكيد ولو مَرة فكر في حد ولاقاه بيتصل بيه أو حِلِم حِلم وبعدين لاقاه بيتحقق، أو اتمنّى حاجة قوي ولاقاها بتحقق، أو دَخَل مكان لأول مَرة بس كان متأكد انه دخل المكان ده قبل كده، وحاجات تانية كتير، وده دليل ان كل البشر عندهم قدرات خاصة، وعلشان كده الإنسان لازم يعرف انه مش محتاج ولي مِن الأولياء أو قديس من القديسين علشان يساعده، نفس الأجهزة اللي عندك عنده، الفرق اللي بينك وبينهم ان هُمّ عندهم إرادة شغلت

أجهزتهم وعلت قدراتهم فاتفتحت معاهم أسرار أجسامهم، لو البشر أدركوا ان القوة خلّقها ربنا جوّاهم هيعرفوا أنهم مش محتاجين الفلوس ولا المراكز ولا الأوليا ولا الراجل، ويبقى الكلام اللي قاله لي سوماتي عن إن الناس لازم تلاقي قوتها وتطور الخير اللي جوّاها، مش بس علشان يعيشوا سعدا في الدنيا أو يدخلوا الجنة في الآخرة، ولكن كمان علشان يحافظوا على توازن قوّى الخير قدّام قوّى الشر في الكون. كلام مهم وضروري الناس تعرفه، لأن أكيد فيه ناس كتير قوي زيي بُسَطا وفقرا ومش متعلمين وماعندهمش فلوس، فاكرين نفسهم مالهموش لازمة وجايين في الدنيا كِمّالة عدد، ساعتها يعرفوا ان ليهم دور ودور مهم «ازاي يحافظوا على استمرار البشرية»، الورق فيه تفاصيل كتيرة قوي، ومواضيع كتيرة.

غادة، لحد دلوقتي مافيش حاجة أكيدة، ممكن يكون كل اللي مكتوب ده هلاوس، أو حالات نفسية، ومافيش لا فيريل ولا سوماتي، وإن دول كانوا شخصيات وهمية خلقهم خيالي احتياج لونيس أو سند، ممكن الصوت كان صوت روحي اللي رفضت تصدق انها ضعيفة، صوت إرادتي بيعلمني ازاي الاقي جوايا نقطة القوة اللي أواجه بها قسوة العالم، ماحدش شاف ولا سمع غيري، ماعرفش ممكن نعرف الحقيقة ازاي! بس اعتبري موضوع العربية ده هو العلامة.. ماتنسيش «تحت الطلب 104 القاهرة».

****

لم يكن المقرئ قد أنهى الربعَ الثاني، حتى بدأ حَسن يفيق مِن ذهوله ويتأكد أنه فعلا مأتم انشراح. ماتت انشراح. يحدث هذا دائمًا. أحيانًا بدون مقدمات، بهدوء شديد وبدون ضجة بدأ حسن يتحقق مِن وجوه هؤلاء المشهورين، اكتشف أنه يعرف معظمهم، هذا الإعلامي الشهير هو ابن د. ناهد الرزيقي ورجُل السياسة مجدي الليموني، وهذا الوسيم المتأنق المحاط بقبيلةٍ مِن الحَرس هو رجُل الأعمال والسياسي طارق ابن ليلى، ومعه حماه د. عبد الفتاح رضوان عضو مجلس إدارة أحد النوادي الرياضية الشهيرة، يلتف حولهم صفوة المجتمع الذين حضروا لتقديم واجب العزاء لطارق عويضة في وفاة عمته، ليس بعيدًا عنه يجلس رجُل الأعمال رضا الحلواني زوج منال، وبالطبع لم يتغيب رجُل الأعمال عادل هيدرا، حتى المستشار حاتم السعدي لم يستطِع أن يتغيب عن مأتم انشراح التي ساعدته كثيرًا في التعافي مِن حبّه لمنال، فأصبح يُكِن لها شعورًا صادقًا، وليد البطل كان أيضًا موجودًا ومُحاطًا بأكبر تُجّار البساتين ودار السلام، الذين جاءوا لمجاملته في وفاة خالة زوجته، أمّا النساء الجميلات سيدات المجتمع فهُنّ منال وناهد وغادة، وصديقاتهن اللاتي حضرْن لتعزيتهن، بعد أن أعلنت كل مِنهن أن هذا المأتم هو مأتم عمّتِها، كما كان يحلو لهن أن

ينادينها، فأتى إليها المعزون والمعزيات مِن كل مكان، حتى مادلين لم تتغيب عن الحضور، بيسة التي أصبحت اسمًا لا يستهان به في مجال الدعوة، وقفت تتقبل العزاء في أختها بجوار ناهد وغادة ومنال وشيماء وهدى وزوبة.

لم يلبث حَسن أن أفاق مِن ذهوله حتى انتابه ذهولٌ آخر، فوجئ بإبراهيم يدخل القاعةَ، نسيَ المعزون أنهم في مأتم والتفوا حولَه يرحبون به، قام معظمهم مِن أماكنهم يتكالبون لنيل شرف مصافحة دكتور إبراهيم الدريني، أفسحوا له مقعدًا في الصدارة.

بينما كان إبراهيم يتجه إلى حَسن ليقدم له التعازي.

اجتاحت حَسن مشاعرُ هي خليط مِن الصدمة والغَيْرة. إبراهيم جاء ليودع انشراح! كان يعلم أنه عاد إلى مصر وأنه أصبح من أهم الشخصيات المصرية التي لا يستهان بها دوليا، وأنه يملك مكانة ونفوذا، ولكنه لم يتصل بأي منهم، عرفوا بعودته إلى مصر من الجرائد والتليفزيون بدأت الأسئلة والشكوك تدور في ذهنه، مِن أين عرَف أن انشراح ماتت؟ هل كانوا على اتصال؟ هل لا يزال يحبها لدرجة أنه يتخلى عن وضعه الاجتماعي ويحضر مأتمها؟ استقبله استقبالا يبدو فاترًا وقال بنبرة متهكمة:

حمدالله على السلامة يا خالي.

-البقاء لله، عامل إيه يا حسن؟ انشراح كانت أخت غالية ربنا يرحمها.

هدأت المصافحات قليلا مع بدء المقرئ في التلاوة لفترة، سمحت

لإبراهيم أن يغوص في الذكريات، تمنَّى لو كانت موجودة، شَعرَ أنه يفتقدها كأنْ لم تمر السنون، تذكَّر ضحكتها الرائقة، لمعان عينيها التي لم تضاهِها أي أعينٍ قابَلَها في حياته، عندما كانت تراه مقبِلا عليها، تذكَّر تلك المَرأة التي كانت تجعل مِن درب شغلان قطعة مِن الجَنة، أخذ يحدِّث نفسه أو يحدِّثها.

«كان هناك دائمًا شيء ما بداخلي، يجتاحني في فترات ضعفي وفترات انتصاراتي المدوية يؤرقني ويذكّرني بكِ، لم أستطعْ مطلقًا أن أتجاوزكِ، كنتِ ظلا ملازِمًا لي حتى وإنْ حاولتُ إنكار هذا، أعلم أن روحك هنا ترى وتسمع وتعلم أنني جئت».

تَبدّل حَسن فجأة كأنه أفاق مِن الحشيش الذي شربه عمره كله، وبصوتٍ ثابت منخفض قوي قال لإبراهيم:

-أول ما المقرئ يخلّص الربع ده تاخد بعضك وتمشي من هنا، بأي صفة تاخد عزا انشراح؟

فوجِئ إبراهيم بتصرف حَسن غير المتوقع، وشعر بالإهانة مِن هذا الصعلوك.

لم يُعطِه حَسن فرصة للرد، استطرد مكملا حديثَه:

انشراح مراتي أنا يا خالي، وأنا الوحيد اللي مِن حقه ياخد عزاها، فاهِم؟ إنت اتخليت عنها وسِبتها مجروحة، ولولاي أنا كانت اتجننت، وجاي النهارده تاخد عزاها؟ تاخد عزا مراتي بمناسبة إيه؟ ده شرف انت ماتستحقوش.

ذُهِل إبراهيم مِن حَسن، شَعر لوهلة أن حَسن قرأ أفكاره، كاد

يشك أنه تحدّث إلى انشراح بصوتٍ عالٍ سمعه حَسن، ولكنه سرعان ما استعاد توازنه وأجابه بنبرة تهكُّم:

- وانت بقى اللي تستحقه؟ قدِّمت إيه لانشراح؟ جوّعتها ومرمطتها لحد ما بقت شغالة في البيوت.

- على الأقل سَتَرْتها وعيّشتها حياة طبيعية، بعد ما كانت اتجننت وبقيت تلف على المشايخ علشان حبيبها وعدها وغدر بيها، امشي يا خالي خليك في تليفزيوناتك وتصريحاتك، وسيبلي الحزن على شريكة عمري.

جلس المايسترو أشرف الدمرداش ليس بعيدًا عن إبراهيم وحَسن، كان يتأمل هذيْن الرجُليْن ويسترجع خطاب انشراح له، الذي تركته مع ناهد ردًا على خطابه، حكت له فيه عن كل شيء عن إبراهيم وحَسن وغيرهما، كأنها كانت تقاسمه حياةً لم يهبها لهما القَدر.

كان أشرف يتذكر رسالة انشراح متأملا هذيْنِ الرجُليْنِ، أحدهما سَرَق عمرها، والآخر سرَق فرحتها بالحياة، وعلى عكس حسن كان أشرف متأكدا أن إبراهيم سيحضر العزاء، كان يعلم أن هذه اللحظة هي اللقاء الأخير، الناس عادة يفعلون ذلك، المواجهة أحادية الطرف، التي يضمنون فيها أنهم غير مطالبين بتقديم أي اعتذار حقيقي، أي فعل، إنها الفرصة الوحيدة المتبقية لهم حتى يثبتوا لأنفسهم أنهم لم يكونوا بكل هذه القسوة وكل هذا الجحود.

شيء يُلِح عليه أن يذهب لإبراهيم ليقول له أنَا حَبيبُهَا، إنه رجُل ويعلَم كيف ستؤلِمه هذه الجملة، وكيف سترِبكه، وستنزع

عنـه مُلْكَـه عـلى عـرش قلبهـا وتجـرّده حتـى مِـن متعـة ذكريـاتٍ لا يسـتحقها، وإذا بأسـئلة تقتحـم أشرف «هـل لي الحـق أن أقـرر بالنيابـة عنهـا؟ وهـل سـيعجبها تـصرفي؟ كان بإمكانهـا أن تعلـن هـذا في حياتهـا إذا مـا تركـت حسـن وتزوجتنـي، ولكنهـا لم تفعـل، نعـم كانـت انـشراح امـرأة قويـة، قويـة بمـا يكفـي لـكي تقـاوم الواقـع المـر، أن تخلـق منـه حيـاة تحيـك قصاصاتـه لتصنـع منهـا شـيئا يـسترها، لكنهـا لم تملـك ذلـك النـوع مـن القـوة الـذي يجعلهـا قـادرة عـلى تغيـير هـذا الواقـع، وجـدت لنفسـها كل المـبررات الوفـاء، الصـبر، فضلـت أن تعيـش مـع حسـن حتـى المـوت.

شعر بصوت انشراح تناديه:

- أشرف

التفتَ إلى صوتها، تَخيَّلَها بجواره تقول له:

- أنـا عايـزة حاجـة كتـير اتمنيتهـا، انـت مايسـترو عالمـي، أشـهر مايسـترو مـصري تقريبـا، ممكـن تعمـل لي هديـة، ممكـن تعـزف لي حاجـة، كتـير تخيلـت انـك بتعـزف عـلى المـسرح وانـا قاعـدة في القاعـة باسـمعك وباسـمع تصقيـف النـاس ليـك، وكتـير تخيلـت إن انـا وانـت لوحدنـا وانـت بتعـزف لي عـلى البيانـو، حقـق لي الحلـم ده، اختـار لي حاجـة اعزفهـا لي وانـا جنبـك، بعـد مـا اتحـررت مـن كل شيء.

ود أن يعاتبهـا أو يواجههـا، إنهـا لم تتحـرر، إنهـا هربـت إلى المـوت، ولكنـه يحبهـا، عـادت إلى مخيلتـه تلـك المـرأة التـي رغـم كل شيء ظلـت دافئـة صادقـه محبـه ، شرَدّ كثـيراً في هـذه المَـرأة... «المَـرأة البَهْجَـة»،

وإذا بروحـه تعـزف لهـا موسـيقى بيتهوفـن ،أخـذ صـوت الموسـيقي يعلـو ويعلـو حتـى غطّـى عـلى كل شيء، عـلى صـوت المُقـرئ، عـلى بُـكاء غـادة وناهـد ومنـال وشـيماء، عـلى هَذَيـان حَسـن، عـلى ضجيـجُ اللوعـة في قلـب أشرف

Ode to Joy «إلى البَهجة»

ode to freedoom «إلى الحرية»

(تمت بحمد الله)

القاهرة

6يناير2016

كتب تمت الاستعانة بها

1 - تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم _عبد الرحمن الرافعي

2 - من هم أسلاف البشرية_ إرنست مول داشف

3 - نساء يركضن مع الذئاب - الاتصال بقوى المرأة الوحشية -كلاريسا بنكولا- ترجمة مصطفى محمود

4 - تعاليم المتصوفين _حضرة عنايات خان

5 - Eckhart Tolle The Power of Now

6 - قصه الحضاره ...ول ديورانت

7 - الفولكلور في العهد القديم جيمس فريزر

القصائد

1 - حكايه الدرب الأحمر_ محمود الشاذلي

2 - جاك بريفير

3 - الكعكة الحجرية _أمل دنقل

4 – لا تصالح _ أمل دنقل

عن المؤلفة:

ضحى عاصي كاتبة مصرية من مواليد المنصورة درست الطب في موسكو وتجيد الروسية والفرنسية والإنجليزية.

عملت مترجمه ومرشده سياحية حاصله علي دبلوم اللغة الروسية من جامعة موسكو، بكالوريوس سياحة وفنادق جامعة حلوان، دبلوم أكاديمية الفنون معهد النقد الفني وأيضا دبلوم الفنون الشعبية أكاديمية الفنون، لها إسهامات متنوعة في العمل الثقافي فكانت من المؤسسين لمركز أبجدية الثقافي ومركز شبابيك الثقافي، عضو اتحاد الكتاب واتيليه القاهرة ونادي القصة.

تنتمي إلي جيل الألفية الثالثة ويشغلها الهم الإنساني في كتاباتها، أصدرت مجموعتين قصصيتين هما: «فنجان قهوة» (2007) عن دار «شرقيات»، و«سعادة السوبر ماركت» (2009) عن دار «ميريت»، وكتاب في علم الاجتماع السياسي «محاكمه مبارك بشهادة السيدة نفيسة»عن دار نهضه مصر .

صدر عن بيت الياسمين

عام ٢٠١٠

١- «What A Woman Is» تأليف «Opal Palmer» رسوم «شيماء كامل» (أشعار باللغة الإنجليزية مترجمة إلى العربية ولوحات فنية).

٢- «ثقوب تتسع قليلاً» «مجموعة قصصية» لـ «حنان فاروق».

٣- «لافندر» «مجموعة قصصية» لـ«شيماء كامل».

٤- «دفتر أحوالي» «مجموعة قصصية» لـ «سيد مشهوري».

٥- «L for life , love lots in between» «مجموعة قصصية بالإنجليزية» لـ «لؤي تاج الدين».

٦- «عائلة باسكوال» لـ «كاميليو خوسية سيلا» نوبل للآداب ترجمة «د.حامد أبو أحمد».

٧- «حفل المئوية» «رواية» لـ «رضوى الأسود».

٨- «مرة واحد صعيدي» دراسة لـ «محمود الكردوسي».

٩- «رفيقي للكونسير» «معجم جيب» لمصطلحات الموسيقى الكلاسيكية لـ «حسام الدين زكريا».

١٠- «كلام ناقص» «مجموعة قصصية» لـ «ربيعة ريحان».

١١- «كلماتي» «مجموعة قصصية» لـ «رقية حمود الشبيب».

١٢- «لوريس» «مجموعة قصصية» لـ «رقية حمود الشبيب».

١٣- «أحلام قصيرة - سياج» مجموعة قصصية لـ «رقية حمود الشبيب».

١٤- «السيت فات» مقالات «إبراهيم عبد المجيد».

عام ٢٠١١

١٥- «خارج السياق» «مجموعة قصصية» لـ «طلال أبو شاويش».

١٦- «نستحق موتا أفضل» «رواية» لـ «طلال أبو شاويش».

١٧ - «شخص صالح للقتل» «مجموعة قصصية» لـ «شريف صالح».

١٨- «أسباب قد تبدو وجيه للقتل» «مجموعة قصصية» «نبيل عبد المحسن سالم».

١٩- «هوم سيكنس» «رواية» «محمد حسن غانم».

٢٠- «الرملة البيضا» «سير وتراجم» لـ «عصمت داوستاشي».

٢١- «واه يا غلبي» «أشعار» «هويدا عطا».

٢٢- «From Gaza With Love» مدونة عن حرب غزة لـ «منى الفرا».

٢٣- «مسيح بلا توراة» «رواية» لـ «أسامة حبشي».

٢٤- «شوارع ديسمبر» «رواية» لـ «أحمد نبيل».

٢٥- «الشريان» «رواية» لـ «شريفة محمد العبودي».

٢٦- «الدلجموني» «رواية» لـ «ممدوح عبد الستار».

٢٧- «تراتيل وحكاوي أخرى» مجموعة قصصية لـ «أحمد الباسوسي».

٢٨- «السيجارة الأخيرة» «مجموعة قصصية» لـ «منى عوض».

عام ٢٠١٢

٢٩- «من الذي يصنع الأزمات في مصر» لـ «إبراهيم عبد المجيد».

٣٠- «حكاية شمردل» «رواية» لـ «عمار علي حسن».

٣١- «فضاءات مدينة» «رواية» لـ «رضا صالح».

٣٢- «العربات» «أشعار» «جاسم ألياس».

٣٣- «أحن إلى باب أهلي» «أشعار» «جاسم ألياس».

٣٤- «حكايات ساعة الإفطار» «مجوعة قصصية» لـ «إبراهيم عبد المجيد».

٣٥- «كوابيس شرق أوسطية» «رواية» لـ «طلال أبو شاويش».

٣٦- «بقايا امرأة» «رواية» «باسل ناصر».

٣٧- «the real story of the egyption revolution» «مقالات» باللغة الإنجليزية لـ «حسن الصواف».

٣٨- «النقد والتذوق الجمالي» دراسة لـ «د.حسن يوسف».

٣٩- «شيء من القلق» أشعار «قاسم بركات».

٤٠- «الحياة في الكارنتينا» «رواية» لـ «محمد حسن غانم».

٤١- «عيسى نبي والحسين ابن بنت النبي» «دراسة» لـ «أحمد إسماعيل».

٤٢- «حكايات من زمن فات» «سيرة ذاتية» لـ «كمال خليل».

٤٣- «نص هجره أبطاله» «رواية» لـ «دينا عبد السلام».

٤٤- «عشيقات الطفولة» «مجموعة قصصية» لـ «محمد بركة».

٤٥- «بلاء السيم مختارات» من أعمال كاتب سوريالي ترجمة «بشير السباعي».

عام ٢٠١٣

٤٦- «سياسة بالمكسرات» «مقالات ساخرة» لـ «هبة عبد العزيز».
٤٧- «محاكمة لأشجار البن» «مجموعة قصصية» لـ «أشرف عبدالحكيم».
٤٨- «اخترت القطار للسفر» «أشعار» «عبد الرحيم طايع».
٤٩- «أيا قلبي» «أشعار» لـ شيماء «حافظ الصباغ».
٥٠- «جريمة عطر» «مجموعة قصصية» لـ «ريما إبراهيم».
٥١- «قانون جديد» «رواية» لـ «مؤمن المحمدي».
٥٢- «الاحتياطي» «رواية» لـ «زكريا عبدالجواد».
٥٣- «مواسم الحب والدم» «رواية» لـ «طلال أبو شاويش».
٥٤- «باب سر» «رواية» لـ «آمال الميرغني».
٥٥- «سابت» «أشعار عامية» لـ «دنيا السركي».

عام ٢٠١٤

٥٦- «أصدقائي الكلاب» «رواية» لـ «فالح مهدي».
٥٧- «أوراق غريبة» «مجموعة قصصية» لـ «أحمد صوان».
٥٨- «كازانوفا المصري» «مجموعة قصصية» لـ «أحمد الباسوسي».
٥٩- «بلد لا تعرف الحب» «أشعار» لـ «ريهام زينهم».
٦٠- «مخبي قلبه في حنينه» «أشعار» «هويدا عطا».
٦١- «إليك ربي» أشعار «مروة سعيد».
٦٢- «هكذا تكلم نبهان» «مجموعة قصصية» لـ «سلطان حويطي».
٦٣- «شخص حزين يستطيع الضحك» مجموعة قصصية لـ «صابر رشدي».
٦٤- «دقائق بعد الثالثة» «رواية» لـ «حازم الشاذلي».

٦٥- «نبض رأس» «أشعار» «أحمد الشاذلي».
٦٦- «بيضة النعامة» «رواية» لـ «رءوف مسعد».
٦٧- «الغرباوية» «رواية» لـ «رءوف مسعد».
٦٨- «إيثاكا» «مجموعة قصصية» لـ «رءوف مسعد».

عام ٢٠١٥

٦٩- «مشاهدة من واقع النفق» «رواية» لـ «مصطفى عبدالباقي».
٧٠- «عنب أخضر» «رواية» لـ «محمد كشيك».
٧١- «حامل السر» «رواية» لـ «وليد مرعي».
٧٢- «بولاق أبوالعلا» «رواية» لـ «فتحي سليمان».
٧٣- «Dealing With A Devil» «نوفلا» لـ «منه القاضي».
٧٤- «أين بغداد» «أشعار» «جاسم ألياس».
٧٥- «صندوق خشب» «مجموعة قصصية» لـ «يحيى موسى».
٧٦- «برج العذراء» «رواية» لـ «إبراهيم عبد المجيد».
٧٧- «سنة و٣أيام» «رواية» لـ «أحمد فرغلي رضوان».
٧٨- «نوران» «مجموعة قصصية» لـ «محمد عبد الستار المليجي».
٧٩- «حرائق مدينة أئمة» «رواية» لـ «سماح حسنين».
٨٠- «لص الأرواح» «رواية» لـ «محمد حسن غانم».
٨١- «نقد العقل الدائري» «دراسة» لـ «فالح مهدي».
٨٢- «نزول عيسى بين الخدعة والحقيقة» «دراسة» لـ «عزت حجازي».
٨٣- «في سجن النساء» «رواية» لـ «جين بقطر».
٨٤- «مذكرات عربجي» مقالات لـ «سليمان نجيب» سلسلة جذور.

عام ٢٠١٦

٨٥- «إصابة ملاعب» «رواية» لـ «أحمد الصاوي».

٨٦- «الفالح» «رواية» لـ «حازم الشاذلي».

٨٧- «طبقات المعتزلة» «دراسة» لـ «أحمد بن يحيى بن المرتضى» سلسلة جذور.

٨٨- «أغسطس أسفار العبث» «رواية» لـ «أسامة الشاذلي».

٨٩- «وقائع مسروق أبن مسروق» «أدب ساخر» لـ «محمد منير».

٩٠- «المذكر» «رواية» لـ «مالك مصطفى».

٩١- «رحيل» «مجموعة قصصية» لـ « محمد عبد الستار المليجي».

٩٢- «مذكرات عبد أمريكي» ترجمة «إبراهيم عبد المجيد» سلسلة جذور .

٩٣- «أغنية النار» «رواية» لـ «بثينة خضر مكي».

٩٤- «صهيل النهر» «رواية» لـ بثينة خضر مكي».

٩٥- «وداعا نيومينسو» «رواية» لـ فاطمة المرسي».

٩٦- «١٠٤ القاهرة» «رواية» لـ «ضحى عاصي».

٩٧- «بطلة سيما» «مجموعة قصصية» لـ «غادة فايق».

٩٨- «على قيد الموت» «رواية» لـ «عمر فارس أبو شاويش».

٩٩- «الاتجاه المضاد» «رواية» لـ «ريم تيسير غنام».

١٠٠- «الحياة باللون الأبيض» «رواية» لـ «عمر حاذق».

١٠١- «الكتاب صفر» لـ «محمد عبد الرحمن».

104

القاهرة

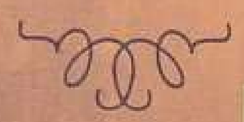
رواية

هذه الرواية تعتبر عملا إبداعيا رائعا يتميز بحيوية السرد، فتجذبك من صفحاتها الأولى ببساطة مدهشة، لتستغرق في عالم مترابط من الشخصيات النابضة القريبة، إذ تقدم الكاتبة لوحة اجتماعية شديدة التشابك والكثافة، تكشف وتحرك الحياة الاجتماعية المصرية منذ خمسينات القرن الماضي، وحتى العقد الأول من القرن الحالي، وتصهر ثقافات الأولياء والمتصوفة مع عالم الحكمة والفلسفة اليونانية، والغناء والحكي مع حضارات التبت ووصفات السحر الشعبي، تلك العوالم التي -من خلال تفاصيلها- تقودك إلى فلسفة الطبيعة الإنسانية الممزوجة حتما ما بين عالم الروحانيات وأرض الواقع.. ما بين المتمنى والمتاح.

...

ضحى عاصي تتمرد على أي شكل من أشكال الجمود، وتحرر السرد والبناء من البلاغة التقليدية، لتبني روايتها بناء رائعا ومدهشا من مادته، اللغة، التي تتجاوز الكاتب إلى أرواح البشر والمكان.

الناشر







ISBN 978-977-6170-00-9

غلاف: عبد الرحمن الصواف